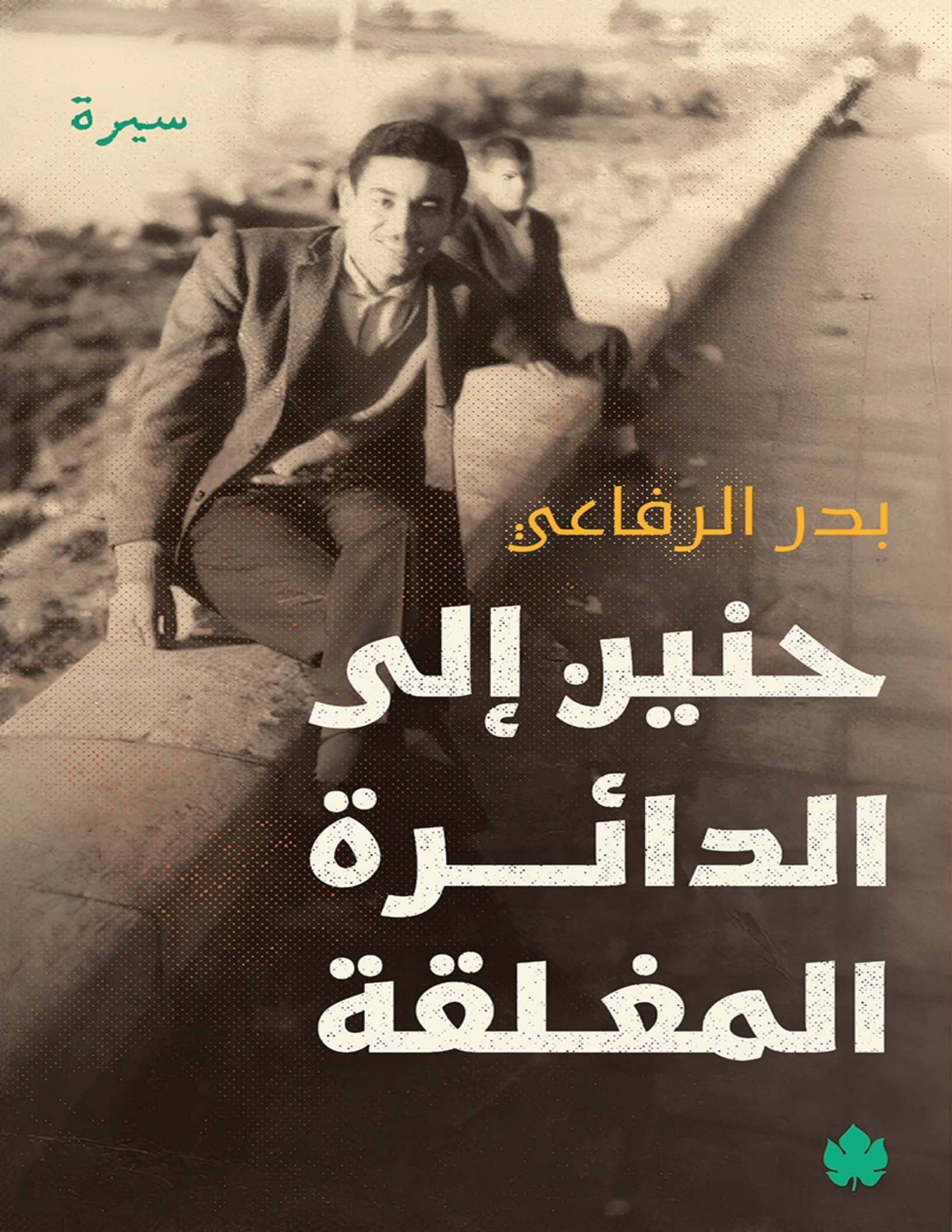

سيرة

بدر الرفاعي

# حنين إلى الدائرة المغلقة

بدر الرفاعي

# حنين إلى الدائرة المغلقة

سيرة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
X.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
© بدر الرفاعي ٢٠٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الصور من المجموعة الخاصة بالمؤلف باستثناء صورة الشيخ إمام ونجم ومحمد علي، فهي من أرشيف «جمعية محبي الشيخ إمام».

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

الرفاعي، بدر
حنين إلى الدائرة المغلقة: سيرة / بدر الرفاعي ـ القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٢١٦ ص؛ ٢٢ سم
تدمك: 9789779603186
١ـ سيرة.
أ ـ العنوان..
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٤٤٠ / ٢٠٢٤

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات


توتالة
البراح
شبرا من تاني
النكسة
الطريق إلى الحرب
عرفت هؤلاء
المستشار
حجازي الرسام
علاء الديب
عبد الفتاح الجمل
المحنة
ملاحق
عم فرج العنتري
صيد الأسماك
أوان السمع
مسرح الستينيات
جمعية «رد الاعتبار للاستعمار»
شعبي العظيم

وُلدت «آخَرَ».

جئت إلى الدنيا (في الثامن من أكتوبر ١٩٤٨، عام النكبة) طفلًا شيوعيًّا. الأب شيوعي محترف، يعمل سرًّا، ومطلوب دومًا من البوليس، ويختفي معظم الأوقات، وفوق هذا مطرود من عمله كميكانيكي بسلاح الطيران بسبب نشاطه السياسي، ويعيش على القليل الذي يقدمه له التنظيم ككادر محترف. والأم عاملة من أسرة متواضعة بأحد مصانع النسيج، ونشطة في صفوف العمال، وهذا ما جمعها بأبي. بعد مولدي بأربعة أعوام جاءت الحركة المباركة (ثورة يوليو ١٩٥٢). ورأيت، بعينَي الطفل ومن بين سيقان الكبار، موكب الرئيس محمد نجيب وهو يمر بالميدان المواجه لكوبري الحلوة الحديدي (كوبري المظلات الآن) من ناحية شبرا البلد، وهو واقف في سيارة مكشوفة يحيي الجماهير التي احتشدت لتحيته.

جزء كبير مما يرد هنا من ذاكرة أمي، فكثير مما كانت ترويه أصبح بمثابة إكليشيهات في ذاكرتنا نحن أبناءها.

في تلك الفترة، وبسبب ظروف أبي، كنا نضطر إلى تغيير محل إقامتنا بانتظام. فمما أتذكره أننا سكنا في منية السيرج وشارع شيكولاني، وأكثر من مكان بشبرا، كما ذهبنا إلى مقابر الإمام الشافعي ومصر عتيقة (مصر القديمة)، إلخ. ولكل من هذه الأماكن وتلك الحياة عندي ذكريات ضبابية. لم أكن أختلط سوى بأولئك الذين يفدون على أبي للاجتماع سرًّا وتقرير أمور أعطوها حياتهم وتحملوا من أجلها الهرب والسجون والمعتقلات. تحفظ ذاكرتي حتى الآن أسماء كثير منهم (ومنهم رفاق من الشيوعيين السودانيين، أذكر منهم عبد الخالق محجوب وجنيد علي عمر وعبده دهب وعبد العزيز الأمين، ومجذوب). لا تحتفظ ذاكرتي بمظاهر ألعاب الطفولة أو أولئك الأطفال الذين يحتمل أن أكون قد شاركتهم اللعب.

اعتدت منذ وقت مبكر من طفولتي زيارات البوليس السياسي، التي كانت ليلية عادة. ولم أرَ أبي بوعي إلا وأنا في المدرسة الإعدادية، عندما أنهى السنوات السبع الأخيرة في السجن. أتذكر بصورة ضبابية عندما زرته وأنا صغير زيارة سلك في سجن القناطر، حيث تفصل شبكة من السلك بين السجين وزائريه، وكان يرتدي البدلة الزرقاء. أما المرة الأخرى، فسمعت

صوته فقط وعن بعد من دون أن أراه. كان حول سجن الاستئناف مجموعة من البيوت، تطل على زنازين السجن، فكان أهالي السجناء يقفون في شرفاتها وينادون على السجين الذي يتواصل معهم من نافذة زنزانته، وذلك نظير مبلغ من المال. وقد صحبت أمي في إحدى هذه الزيارات. سمعت في طفولتي بأسماء سجون كثيرة زارها أبي وزملاؤه، ومنها ما لم يعد موجودًا الآن: هايكستب، سجن الأجانب (قسم شرطة الأزبكية حاليًّا)، ليمان طرة، سجن الطور، سجن أبو زعبل. وشُغلت في طفولتي بحكايات هذه السجون والمطاردات. تقول أمي إنني كنت بارعًا منذ الصغر في الإفلات من المخبرين وتضليلهم. لذلك كان دوري في تلك السن المبكرة إحضار زملاء أبي إلى مخبئه بعد التمويه على المخبرين.

ما الذي يعنيه أن تكون طفلًا شيوعيًّا؟ لا شيء! تمامًا كأن تكون طفلًا مسلمًا، لكن على الطرف الآخر. فالدين والأيديولوجيا سواء؛ لكل منهما حلاله وحرامه، أوامره ونواهيه، كل منهما يحلل ويأمر بما جاء به، ويحرم وينهى عما سواه. ولكليهما طقوسه. وكلاهما له كتابه المؤسس وسنته. له فقهاؤه وسلفه الصالح، وكتبه الصفراء. ومع الأيام، وجدتني أرتدي ثوب المناضل ابن المناضل، وأنا لست كذلك. أنا بطبعي لا أحب المسؤولية ولست مقاتلًا. أنا أنسحب عند أدنى صدام، حتى لو كانت في هذا خسارة لي. في أي مواجهة أهرب وأستسلم قبل أن تبدأ المعركة، أستسلم قبل أن أنهزم. لم أعرف الشجاعة يومًا. لا أحب المسؤولية، لكن شعوري بالواجب يدفعني إلى تحملها حتى النهاية. وقد ارتديت هذه البدلة وتعثرت فيها لفترة. استمرأت ارتداءها إلى حين. وعندما قررت التخلي عنها لم يصدقني أحد، حتى أبي نفسه؛ أبي نفسه ظل يحرضني لآخر وقت كي أكون مثله، مناضلًا. لم يتصور أن من الممكن أن يكون لي اختيار آخر. الحياة عنده تعني النضال في سبيل القضية، فكيف يخون الابن القضية؟ كان أبي يتعامل مع مصيري كقضية مسلَّم بها بحكم قوانين الوراثة. والنضال في سبيل القضية عند أبي يعني العمل السري. وفكرة أبي عن العمل السري كانت مثالية جدًّا. كان يقول لي إن أهم شيء الإخلاص، وإنني لو وجدت اثنين مخلصين، فمن الممكن أن أنشئ تنظيمًا قويًّا يقيم الدنيا ويقعدها! كان أبي شديد الإخلاص لما يراه قضيته. أما أنا فقد نَمَت معي الشكوك في كل شيء. بطبيعتي، عندما يُعرض على عقلي شيء يظهر

نقيضه على الفور، وتبدأ الدوامة. لو تُركت وشأني لاخترت أن أكون وجوديًّا أو عدميًّا أو لامنتميًا أو هيومانيًّا. لكننا في كل الأحوال لا نختار مصائرنا. عمومًا، أنا لم أختر شيئًا في حياتي، والمرات القليلة التي اخترت فيها، اكتشفت بعدها أنني لست من أختار، بل الأيديولوجيا. الأيديولوجيا تختم كل شيء في حياتك بخاتمها وتقود سلوكك، بل وتصبغ ذائقتك بصِبغتها. وأبرز تجليات الأيديولوجيا أنها تحتويك وتصبح هويتك الأصيلة التي لا جدال فيها.

كما أُلبست ثوب المثقف، وهو ثوب يربكني حتى الآن. فالشيوعي في زمننا كان يحوز لقب «مثقف» بالتبعية. وعلى زمننا أيضًا كان هناك قول شائع بأن «داخل كل شيوعي شاعر فاشل». أما أنا فزادي من الثقافة قليل، والكتب التي قرأتها عددها قليل (لا أدري متى كان آخر كتاب قرأته حتى نهايته)، ومصدري الثقافي الأكبر هو ما ترجمته من كتب، والتأمل. وأنا لا تستهويني الأفكار العميقة، ليس تعاليًا وإنما كسل وعدم قدرة. عشت الدنيا بعين الطائر، وفاتتني التفاصيل، أدركت الأشياء بالوَيَم. لكني، وعلى الرغم من ذلك، وصلت، مع تقدم العمر ومعايشة الحياة، إلى بعض الاستنتاجات، منها أن الماضوية كارثتنا الحقيقية وأكبر عائق بيننا وبين الغد. كل أبواب عقلنا مغلقة ما عدا ذاك الباب المؤدي إلى الماضي. كيف لشعب أن يصنع مستقبله وهو يتطلع إلى «الماضي المجيد»؟ ومنها أن الأيديولوجيا داء يستوجب العلاج. فالأيديولوجيا تعني فيما تعنيه التعصب، الذي كنت دائمًا أحذر ولدي وابنتي منه. كنت أقول لهما: «إياكما والتعصب لفكرة مهما كان نبلها».

شهدت في حياتي نقلات. فقد عشت أيام المرحاض البلدي والصرف في الطرنشات وتسخين الماء للاستحمام بالكوز. ثم دخل بيتنا التواليت الإفرنجي والدُّش منتصف الستينيات. ورأيت العفاريت وهي تختفي من حياتنا بعد أن دخلت الكهرباء منازلنا وحوارينا في الستينيات، لتعود مع الوهابية، لكن هذه المرة مع جيش من الشيوخ والعلماء «الروحانيين» المتخصصين في صرفها. لكننا بزوال لمبة الجاز حُرمنا من أشهى طبق فول مدمس، ذلك الذي كنا ننضجه على حرارة هذه اللمبة. وشاهدت آخِر مهرجان لوفاء النيل وموكب الحرفيين، وصناع كل حرفة يستعرضون مهاراتهم، فيقف النجار أو الحداد أو غيره من أرباب الحِرف وأمامه أدواته، يمارس عمله فوق عربات النقل على كورنيش شبرا، تتقدمها عربة عليها تمثال من الجبس لامرأة مضطجعة ولها

ذيل سمكة يشبه كثيرًا الوشم الذي كان موجودًا على ذراع جدي محروس. وعشت أيام الراديو والإذاعة، وكنا نسدد رسومًا سنوية على جهاز الراديو، وكنت أقف في طابور طويل لتسديدها. وعندما ظهر التلفزيون، عام ١٩٦٠، فُرضت عليه هذه الرسوم، ثم ألغيت على الجهازين بعد رفع أسعار الكهرباء. لبست القبقاب الخشب، ثم انتقلت إلى الشبشب. وفي غفلة من الزمن، اختفت الباتستا والبفتة والدمور ورمش العين والكستور (أنواع أقمشة الملابس. وكان البائع يأتي إلى البيوت ويبيع بضاعته بالتقسيط). واختفت كوبونات الجاز التي كانت تشكل دعمًا للجاز قيمته ٥٠٪، وكذلك استمارة القماش التي كانت الحكومة تصرفها لموظفيها بمناسبة دخول المدارس، تشتري بها ما تشاء، في حدود ثلاثين جنيهًا تقريبًا، من صيدناوي أو شملا أو شيكوريل أو غيرها من متاجر القطاع العام، وتقسط قيمتها على أقساط مريحة ودون فوائد. سمعت الجرامافون والريكوردر البَكَر، ورأيته وهو يتحول إلى كاسيت ثم إلى «سي دي». وأخيرًا أصبح الموبايل مركز الحياة، فهو كابينة اتصالات ومكتبة للكتب والموسيقى ومخزن لأسرارك ووسيلتك للتفاعل الإنساني، وعلى الرغم من كل هذا زادت عزلة الإنسان، وفقد خصوصيته، على عكس المرجو من أشكال التواصل الاجتماعي المزعومة. افتقدنا التواصل الإنساني الحميم والتفاعل وجهًا لوجه. صرنا جُزرًا تتلاقى افتراضيًّا مثل الروبوتات.

وشاهدت صور إرسال أول كائن حي (الكلبة لايكا) إلى الفضاء، وكذلك أول إنسان (رائد الفضاء الروسي جاجارين)، واختفاء الملاية اللف في غفلة من الزمن ومعها تمثالَا عزيزة بملاءتها وشكوكو بزيه وطرطوره المميز، المصنوعان من الجبس، والأراجوز وصندوق الدنيا والحاوي، واختفاء مصور الميه من أمام مجمع التحرير، وكمساريات خط «شبرا-تحرير» أيام شركة أبو رجيلة. وفي زحمة الحياة، اختفى الوش السِّمِح، متى؟ لا أدري. لكني أتوق إليه، ما يعني أن اختفاءه كان منذ زمن. زمن كانت الناس تُعمل عقلها وتستفتي قلبها، وتعيش حالة من الانسجام الروحي، اختفى وحل محله وجه جهم يدَّعي الوقار والتدين. وبدلًا من إسلام واحد أصبح هناك إسلامات لها مرجعياتها الحية. فالحويني له إسلامه، ولمحمد حسان إسلامه، وللأزهر إسلامه، ولداعش إسلامه، وغيرهم. وكل منهم يدَّعي أنه يمثل الإسلام

الحقيقي، ولكل منهم أتباعه ومريدوه. وبعد أن كانت الدعوة تعتبر جهادًا، أجره عند الله، أصبحت الدعوة بيزنس ضخمًا، تتولاه طبقة من الدعاة الأثرياء، تعيش في أفخر القصور وتركب أغلى السيارات، وتدعو الفقراء إلى الزهد! وتدهورت العلاقة بالآخر، وصار الإسلام في العالم يعني الإرهاب والقتل. واختفى أيضًا الصرماتي والمنديل القماش الحريري، وحل محله المنديل الورق، كما اختفى مكوجي الرِّجل، ونداءات: «أصلح بوابير الجاز» و«أسن السكينة وأسن المقص».

مصور الميه

نما وعيي على حرب فيتنام، وشهدت مآسيها وتعاطفت مع شعبها، وكذلك سلسلة لم تنتهِ حتى الآن من الحروب. شاهدت، وعلى الهواء مباشرة، سقوط الاتحاد السوفيتي وحائط برلين. وعلى الهواء أيضًا شاهدت إسقاط تمثال صدام حسين وإعدامه، واختراق الطائرات لبرجَي التجارة في الحادي

عشر من سبتمبر. وصلتني، وجيلي، أصداء ثورة ١٩٦٨ في فرنسا وتداعياتها، وظهور البيتلز والهيبيز وزوربا اليوناني. عايشت حلم عبد الناصر وتعايشت معه، وشهدت انكساره ونكوصه، ومعه أحلام مثل القومية العربية، وبناء مجتمع الاشتراكية والعدل، وانتحبت وسرت في وداعه مع الملايين. وشاهدت على الهواء اغتيال السادات وسط جنوده، على يد من استعان بهم ضد معارضيه. عاصرت لحظتين في تاريخ مصر الحديث، أُحكم فيهما إغلاق المجال العام وتبعهما الانفجار. الأولى، عندما ألقى السادات القبض على كل أطياف القوى السياسية، بما في ذلك بطريرك الأقباط، وتمثل الانفجار فيها في اغتياله. والثانية كانت انتخابات ٢٠١٠، التي استبعدت كل القوى ما عدا الحزب الوطني، وتمثل الانفجار في اندلاع ثورة ٢٥ يناير.

* * *

لم أدرِ متى فقدت هدوء السر وطمأنينة النفس. متى فقدت القدرة على الاستمتاع؛ فأنا، ومنذ زمن طويل، لم أعد أستمتع بشيء، ولا أرى وجهي حين أنظر في المرآة. صرت أعيش داخلي، منفيًّا. ابتعدت وصرت «عديم الممارسة، عدو الزحام». في حياتي عرفت أشخاصًا كثيرين ولم أعرفهم، وعاينت الكثير من الأيديولوجيات والقليل من الأفكار. أدركت بالعقل أن للحقيقة أكثر من وجه، لكني ظللت، وما زلت، أبحث عن يقين، مع إدراكي أنه ليس هناك ما يُسمى «يقين». وهي في اعتقادي حالة مرَضية. وبمرور الزمن وتراكم الخبرات، اكتشفت أنني لست جبانًا كما اعتقدت طويلًا، وإنما افتقادي اليقين يفل من عزيمتي، ويجعلني غير متأكد من شيء ويدفعني إلى الفرار عند المواجهة.

لكن لماذا أخط هذه السطور؟ أنا حتى الآن لم أفكر في نشرها. أراها محاولة شخصية للفهم والعلاج من ذلك المرض النفسي والاضطراب العقلي الذي يلازمني منذ زمن بعيد. لربما لو أعدت الشريط أمام عينَي لاكتشفت أشياء لم أدركها على الوجه الصحيح. يمكنك أن تعتبرها محاولة بحث من أجل الوصول إلى السكينة والسلام الداخلي.

وهي محاولة لنقل صورة حقيقية قدر الإمكان عن الماضي الذي عشته؛ صورة تطمح لأن تكون قادرة على بعث الحياة في ذلك الزمن وتجسيده قدر الإمكان. لكن أكثر ما يحبطني هو أن تلك الذاكرة التي اعتمدت عليها، وعاء لا

يحتفظ بكل الأشياء التي عاينها، كما أنها تعمل بطريقة انتقائية ولها أولوياتها الخاصة بها والمنفصلة عنك. آه لو أمكنني الاطلاع على ما أخفته عني هذه الذاكرة!

**١٩٥٤**

تسير في صحن الدار، تتعثر في مشيتها، تعوقها الظلمة عن تمييز موطأ قدمها. اجتمع عليها ضعف البصر وعيوب خلقية في أصابع القدم، وأخيرًا كُندُرة (خُف أقرب إلى الحذاء الكاوتشوك وبدون رباط) لا تناسب قدمها. تبدأ ستي حميدة موشحها الصباحي المعتاد قبل أن يحل الفجر. تسب وتلعن الدنيا والبشر، وبالذات أولادها وزوجها الذين خاب أملها فيهم. تلعنهم بالصوت العالي، الواحد بعد الآخر. تبدأ بطه، أصغر أولادها، والوحيد من أبنائها الذي يعمل بالزراعة ويسكن معها في الدار مع زوجته وأولاده (الآخرون يعيشون في القاهرة ويجيئون «البلد» زائرين). فهو لا هم له إلا إرضاء زوجته محفوظة، التي لا هم لها سوى الكحل والقمطة، تحكم ربطها فوق رأسها، وتجر طه وراءها لزيارة أخيها الذي عاد مؤخرًا من إعارة بإحدى الدول الأفريقية بأموال تثير الحسد؛ أو زيارة أختها، تاركين المرأة العجوز لوحدتها والظلام. يوم صباحيتها، حرصت محفوظة على أن تصحو مبكرًا، وأحضرت إبريق الماء وصبته بنفسها لجدي وجدتي كي يتوضآ. وليتها ما فعلت، فقد كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة، وبعدها لم ترَ منها جدتي سوى كل اعوجاج، وكل مخالفة. وطه خرب البيت من أجل إرضائها، فهو يسرق كيزان الذرة والبيض كي يستبدل بها اللبان الدكر الذي تحبه. كان يرسلني إلى دكان في أطراف البلد كي أعود بالمطلوب.

كثيرًا ما كانت المعارك الكلامية تنشب بين جدتي ومحفوظة. وكانت محفوظة تتبع دائمًا تكتيكًا واحدًا مضمونًا؛ تغضب، تترك الدار إلى منزل أخيها، ترتاح فيه بضعة أيام قبل أن يتمكن عمي طه من تهدئة الأوضاع والحصول على الموافقة بالعودة (أدركت فيما بعد لماذا كان هذا يحدث بالذات بعد ضم الغلة أو جمع القطن. فالأرض تكون في راحة والعمل قليل والناس فاضية نسبيًّا). وكان لعمي طه أيضًا حِيَله المبتكرة لحل المشكلة. في إحدى المرات، بعد أن انتهى من درس القمح في مؤخرة القَطعة الموجودة خلف الدار، ألقى بنفسه من فوق النورج، مدعيًا الإغماء. فجريت لأبلغ جدي وجدتي. هرعا إلى حيث كان عمي طه ممددًا على الأرض. وأسرعت أنا، بناء على طلب جدتي، لاستدعاء عمتي سيدة وزوجها العربي أبو مندور. تحلقنا كلنا حوله، كالجالسين

على رأس ميت، وبعد فترة نسي الجميع وجوده تمامًا واستغرقوا في أحاديث شتى. وعندما أدرك أن خطته باءت بالفشل عاد إلى الحياة تدريجيًّا، وبدأ يشارك في الأحاديث، بعناء مصطنع في البداية، ثم انتهز أول فرصة لفتح الموضوع. بدأ حديثه بأن محفوظة غلبانة، وأن قلبها أبيض من البفتة، وأن الكلمة الطيبة تأسرها. وعندما لم يجد لكلامه صدى، أعلن أن محفوظة «مستعدة تيجي لغاية ستي وتحب على راسها». وتحت إلحاح الباقين لانت جدتي، وبدأت خطة تراجعها بوضع شروط، هي أول من يعلم عدم جدواها، وقبِل عمي طه بها بالطبع. وعادت محفوظة لتبدأ، بعد هدنة قصيرة، جولة جديدة من المناكفة.

... وتواصل ستي حميدة سرد مفاسد أبنائها. فابنتها صباح تتسلل إلى الدار من باب القَطعة الخلفي (على الرغم من أن جدي لم يكن ميسور الحال، فقد كانت لداره قطعة أرض كبيرة أقرب إلى الحديقة، عامرة بأنواع الخضراوات؛ من باذنجان وطماطم وكوسة وخبيزة وشبت وبقدونس، إلى جانب شجرة مشمش وشجرة جوافة وشجرتَي رمان)، تسرق البيض والدجاج أو ما تطاله يدها. وسميرة جاحدة، قاسية، لا تزورها ولا تسأل عنها، على الرغم من أن دارها قريبة منها. عمتي سيدة هي الوحيدة المعفاة من موشح الصباح، فهي، من دون بقية بناتها، العاقلة المتزنة، وربما كان السبب الأهم أنها الوحيدة المستورة وتعيش حياة مستقرة؛ فزوجها العربي أبو مندور رجل طيب لا تراه كثيرًا، وإن رأيته لا تسمع صوته إلا إذا دعوته للحديث. يعمل سائقًا بشركة الأتوبيس التابعة للحكومة وله مرتب ثابت، إلى جانب قطعة أرض، يرعاها أولاده، وينضم إليهم إذا أتيح له الوقت. كان يستيقظ قبل الفجر، يركب دراجته ليبدأ رحلته اليومية باتجاه المركز، حيث جراج سيارات الشركة، ليبدأ ورديته. وكان يعود إلى بيته بعد المغرب. لم أسمع أن رحلته هذه انقطعت يومًا، سواء في قيظ الصيف أو برد ومطر الشتاء الذي يحيل الطرق الزراعية إلى روبة. وعلاقة العربي أبو مندور ببهائمه تستلفت الانتباه، فلم أرَ فلاحًا يغسل بهائمه بتلك العناية غيره. وكان يحادثها ويتغزل في عيونها وقرونها وأخلاقها. كان يحادثها ويترجم لنا انفعالاتها. هل فقد عم العربي الأمل في البشر فلم يجد أمامه سوى البهائم؟ ربما، لكنه ظل يحترم عمتي سيدة ويقدرها، بل ويردد، بعد وفاتها، بعض ما كانت تتفوه به باعتباره أقوالًا مأثورة.

وربما لكل هذه الأسباب وغيرها، كانت عمتي سيدة موضع سر جدتي وسندها عند احتدام الأمور مع غيرها من الأبناء أو البنات.

أما عمتي صباح، فقد كان حظها من الدنيا قليلًا. تزوجت من السيد أبو رشوان؛ رجل طيب القلب، سمح الوجه، جميل الملامح، يعمل في الزراعية، مرتين كل يوم، إحداهما صباحًا والأخرى عصرًا، يقوم مع زملائه بتنسيق تراب الزراعية بفرشاة معدنية تشبه المذراة، ثم يرشونه بالماء ليستقر الغبار ولا يثور عند مرور سيارة الشركة، السيارة الوحيدة تقريبًا التي تمر بالقرية. أنجبت منه عمتي ولدًا وبنتين، لكن الموت استكثره عليها، فمرض ومات مبكرًا، لتتصدى صباح للحياة وحدها وفي رقبتها ثلاثة أطفال؛ وضعت أكبرهم في الملجأ، وتزوجت بعد ذلك مرتين أنجبت خلالهما أطفالًا جددًا لم أرهم. لكني لم أرها يومًا هادئة السر. زادت الحياة من طبعها الشعنون وطبيعتها الرجالية العنيفة، على الرغم مما تتمتع به من جمال وعينين عسليتين ورثتهما، وأيضًا عمي طه، عن جدي. يقال إنها تعلقت في شبابها الباكر بحب سائق من سائقي الشركة، كانت تنتظر مروره على الزراعية كل يوم، يلوحان لبعضهما من بعيد أو يتبادلان النظرات. تقدم لخطبتها، لكن جدي رفضه لما علم أنه متزوج، ولأنها لم تفز به أو ترَ مساوئه، كانت تعتبره، على ما يبدو، في دخيلة نفسها الرجل المثال، فلم يملأ عينيها رجل ممن تزوجت بهم. يمكنك أن تلحظ هذا في أحاديثها عن زوجيها اللذين عاشت معهما بعد وفاة عم السيد أبو رشوان. فهي لا تعدهما رجلين، وتتهمهما بكل كبيرة، وبالذات الشيخ أبو لبدة، زوجها الأخير مؤذن الجامع. فهي تسبه بأقذع السباب، في غيابه وحضوره، وتتندر دائمًا على كرشه المنتفخة، ونهمه الشديد للطعام.

أما سميرة فهي بِكر جدتي. أنجبت جدتي، فيما يقال، واحدًا وعشرين بطنًا، لم يترك منهم الموت سوى سبع، فسميرة إذن الأكبر بين الأحياء. كانت هي أيضًا قليلة الحظ، وتزوجت مرتين. تزوجت في المرة الأولى من أحد مساتير البلد، وبعد أن أنجبت منه ثلاثة أولاد وبنتًا طلقها، تاركًا لها الأولاد تربيهم وترعاهم. لم تكن فلاحة، ولم تعمل بالغيط قَطُّ، وكان بيت زوجها عامرًا، تجد فيه من يساعدها في إنجاز أعمال البيت. كانت سميرة معززة مكرمة في بيتها. لكن بعد الطلاق لم تجد ما تستعين به على نفقات الحياة إلا الخياطة التي كانت تجيدها، فاحترفتها وأصبحت خياطة معروفة في البلد والعِزب

المجاورة. تسكن بالأجرة، وهي حالة شاذة في ذلك الحين، فلم يكن أحد يبني بيوتًا لسكنى الأغراب من خارج الأسرة، ناهيك عن الأغراب عن البلد. سكنت في بيت أرملة وحيدة، ذات سحنة تحمل بقايا جمال غجري، ربما كانت إحدى الغجريات اللاتي كن ينزلن البلد بعد الحصاد بالدفوف، يغنين ويرقصن، ثم يجمعن ما يجود به أهل البلد من خبز أو ذرة. لكن بقايا الجمال تلك كانت تختفي تحت قناع من الغضب والانكسار في وقت واحد عندما تتشاجر، ولأتفه الأسباب، مع أحد. عندها، كانت شفيقة تبدو مثل شيطان أبله، بشعرها المحنَّى المنكوش وعينيها المشتعلتين. وكانت سميرة قادرة على قمعها دائمًا وتركها تأكل نفسها، وتبرطم بكلام غير مفهوم. فقد كانت عمتي بعشرة رجال، ولا أدري إن كان هذا طبعًا اكتسبته من ظروفها بعد الطلاق، حين صارت أم أبنائها وأباهم معًا، أم أنه طبع أصيل كان سببًا لطلاقها.

تزوجت عمتي سميرة بعد ذلك من رجل آخر لا صلة له بالأرض أو الفلاحين. كان يعمل سائق نقل بشركة مقاولات، يخرج من البيت مع الفجر ولا يعود إلا قبل المغرب بقليل. وكان أكولًا، نهمًا، ينفق جزءًا كبيرًا من راتبه على الأكل والحشيش وتحويجة جوز الطيب. ذات مرة، أحضر معه شروة قراميط، ولم ينتظر حتى تقوم عمتي بتنظيفها وطهيها، فأمسك بواحد كبير منها ودسه من دون تنظيف في ماء يغلي وجلس يأكله على الرغم مما أبدته عمتي من تقزز واستياء من تصرفه. حتى ابنه الوحيد من عمتي شخر له عندما أعلن عن نيته الإضراب عن الطعام عندما وقع الخلاف بينه وبين الشركة التي كان يعمل بها. كان بينه وبين الطعام عشق لا يخفيه، ولا يخفيه بطنه المتكور أمامه كامرأة في شهرها التاسع، ويضاعف من حجمه قامته القريبة من الأرض.

لم تكن علاقتي بأولاد عمتي سيدة وثيقة، على الرغم من محبتي لها ولعم العربي أبو مندور. فصابر الذي يناهزني في العمر كان يعرِّض من حين لآخر بسمعة أمي، ويعيِّرني بها ويدعي أنها تجلس على المقاهي وتضع رِجلًا فوق رجل مثل الرجال (تقريبًا كان هذا هو التصور الشائع بين الفلاحين عن النساء في البندر). وأحيانًا كان ينعتها بـ«الغازية»، لمجرد أنها ترتدي أزياء بندرية، إلى جانب أنه كان طفلًا متجهمًا، نادرًا ما يضحك، ويحاول دائمًا أن يبدو أكبر من سنه، وظل هكذا طوال عمره. كلما رأيته بعد ذلك أحسست أنه أكبر مني بعشر سنوات على الأقل. وكان مصطفى ومحروس أصغر منا. أما أبناء صباح،

ففيهم بنتان، والولد كنت أراه في مناسبات عابرة عندما يأتي في إجازة من الملجأ، أو عندما يهرب وقبل أن تنجح عمتي في إعادته مرة أخرى.

بيت عمتي سميرة كان متنفسي الذي أسعى إليه كلما أتيحت لي الفرصة. كان أولادها من زوجها الأول أكبر مني، بينما ابنها من زوجها الثاني في مثل سني تقريبًا. كنت أحبهم على الرغم من هزارهم الثقيل معي، الذي وصل ذات يوم إلى حد نتف حاجبَي بلعبة الخيط والأزرار، بعد أن أخَفْتُ أخاهما الصغير بالقنافذ التي وجدتها خلف دار سيدي. ثلاثة قنافذ صغيرة كانت تتجول بلا هدف. نقلتها على الرغم من أشواكها إلى خُن دجاج مهمل، وقدمت لها الخبز والماء، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة، واحتفظت جدتي بما تبقى منها لتجفيفه باعتباره بخورًا جيدًا لطرد الأرواح الشريرة. كما كان بيت عمتي سميرة لا يخلو من صبيتين أو ثلاث يتعلمن الخياطة على يديها، فألقى منهن الاهتمام باعتباري ابن أخيها الأثير إلى قلبها. ففي دار سيدي عبد الحكم كان الجميع يعاملونني بنوع من الحياد، أو اللامبالاة. أما سميرة فكنت أشعر بتعاطفها معي، ربما باعتباري مظلومًا مثلها. لم تقل هذا، لكني كنت ألمحه في نظراتها (كانوا جميعهم تقريبًا ينظرون إليَّ باعتباري ابن البندر الذي بهدلته الأيام، وكانوا يشفقون على حالي، على الرغم من أنني كنت سعيدًا بتلك الحياة). وكانت عمتي من النوع الحريص؛ تأكل البرتقال بقشره، وتعيد غلي تفل الشاي لتقديمه للزبائن غير المهمين. كانت تمشي مشوارًا طويلًا إلى عزبة الصنافيري في سبيل الفوز بشروة برتقال سقْط، يظل بالبيت حتى يعطب فتستخلص البقايا السليمة، بعد أن رفض أولادها الاقتراب منه. كانت الأقرب إلى قلبي. ولا أنسى لها تعاطفها معي يوم أن سرقت بيضتين من دار سيدي، فقامت وسلقتهما وقدمتهما لي من دون أي نظرة تنمُّ عن التأنيب أو اللوم. ربما كانت تعتقد ساعتها أنه حقي أو ربما اعتبرته جزءًا من حقها الذي لا تحصل عليه ويسرقه غيرها (أعتقد أن جدتي كانت مبالغة في شكواها من سرقة أولادها وأنها هي التي رسخت بشكاواها أسطورة «البيت السايب»، لأن ما كانت تدعي سرقته أحيانًا أشياء هينة لا تستدعي كل هذه الشكاوى).

ذهبت ذات مرة إلى بيتها فلم أجدها، وعندما سألت عنها قالوا إنها ذهبت لتسليم ملابس لإحدى زبائنها في الخربة، وهي من المرات النادرة التي انتقلت فيها عمتي لبيت واحدة من زبائنها، وغالبًا ما كان للزيارة أغراض

إضافية. كانت الخربة منطقة متطرفة قليلة البيوت، يفصلها عن بيوت البلد مَلَقة (غيطان خلاء ممتدة). كان لجدي علي، أخو سيدي عبد الحكم، دار في الخربة، يخزن فيها المحاصيل والتبن، ويربي فيها النحل. وفي هذه الدار كان أول لقاء لي مع اختراع ماركوني الذي يقال له «الراديو». كان الجهاز عبارة عن سماعتَي أذن كبيرتين متصلتين بسلك خارج قاعة تُستخدم لتخزين التبن فوق سطح الدار، تضعهما على أذنيك فتسمع أصواتًا تشك في بشريتها ولا تميز منها شيئًا، لكنك لا بد أن تنهج نهج الآخرين وتؤكد على أنك سمعت الإذاعة، وتشيد بعبقرية هاشم ابن سيدي علي الذي كان فنيًّا بسلاح الطيران، والذي أدخل هذا الاختراع الفذ إلى قريتنا المتواضعة. لم أكن سمعت بعدُ راديو سيدي علي، ولم يكن لديَّ أدنى فكرة عن كيف يكون صوت الإذاعة.

سرت قاصدًا الخربة، مستهينًا بالظلام. طفل أنا لم أزل، لم تقرصني الدنيا بعد. لم أشعر بالخوف، لكنني عندما تجاوزت آخر البيوت وانقطعت الأصوات تمامًا ودخلت إلى الملقة، بدأت سيرة العفاريت تتسرب إلى خيالي. أخذت أستدعي، من دون إرادة مني، كل قصص العفاريت التي سمعتها من الكبار والصغار على حد سواء. لكن قصة بعينها تسلطت عليَّ تمامًا، وأخذت تفاصيلها تتراكم واحدة بعد أخرى داخلي وتستقر لتفعل فعلها. كان العفريت في القصة، التي يقسِم كثيرون على حدوثها لأكثر من شخص، يتخذ هيئة الحمار ثم يبدأ ظهره يعلو بالتدريج حتى يطال السماء، ولا يعود إلى حجمه الطبيعي ولا ينصرف إلا إذا نخسته بمخراز (المخراز أو الميبر: إبرة غليظة كانت تستخدم في خياطة الجلود وأجولة الغلة والقطن). فجأة رأيت الحمار أمامي بشحمه ولحمه. وشيئًا فشيئًا، أخذ يرتفع ظهره. بعدها لم أشعر بشيء. أفقت لأجد حولي رجالًا ونساء لا أعرفهم، وقد أمسك أحدهم بفحل بصل، وكلٌّ يحاول التعرف على هذا الطفل البائس الذي غامر بالخروج إلى الملقة في هذه الساعة. وفي تلك اللحظة، مرت عمتي سميرة بالمصادفة وهي في طريق عودتها، لتكتشف وجودي وتهدئ من روعي.

سأشعر بالخيانة بقية حياتي إن لم أحدثكم عن سارة! سارة، ابنة عمتي سميرة، كنت ألقى منها كل مودة وحنو. كانت أكبر مني بكثير، وكنت أرى في عينيها دائمًا نظرات التعاطف والإشفاق. كانت تشعرني دائمًا بأنني أستحق مصيرًا أفضل من المصير الذي صرت إليه. كنت أشعر وكأنها أم صغيرة لي.

لذلك عندما أعلن نبأ خطبتها لهاشم، ابن سيدي علي، شعرت بالفقد. ولا أنسى حين عادت بعد قراءة الفاتحة ودخلت إلى القَطعة لتفرغ ما في جوفها من شَرْبات. نظرت إليَّ؛ فسَّرت نظرتها على أنها محاولة لطمأنتي ووعد بفض هذه الخطبة. لم يكن بيننا كلام قَطُّ، وإنما تيار خفي من التواصل، ينقل مشاعر أشد وضوحًا ونقاءً من الكلمات. عندما فشلت ذات يوم في حياكة جلبابي الوحيد الذي تمزق، لم أجد من يقيلني من عثرتي سواها. لم يكن هناك من يرعى أموري في دار سيدي؛ فأنا صحيح ابن للكل، لكني أيضًا لست ابن أحد بعينه. لضمت الخيط كما رأيت محفوظة تفعل ذات مرة، لكني لم ألحظ خطوة مهمة، هي عقد الخيط بعد لضمه. وهكذا ظللت كلما مررت الخيط في الجلباب خرج من الناحية الأخرى، من دون أن أجد من ينبهني أو يرشدني. وهكذا ظهرت سارة لتؤكد من جديد عنايتها بي والتي افتقدتها عند الجميع (بعد زواجها من هاشم ابن سيدي علي وانتقالها للعيش معه في مصر (القاهرة)، لم يُقدَّر لي بعد ذلك رؤيتها، وعلمت بخبر وفاتها بعد أن أنجبت عددًا من الأبناء، لن أعرفهم لو صادفتهم في الطريق!).

في بيت عمتي سميرة، كان الشيء الوحيد الذي يزعجني هو أم السعد. امرأة بينها وبين الجمال خصام معلن، تقوم بتنظيف المنزل وملء الزير والقلل بالماء. كانت امرأة طيبة وودودة، لكن هذا الود كان يستدعي القرب، ومع القرب تهاجمك رائحة نتن لا تطاق تنبعث منها. سألت عمتي ذات يوم عن سر تلك الرائحة، فقالت لي إن سيارة داست على مشخها. وظلت هذه الصورة التي نقلتها عمتي إلى ذهني مصدر إرباك لي فترة طويلة من حياتي. فلم أفهم كيف يعيش إنسان ويبذل المجهود الذي كانت تبذله أم السعد وجزء من جسده يتحلل. وخلصت في النهاية إلى ضرورة وجود سبب آخر لم تكن عمتي على علم به، أو أنها فضلت ألا تخبرني به لسبب أو لآخر.

* * *

عندما يجيء الدور على جدي، سيدي عبد الحكم، في موشح جدتي الصباحي، يكون أذان الفجر قد اقترب. الوحيد الذي يأخذ نصيبه وجهًا لوجه، فهو الرجل الدون، الدن، الدنف، عديم الحيلة. فعند هذا المقطع من الموشح اليومي، يكون جدي قد دخل مرحلة الاستيقاظ، ومثل كل يوم يكلم نفسه بصوت لا يكاد يسمعه غيري، أنا النائم جواره: «ياخي ياخي، ده ده ده، المَرَة

بأيَّها اتجننت، ولا تكونش اتجننت». ثم يبصق. بعدها مباشرة، يغادر الحصيرة متثاقلًا، ليتوضأ ثم يعود مرة أخرى ليصلي على الحصيرة بجواري، تصدر عنه أصوات غير مميزة، أشبه بهديل الحمام، وعندما أستكمل استيقاظي يكون قد وصل إلى رتم ثابت، أميز منه: «قلَّق، قلَّق، قلَّق». هكذا كانت تصلني، وبمرور الأيام اكتشفت أنه كان يردد الحوقلة!

أيامنا دائرة عجيبة، محكمة. بعد الانتهاء من طقوس صلاة الفجر، يفك عمي طه البهائم من الزريبة، ويقطع جزءًا منها، يحمِّله على الغبيط فوق الحمارة مسندًا إياه بالشِّعبتين (الشِّعبة هي فرع شجرة جاف وغليظ ينتهي بشكل دلتا ويُستخدم في تثبيت الغبيط، الذي كنا ننقل فيه السباخ أو البذور، أثناء تحميله على الدابة)، لتبدأ مسؤوليتي في السير وراء الحمارة إلى الغيط، يتبعني عمي وجَدي ساحبين البهائم. وعندما نصل إلى الغيط، أقوم بتفريغ نقلتي فوق كوم السباخ، ليتولى عمي إعادة ملء الغبيط بتراب الأرض الجاف (الردم)، لأحمله مرة أخرى إلى الزريبة، ليتحول بعد تبول وتبرز البهائم فوقه إلى سباخ، وهكذا. كان هذا هو عملي الروتيني اليومي، إلى جانب مهام أخرى، تختلف باختلاف المواسم. كنت أؤدي عملي في نقل السباخ والردم بحماس كبير لسبب بسيط، هو أن النقلة الأخيرة، قبل المغرب، ستكون برسيمًا، وهو ما يسمح لي بالعودة إلى الدار راكبًا الحمارة. وفي إحدى المرات، وبعد أن انتهيت من إفراغ آخر نقلة سباخ، والتي بعدها سأركب الحمارة، التفت حولي فلم أجدها. كان عمي وجَدي قد سبقاني، وبحثت عن الحمارة في كل مكان فلم أجدها، إلى درجة أنني فتشت المقابر التي على رأس غيطنا لكن من دون جدوى. وظللت أبكي طوال طريق عودتي خوفًا من المصير الذي ينتظرني بسبب ضياع الحمارة. لكنني عندما وصلت إلى الدار وقد أنهكني النحيب، وجدت جدي ينتظرني وعلى وجهه شبح ابتسامة (نادرًا ما رأيته يبتسم). قال وشبح الابتسامة لا يزال على وجهه: «عملِتها فيك!»، فقد سبقتني الملعونة إلى الدار، لتحرمني المتعة التي شقيت النهار بطوله في سبيلها. ويومها اكتشفت أن الحمار كائن ذكي جدًّا، فهو يتذكر الطريق جيدًا، ويختار بحنكة توقيت الهرب الذي يجنبه العقاب!

* * *

عندما ينتصف النهار، يكون الرجال قد أنجزوا أعمالهم في الغيط، من تقليب

الأرض وبذر البذور أو ريِّها، وغير ذلك. وعندها، تجد النساء قادمات في طابور، يحملن الغداء فوق رؤوسهن أو في أيديهن. تجلس النساء مع الرجال لتناول الغداء، الذي يتكون غالبًا من الجبن القريش أو القديم والعيش المرحرح، وأحيانًا البصل أو الفول الأخضر، أو ما تجود به الأرض من سريس أو جعضيض ينمو شيطانيًّا وسط البرسيم. وعمومًا لم يكن الغداء هو الوجبة الأساسية، بل العشاء. وبعد الغداء، تنصرف النساء عائدات إلى الدور لمواصلة بقية مهامهن، ويقيِّل الرجال. أما أنا فكنت أجتمع مع أقراني من أبناء الغيطان الأخرى، نبحث عن خير الأرض. فقد نحظى ببعض ثمرات من عنب الديب أو جزر الديب، أو السعد، وهي جذور صغيرة ذكية الرائحة ويصعب تمييز أوراقها عن أوراق النجيل، كانت تُستخدم في ترويق الماء في الزير وإعطائه مذاقًا طيبًا، خاصة في وقت الفيضان عندما تختلط المياه بالطمي الغني بالمواد المغذية للأرض. وفي مواسم الجفاف، كنا نساعد الكبار في محاصرة السمك بالشباك في المصرف الذي كادت مياهه تنضب. ومع حلول العصر، نستكمل القليل الهيِّن المتبقي من العمل، تمهيدًا لحش البرسيم لعشاء البهائم والعودة مع أذان المغرب. وفي الطريق، يتوقف موكب البشر والبهائم عند الطلمبة للسقاية. لم يكن هناك تزاحم أو طوابير انتظار أو فوضى، كما لو أن الجميع اتفقوا، من دون إعلان، على موعد لكل منهم.

في هذه الساعة يكون إيقاع البيوت غيره في بقية أوقات النهار. فالكوانين مشتعلة، وقودها الحطب والجِلَّة، والطعام فوقها على وشك النضج. والتوقيت محكم؛ لا يكون الطعام جاهزًا قبل الاطمئنان على ربط البهائم بالزريبة وتقديم البرسيم لها، ثم أداء صلاة المغرب. بعدها، نتحلق حول الطبلية، نأكل ما جادت به القَطعة أو السويقة من بامية أو خبيزة أو رِجلة أو فريك الذرة بالطماطم أو الكزبرية (فول مدشوش بصلصة الطماطم). وفي المواسم يكون محشي الباذنجان والفلفل أو الكرنب مع الزَّفَر. تأمر جدتي جدي بتقطيع البطة أو الدجاجة لتتولى هي التقسيم والتوزيع. تمسك بقطع اللحم تضغطها بين أصابعها ليكبر حجمها قبل أن تسلمها لمستحقها. وكانت الأنصبة تختلف بمدى رضاء جدتي عن كل منا، ولا أحد يمكنه الاعتراض على ما قررت، فهي الأدرى بأداء كل فرد في الدار. وأحيانًا يبلغ رضاؤها عني حدًّا يجعلها تخصني بالكبدة أو القناصة. وعندما أغسل يدَي، تقدم لي طرف جلبابها

لأجففهما. وبعد الانتهاء من تناول العشاء، يخرج جدي صندوق الدخان، يلف سيجارة يدخنها برضاء واستمتاع لم أرَ مثلهما بقية حياتي. يزفر الدخان كثيفًا من خلال شعيرات شاربه غير المنسق، الذي اكتسب لونًا مائلًا إلى الأصفر بمرور الوقت. وكان الرضا والاستمتاع يتضاعفان عندما تتوفر له سيجارة ماكينة، في المناسبات، عند بيع المحصول، أو عندما يأتي بعمل بطولي فتكافئه جدتي بسيجارتين ملكونيان، بنصف قرش.

حدث هذا يوم أن رصدت جدتي له مكافأة إن هو تمكن من قتل القط ذي الرأس الضخم، الذي تأكدت من مسؤوليته عن اختفاء أكثر من دجاجة. حاصرنا، جدي وأنا، القط ذا الرأس الضخم في المندرة. أمسك جدي بالشِّعبة وأنا بمقشة البلح. طلع القط إلى أعلى النافذة وكشر عن أنيابه. ضربه جدي بالشِّعبة، فقفز إلى الأرض ناحيتي، فتلقيته بالمقشة، وضيقنا عليه الحصار وأوسعناه ضربًا حتى استسلم وسال الدم من فمه وأنفه. وقف جدي على باب المندرة مثل بطل خارج لتوه من إحدى الأساطير، يجر القط الضخم من ذيله ثم ألقى به بشموخ عند قدمَي جدتي. لم يبدُ على جدتي أي أثر للفرحة أو الاشمئزاز، أو حتى العرفان بما حقق جدي. أخمدت إحساسه بالنصر الذي حققه على القط، وذكَّره بأمجاده يوم أن كان يعمل بخدمة البوليس. تصرفت معه كشخص أدى مهمة كُلف بها وليس له إلا الأجر. انتحت جانبًا وأخرجت من صدرها كيس النقود القماشي، الذي تربطه بخيط إلى عنقها. قربت الكيس إلى عينيها، وأخرجت تعريفة وأعطتني إياها، ومثل جنرال يقلد أحد جنوده وسامًا، قالت: «خد هات لسيدك سيجارتين ملكونيان».

* * *

صلاة العشاء هي الختام الحقيقي لليوم. بعدها، يتحرر أفراد الأسرة من أسْر الجماعة. طه يصحب زوجته ويدخلان القاعة أو يذهبان لزيارة أختها أو أخيها؛ وجدي يكسر قطعة من قمع السكر، يدسها في جيبه ويذهب إلى دار أخيه (سيدي علي)، فتكون قطعة السكر هي مساهمته في أدوار الشاي المغلي التي تُعد على المنقد. يسير سيدي عبد الحكم بظهر محني قليلًا، ويداه خلف ظهره، يجرجر البلغة كما لو كان سجينًا يجر قيده، ونظره محدق باستقامة في الفراغ، يخاله من يراه فيلسوفًا استعصى عليه سؤال وجودي. أما سيدي علي فقد عُرف بالبخل الشديد حتى أطلق عليه اسم «ناروز»، تشبيهًا له

باليهود. عندما عضه الجمل تاركًا جرحًا عميقًا في كف يده، رفض الذهاب إلى الحكيم على الرغم من إلحاح الجميع، واكتفى بوضع قشرة بصل على الجرح، وشُفي. وكان يمقت النساء وعلى رأسهن زوجته، ويحرم اللحم على زوجات أبنائه المقيمات بالدار في المواسم، ويردد دائمًا أن «الجاموسة أبرك منهم». كانت داره ملتقى يوميًّا للرجال الكبار، من العائلة ومن خارجها. وهذا عائد غالبًا إلى مكانته النابعة من مساحة الأرض التي استطاع زيادتها مع الأيام، بفضل قبضته المحكمة على أولاده الرجال. كان واحدًا من قلة في البلد تمتلك حصانًا وجملًا ووابور حرت. لكن ربما كان السبب الأهم هو الراديو الذي يزين المندرة.

كانت أجهزة الراديو، وفي الريف بالذات، نادرة جدًّا. وكان سيدي علي يضع الراديو فوق رف عالٍ، بحيث يضطر إلى استخدام الكرسي عند الحاجة إلى ضبطه. يلتف الجمع حول الراديو ليستمعوا إلى السيد رجب حواس وهو ينشد السيرة الهلالية. فقد حرصت الإذاعة أيامها، على ما يبدو، على أن تكون النقلة من شاعر الربابة إلى المذياع سلسة. كانت تشدني دائمًا الجملة التي يكررها السيد رجب حواس كل يوم في بداية الحلقة، وأنا جالس بين أقدام الكبار، ولا أمل سماعها: «قال الراوي يا سادة يا كرام، ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام»، ويردد الجمع وراءه بصوت عالٍ، كما لو كان حاضرًا أمامهم: «عليه الصلاة والسلام».

... وكان لنا أيضًا، نحن الأطفال، حظنا من بهجة ما بعد العشاء. كان الشبان يتجمعون في دكان جودة، المكان الوحيد المضاء في تلك الساعة بطول الزراعية وعرضها. بعضهم يجلس على الدكة الوحيدة بالدكان، والباقون يجلسون على الأرض أو يقفون. لا تستطيع أن تطلق على المكان «مقهى»، فبلدنا لم تعرف المقاهي إلا بعد السبعينيات. كان بعضهم يمص القصب والبعض الآخر يأكل الفول السوداني، وفي أثناء هذا وذاك يتواصل السمر البريء. وفي بعض الليالي، كان هؤلاء الشبان ينهمكون في مسابقات من نوع مثير، انتهت في إحدى المرات بنقل المتسابق إلى مستشفى المركز. كانوا يتراهنون على أكل أكبر كمية من الحلاوة الطحينية أو شرب أكبر عدد من زجاجات الكازوزة. وفي إحدى هذه المرات كان الرهان على تناول أكبر كمية من الذرة النيئة، وبعد أن سجل كعبيل الرقم القياسي بالتهامه ٤٨ كوزًا،

أمسك ببطنه وظل يتلوى من الألم، ولم تفلح محاولات إسعافه، واضطروا إلى نقله للمستشفى المركزي ببنها، حيث أجرى له الأطباء غسيلًا للمعدة.

الضوء الضعيف المنبعث من كلوب دكان جودة هو ساحة لعبنا. كنا نتجمع لنمارس لعبة لا أظن أنها كانت معروفة آنذاك في أي مكان آخر. نحضر قطعة من الطين الطري ونشكلها على هيئة سلطانية الزبادي، ونضغط على مركزها قليلًا ونبصق فيه، وعندما نقذف بها بقوة على الأرض، تنفجر بسبب تفريغ الهواء، محدثة فرقعة مدوية، فنهلل سعداء بما فعلنا، أو متباهين على من فشل منا. فإذا شعرنا بالملل، انتقلنا إلى الحرب. يمتطي كل واحد منا عودًا من الحطب ويمسك بسيف من الحطب أيضًا، وننهمك في المبارزة من فوق أحصنتنا. ونظل على هذه الحال حتى ينطفئ الكلوب إيذانًا بانتهاء السهرة.

أقرب صورة لدار سيدي وأمامها الجرفة، الفرق الوحيد أن دار سيدي كانت من طابق واحد

أقطع المسافة القصيرة بين الدكان والدار جريًا، فالزراعية تصبح كُحلًا بعد انطفاء كلوب دكان جودة، ومع هذا الكحل تنهض العفاريت لتحتل الأخيلة بقصصها، وهي كثيرة، الكل يرددها والكل تقريبًا يصدقها. وكان الحظ يسعدني أحيانًا بجماعة عائدة من زيارة وبينهم امرأة تحمل لمبة ساروخ فوق رأسها،

لتنير لهم الطريق، فأنضم إليهم.

أدخل من باب القَطعة الخلفي، أجذب سقاطة الباب الخشبية، أتسلل عبر الباحة المكشوفة. إلى اليمين حجرة خزين البهائم، تليها على نفس الصف القاعة التي ينام فيها عم طه ومحفوظة، ثم انحناءة بسيطة تنتهي بالكنيف، وفي المواجهة الزريبة وإلى يمينها غرفة الكرار. أدلف يسارًا، بعد أن أتجاوز السلم الطيني المكشوف المؤدي إلى السطح وصوامع الغلة، إلى باب يؤدي إلى باحة مسقوفة صغيرة تنتهي بالباب العمومي المطل على الزراعية. أتسلل إلى قاعة الفرن المفروش بالحصير، أندس بين جدي الذي تعالى شخيره وجدتي التي سهدتها هموم الدنيا. تتقلب جدتي بين حين وآخر، تدس يدها أسفل ملابسها تحاصر برغوثًا وتقتله، وتظل على هذه الحال حتى يحين موعد الموشح الصباحي اليومي.

حياتنا دائرة محكمة، مضبوطة كالساعة. فكل يعرف دوره، حتى البهائم حفظت أدوارها وصارت تؤديها تلقائيًّا عند أدنى إشارة. نقلب الأرض ونرمي البذرة، ثم نسقيها، ليتولاها بعد ذلك «فالق الحب والنوى»، فتنبت ثمرًا. وما بين البذرة والثمرة تحولات، أراقبها وأتابعها وأفرح بها. نوار الفول فرحة، أوائل تكزين الذرة فرحة، وبشائر ندف القطن فرحة. تحصد زرعك، ومن ثمنه تسدد ديون أيام الزرع والانتظار. فلم تكن بلدنا تتداول العملة، كان كل شيء «على المحصول»؛ اللحم والجاز والكساء، وهي الأشياء التي لا توفرها الأرض. حتى الحلاقة كانت على المحصول. كان محمد أبو شهبة هو حلاق البلد وطبيبها، يدور من أقصاها إلى أقصاها على دراجته، يحلق رأس هذا ويعالج ذاك، أو يخلع ضرسًا. كان عنده أنبوب بنج زجاجي كبير، تراه دائمًا في حقيبته الجلدية المنتفخة، يستخدمه في خلع الضروس المستعصية. لم تعرف قريتنا الطبيب والصيدلية إلا في وقت متأخر من السبعينيات، بعدها كثر المرض. كان إذا مرض أحد، يحضرون له محمد أبو شهبة ليأخذ له الشمس أو يداويه بالأعشاب المغلية، فإذا ما حان أجله مات في هدوء من دون رعب التشخيص أو التحاليل والفحوص، والتي تنتهي أيضًا بالموت إضافة إلى خراب البيوت. عندما مرضت ذات مرة وارتفعت حرارتي وأصابني الدُّوار، التفوا حولي وأرسلوا في طلب محمد أبو شهبة. جاء الرجل، «أخذ الشمس» بالمنديل والمفتاح، ودلكني بالخل. أذكر أنني قمت بعدها إلى الكنيف وعدت وقد زالت

عني الدوخة وانخفضت الحرارة ونمت نومًا عميقًا حتى الصباح.

وكانت الكازوزة علاجًا آخر، لعسر الهضم واضطرابات المعدة، وغيرها من الأمراض. إذا سرت على الزراعية وأنت تحمل زجاجة من هذه الكازوزة، لا بد أن يسألك من يراك: «كفى الله الشر! مين حداكم بعافية؟!». فقد كانت تعامل معاملة الراوند، معجزة الطب آنذاك وأشهر أدوية الوحدات الصحية زمان. فأدوية هذه الوحدات لم تكن تتجاوز هذا الراوند أو زرنيخًا وحديدًا.

... دائرة محكمة، لا تعرف الهدر أو المخلفات. فلا أكياس بلاستيك أو ورق. والمخلفات الطبيعية لها دورتها التي تعود بالنماء والازدهار على الزرع. حتى شخة الجاموسة كان لها نفعها، تتصارع عليها البنات، يصنعن منها الجلَّة، وقودًا للكوانين والأفران، أو تتحول في الزريبة إلى سماد بلدي، الذي كان الغذاء الرئيسي للأرض. أما فضلات الطعام، فهي غذاء لجيش من البط والدجاج، تموِّن أفراد الدار بالبيض يوميًّا وباللحم في المواسم. كان يحلو لستي حميدة أن تجلس وسط باحة الدار المكشوفة، تنادي الطيور فتتسارع للالتفاف حولها لتأكل من يدها ما أعدت من طعام يحوي ما تبقى من فضلات البيت، الخبز المبلول ومعه البرسيم المخرط أو الذرة المجروشة. وللكتاكيت الرومي البيض المسلوق في مرحلة من عمرها.

... دائرة محكمة لكنها لم تعرف التكرار قَطُّ. فكل يوم، على الرغم من ذلك، له مذاقه الخاص. وكان الخميس بالذات عيدًا بين أيام الأسبوع. ففي الصباح، تنعقد السويقة بالقرب من كوبري القرية الواقع في أولها، نشتري الباذنجان والفلفل بالكوم، والأرز بالكيلة أو القدح، وغير ذلك من مواد التموين التي لا نزرعها. والخميس أيضًا هو يوم الذبح، فبلدنا كانت تذبح يوم الخميس، وكان لحم الجمل هو الأشهى بين اللحوم، والأرخص. كانت جدتي تصنع كفتة الأرز بلحم الجمل وتخزنها بالشهور، من دون ثلاجة أو مواد حافظة. كانت تقلي الكفتة في السمن أو الليَّة حتى تجف وتتخلص من السوائل، فيكون هذا الإدام هو الطبقة الحافظة، وعندما توضع مرة أخرى في الدِّمعة تسترد ليونتها وحجمها. تبدأ الاستعدادات لعيد الخميس ابتداءً من يوم الأربعاء، حيث يدور الجزارون بذبائحهم المنتظرة، يستعرضونها أمام أعين أهالي البلد. كانوا يزفونها ورأسها معصوب بالمناديل الملونة، ويتخذون منا، نحن الأطفال، جوقة لترويج بضاعتهم نظير بضع حبات من الأرواح (نوع من البونبون). كان عمران

الجزار يسأل بصوت عالٍ وبطريقة منغمة وهو يسحب جاموسته المرشحة للذبح: «اللحمة بكام؟»، ونرد نحن في صوت واحد وبطريقة منغمة أيضًا: «بستة ونص»، أي ستة قروش ونصف القرش للرطل، قبل أن يصبح الكيلو هو وحدة الوزن في الستينيات.

والخميس أيضًا هو يوم طلوع القرافة، ويكون ذلك بعد صلاة العصر. يطلع الناس إلى القرافة، بالفطير والمنين والشوريك، حيث ينتظرهم طابور من المقرئين، يتخاطفون الزبائن. وبعد الفوز بالزبون، يفترش الواحد منهم الأرض مسندًا ظهره إلى المقبرة، يكُر على عجَل واحدة من قصار السور، لا تتبين منها شيئًا. ثم يلي ذلك فصال لحوح على الأجرة، وأحيانًا يرفض البعض منهم تقاضي أجره قرصًا ومنينًا، ويصر على تقاضي قرش كامل.

نحن أيضًا نتسابق على الفوز بنصيبنا من الرحمة، وكان الناس يقدمون لنا أقراص الفطير والشوريك عن طيب خاطر باعتبارها نوعًا من الثواب. كنا نتحلق حول النسوة ونحن نردد: «رحمة يا خالة، رحمة يا خالة»، فتنفحنا المرأة نصف فطيرة أو قطعة شوريك. لكن صبيًّا تنتابه حالة من الشيطنة المفاجئة أو الرغبة في المزاح الثقيل كان كفيلًا بإثارة الهرج وإفساد الطلعة علينا. وكان ذلك يحدث غالبًا عندما يحصل البعض منا على نصيب أكبر من الرحمة، فيلجأ من حصل على نصيب أقل إلى هدم المعبد على رؤوس الجميع. كان الصبي يقف في مكان بعيد عن متناول الأيدي ويهتف: «رحمة يا خالة، القطة جعانة، دخلت عبِّي، قرمت ز...ي»، ثم يفر مبتعدًا. فيكون هذا سببًا في مطاردة الرجال لنا وسبِّنا واسترداد الرحمة منا إن أمكن.

* * *

أتيت إلى البلد كي أدخل مدرستها الابتدائية وليكون عمي طه هو ولي أمري، نظرًا لمطاردة البوليس لأبي بسبب نشاطه الشيوعي، واضطرار الأسرة لعدم البقاء في مسكن واحد لمدة طويلة، ومن ثمَّ الاضطرار لتغيير السكن بين حين وآخر. وطفل يذهب إلى المدرسة في مواعيد منتظمة، ويسلك طريقًا ثابتة في ذهابه وإيابه، يُعد هدفًا سهلًا لرجال البوليس السياسي، يمكنهم اقتفاء أثره والوصول إلى الطريدة. ولا أذكر الآن أنني رأيت أبي عن وعي في تلك الفترة، فقد كان إما مطاردًا من البوليس أو معتقلًا. صورته في ذاكرتي في تلك الفترة غائمة. لكني أتذكر بوضوح آخر تلك

البيوت، أو المَهارب، والذي تمكن البوليس أخيرًا من الوصول إليه وإلقاء القبض عليه بعد أن ذهبت إلى البلد. كان بيتًا منعزلًا، من طابق واحد و«من بابه» بمصر عتيقة، وملحق به حوش مكشوف كبير مهجور، وبالقرب منه ملجأ للأيتام. وقد أحسن أبي استغلال وقته الطويل الذي قضاه حبيس هذا المكان. فقام بزراعة هذا الحوش وبنى حوضًا واسعًا، بطَّن قاعه وجوانبه بالأسمنت وملأه بالماء، ليلهو فيه البط الذي كان يربيه. كان منظرًا جميلًا يليق بقصر. كما ربى أبي كلبًا أطلق عليه اسم «بيجو»، شكل مع البط صحبة مسلية، للبط ولنا. لكن القُراد كان كثيرًا ما يعكر صفو بيجو، فيضطر أبي إلى الإمساك به وجز شعره، مع القراد، بعد أن تعذر تخليصه من هذه الحشرة النهمة للدم بطريقة أخرى. فالقراد يلتصق بالجلد، يمتص الدم بشراهة، ولا يسمح لأحد بإزاحته من مكانه. كانت كلها، على ما يبدو، حيل لجأ إليها أبي لمجابهة ثقل الوقت الطويل الذي يقضيه في البيت رغمًا عنه.

ومن المشاهد التي لا تزال حية في ذاكرتي عن تلك الفترة، الزيارة التي ذهبت فيها مع أمي لزيارة أبي بسجن مصر (قراميدان)، وكان قائمًا بالقرب من ميدان القلعة (ربما مكان متحف مصطفى كامل أو قسم الخليفة الآن، وترى بعض المصادر أنه مكان مركز الشباب)، لكني لا أتذكر أنني رأيته. كانت الزيارة بدون تصريح، حيث لا يدخل الزائر إلى السجن لمقابلة السجين، بل يكتفي بمحادثته عبر نافذة الزنزانة، من الشارع، أو أحد البيوت المجاورة، نظير مبلغ لصاحب البيت. ما أذكره بوضوح من هذه الزيارة هو بائع الشاي القريب من السجن، ومذياعه الذي كان يبث يومها أغنية عبد الغني السيد «إيه فكر الحلو بيَّ، باعت بيسأل عليَّ». أحببت الأغنية، ولم أزل على حبي لها، على الرغم من ارتباطها بذكرى مؤلمة.

أخيرًا، أُلقي القبض على أبي وقُدم للمحاكمة وصدر الحكم عليه بالسجن سبع سنوات. وضغطت جدتي على أمي كي تطلب الطلاق وتتركني أنا وأخي وأختي في رعايتها. لم تكن جدتي على وفاق مع أمي. كانت تتمنى لابنها زيجة تليق بمقام ابنها البكر، السمهري القامة، الذي ورث عنها بياض البشرة المشرب بالحمرة، والذي تنذر هيئته بمستقبل كبير. كانت تطمح إلى تزويجه من ابنة عمدة البلد. لكن أبي، المعادي للطبقات والساعي إلى الإطاحة بها، خيب ظن جدتي، وارتبط بعاملة نسيج مكافحة، وسمراء البشرة!

تصدت أمي لمخططات جدتي، وقالت لها إنها ستبيع فجلًا وترعانا على أن تتركنا لأحد مهما كان. ولا أعتقد أن موقف أمي هذا كان بسبب إيمانها القوي بالمبادئ التي يعتنقها أبي، بل أميل إلى أنها كانت تؤمن، بمنطق بنت البلد، بأن هذا الرجل هو نصيبها من الحياة، وأن عليها ستره والوقوف إلى جانبه وتحمل مسؤولية أبنائها مهما كلفها ذلك. كانت تحارب في فترة من الفترات على ثلاث جبهات: الحكومة ببوليسها وتعسفها، وأهلها وأهل أبي، ثم رفاق أبي في التنظيم، الذين كانوا يعتبرونه منشقًّا وخارجًا على توجهات الحزب، وبالتالي لم يتحمسوا كثيرًا لرعاية زوجته وأولاده. علمًا بأن أبي كان محترفًا سياسيًّا، لا دخل له سوى المكافأة المحدودة التي كان يصرفها له التنظيم.

أما كيف وصل أبي إلى قناعاته، وبالتالي إلى طريق التنظيمات والسجون، فهو أنه عندما أتم دراسته بمدرسة الصنائع وحصل على دبلومها، تقدم للالتحاق بمدرسة الطيران، بعد وعد بتخريج دفعته طيارين. لكن أثناء الدراسة اكتشف، مع زملائه، أنهم سيتخرجون ميكانيكية طيران، وهو ما أثار سخطهم ودفعهم إلى التمرد. وكان هذا بداية تفتُّح مدارك أبي وانخراطه في العمل السياسي، ورفده من الخدمة، لتبدأ رحلته مع المعتقلات والسجون؛ من السجن الحربي، إلى سجن طرة ومعتقل الطور وسجن الأجانب وهايكستب وغيره، لتنتهي رحلته مع السجون بسجن الواحات والمحاريق لمدة سبع سنوات. وقد أدت الظروف التي أحاطت بأبي إلى صنع صورة أسطورية له بين أبناء بلده. فمما سمعت أنهم رأوه يومًا يمر فوق البلد بطائرته وهو يلقي منها بالمنشورات. وهي رواية مختلقة بالطبع.

جئت إلى البلد، حتى تتفرغ أمي لجبهات قتالها المتعددة، وتأمين العيش لأخي وأختي، والتمويه على رجال البوليس السياسي، والتصدي لهم إذا ما توصلوا إلى مكان إقامتهم، بعد أن يكون أبي قد فر بالطبع. وقُيد اسمي بمدرسة البلد، لكني نادرًا ما كنت أذهب إليها. فأعمالي اليومية والموسمية لم تترك لي وقتًا كبيرًا للانتظام بالمدرسة. كنت أذهب في أوقات الفراغ، عندما لا يحتاجون إليَّ في الغيط أو الدار. لا أتذكر الكثير من حياتي في المدرسة. ولكنْ واقعتان بالذات أتذكرهما جيدًا، لطرافتهما: الأولى عندما استبدل الأستاذ دسوقي، مدرس العربي، بالجبة والقفطان البنطلون والقميص، فصار شباب البلد وأطفالها يرددون أغنية شاعت وقتها، يقول مطلعها: «لبسوك

البنطلون وتشُخ منين يا دسوقي؟!».

أما الثانية فكانت عندما طلبوا منا في المدرسة قرشًا لعمل الزينة بمناسبة عيد الأم. كانت جدتي تجلس مقرفصة في صحن الدار، تغسل علبة السمن، الذي كانوا يوزعونه مع اللبن على تلاميذ المدارس كجزء من المعونة الأمريكية، بعد استهلاك محتوياتها. أبلغتها بأنهم طلبوا منا في المدرسة قرشًا من كل تلميذ لتزيين الفصل بمناسبة عيد الأم. انفجرت جدتي في وجهي صارخة: «إمشِ، قرشت الملح إنت وأمك». كان رد فعل جدتي مفاجأة لي، فأنا لم أرَ منها إلا كل لطف ومودة. أعرف أن القرش مبلغ كبير في ذلك الوقت، لكن أتستكثر هذا على ابن بكريِّها الغالي، الذي تبكيه كلما ذُكرت سيرته؟ كيف تثور في وجهي كل هذه الثورة؟ ولم تكتفِ بذلك، بل قامت، بسبب إلحاحي وتشبثي، بقذفي بعلبة السمن في رأسي ليسيل دمي. فزعت لمرأى الدم، وجريت وأنا أصرخ إلى القَطعة، حيث كان جدي وسيدي علي يشربان القهوة في طرف ناءٍ منها. بالكاد، رفع جدي بصره إليَّ وردد عبارته الأبدية التي يلجأ إليها في كل المواقف: «ياخي ياخي، إتفو». ثم أردف: «تقولش قرصه تعبان ياخي!». وبهدوء، أخرج بعض البن من ورقة بجواره وكبس الجرح. وانتهى الأمر. كنت ألمح قلق جدي الذي يحرص على عدم إظهاره، فهو يسألني من حين لآخر عما إذا كان الجرح لم يزل يؤلمني أم لا.

* * *

قضى جدي الحاج عبد الحكم الجانب الأكبر من حياته في خدمة البوليس، وتركها بدرجة الباشجاويش (رقيب أول). خدم في معظم مديريات مصر، وعمل في السودان، وصحب المحمل إلى الحجاز حيث حج بيت الله. كان رجلًا تقيًّا، يصلي الوقت بوقته، لكني لم أره يومًا يتحدث أو يجادل في أمور الدين. والحقيقة أنني لم أرَ غيره من أهل البلد يفعل هذا. كان الناس يستفتون قلوبهم فعلًا، ويتبعون فطرتهم التي فطرهم الله عليها. بل إن جدي نصحني ذات مرة بأن أؤدي الصلاة ولا أحضر الدرس، وعندما سألته عن السبب قال: «هيلخبطوك». وكان المقرئ يأتي إلى دارنا يوم الجمعة، يقرأ ما تيسر ويحصل على ما قسم الله له من خبز أو ذرة أو بيض، ويتلقى كلمات الاستحسان على أدائه. وكانت جدتي تبخر البيت وتردد الأدعية، درءًا لعين الحسود والشياطين.

كان جدي، في أحيان كثيرة، يفتقد الونس عند الكبار، فيصطفي البعض منا، نحن أحفاده، ليحكي لنا عن أعماله ونوادره عندما كان بخدمة البوليس. وأذكر أنه في إحدى هذه المرات قص علينا ما حدث عندما كان ضمن القوة التي ذهبت في محاولة للقبض على أدهم الشرقاوي. فتشوا كل الحجرات ولم يبقَ إلا غرفة للحريم، وطلب صاحب المنزل إخلاءها من النساء أولًا قبل أن تدخل إليها القوة. وأكد جدي أن أدهم خرج أمام القوة المتحفزة، متنكرًا في زي امرأة، ولكز المأمور في جنبه وهو يمر أمامه. بعدها بقليل سمعت القوة صوت طلقات بندقيته ابتهاجًا بالفرار.

كان جدي - وهو يروي - متعاطفًا مع الرجل، ويراه بطلًا. فهو يأخذ من الغني، حسب قوله، ويعطي الفقير. وأكمل لنا القصة الحقيقية لأدهم الشرقاوي. قال إن الذي قتله لم يكن صديقه بدران، كما جاء في المسلسل الذي كان يذاع وقتها في الراديو، بل زميلهم وكيل الأمباشي عصفور. ذهب عصفور إلى حيث كان يختفي أدهم في أحد غيطان الذرة وأوهم حراسه بأنه يحمل له رسالة، فسمحوا له بالمرور حيث قتل أدهم وفر هاربًا من الجهة الأخرى. وبقدر مأساوية نهاية أدهم جاءت نهاية عصفور. فبعد أن نجح في مهمته رُقي إلى درجة الأمباشي، وكان مصورو الصحف يأتون لتصويره بعد أن يوقفوه فوق كرسي. لكن عناية السماء لا تغفل. فبعد أن رُقي عصفور، نُقل للخدمة في المنصورة، وهناك توثقت صداقته بابن أحد أثرياء البلد، كان على علاقة محرمة بزوجة مبيض نحاس. فلما علم زوجها وانكشف الأمر، طلب الصديق من عصفور أن يخلصه من المبيض. واستجاب عصفور لطلبه وقام بقتل الزوج، وعندما انكشفت جريمته فر هاربًا، وحُكم عليه غيابيًّا بالإعدام. وبعد فترة نجح البوليس في القبض عليه وهو متنكر على هيئة بائع عرقسوس شامي، ونُفذ فيه الحكم.

كان جدي يحكي عن أدهم كبطل مات ظلمًا، وعن عصفور باعتباره خائنًا يستحق العقاب والشماتة. ولا أدري إن كانت تلك هي الحقيقة أم أن جدي كان يتبنى رواية تحاول أن تشيع قدرًا من العدل.

* * *

بعد حصاد المحصول وقبض المستحقات، تكون عصبية جدتي قد بلغت ذروتها، ويكون هذا إيذانًا للاستعداد لعمل الزار. موعد سنوي، مضبوط أيضًا

كالساعة. تستدعي جدتي محمد البطراوي، أبونيه البلد. وهو شخص لم تكن تخلو منه قرية، مهمته تجميع طلبات أهل البلد التي لا تتوفر إلا في المركز أو مصر (القاهرة) في كشف، ثم يذهب لشرائها. فالمواصلات كانت عزيزة، والنزول إلى البندر محفوف بالمخاطر. فآخر سيارات الشركة كانت تمر بالبلد في الرابعة عصرًا، بعدها لا خروج ولا دخول. كما سمعنا عن كثيرين من الفلاحين تقيأوا عند ركوبهم الأتوبيس للمرة الأولى. وكنا نعرف سائق كل ميعاد ونميز طريقته في القيادة ودخلته على البلد والصفير الذي يطلقه إيذانًا باقترابه. وكان البطراوي هذا رجلًا غريب الأطوار، فهو يعمل طوال السنة كأبونيه، أما في موسم الحصاد فيتحول إلى درويش يرتدي العمامة الخضراء ويمسك بمسبحة طويلة ويهيم على وجهه، ويترك مهمة الأبونيه ليتولى مهمة ترتيب حلقات الذكر والزار. وكم أنفقت جدتي على طلبات الأسياد، لكنها والحق يقال كانت تحل عليها، بعد حلقة الزار، حالة من الهدوء والسكينة غير معتادة، تستمر مدة طويلة. كان يأخذ من جدتي «شيء وشويات»، على حد تعبير أمي، لشراء الحلي الفضية، وأنواع العطارة، لزوم الزار. وكانت الدار يومها تشهد توالي وصول نساء غريبات لم يسبق لنا رؤيتهن، بينهن نساء سود البشرة، ومنهن من يحملن الدفوف أو الطارات. هذا غير الرجال مطلقي الشعور، الأشبه بالنساء، يطلقون عليهم اسم «أبو الغيط». وكانت الغرفة المخصصة للزار محظورة على غير النساء، لذلك لم نكن نرى شيئًا مما يدور داخلها. لكننا كنا نشهد جدتي وهي تخرج فيما يشبه الزفة، مسنَّدة، ترتدي البياض، يكاد يُغمى عليها. بعدها يصفو وجهها وتروق عيناها، بما يدل على أن الأسياد قد رضوا عنها.

ولم يتوقف هذا النوع من أنشطة جدتي عند حدود الزار. فقد كان لها زياراتها الليلية شبه المنتظمة لسيدي شحتوت أو سيدي رزق الله، وكلاهما يقع مقامه في مكان بعيد عن دارنا. كنت أسحب ستي حميدة ليلًا، أقودها وسط الظلام الذي كان يسود ليل البلد. كانت تقف أمام شباك المقام تقرأ الفاتحة لصاحب المقام، ثم تبدأ تشكو إليه من جدي ومن عمي طه ومن محفوظة ومن صباح. كانت تنفعل أحيانًا أثناء عرض شكواها إلى درجة أنني صدقت أن أحدًا، خلف الشباك، ينصت إليها ويتجاوب مع شكايتها. كانت لدى جدتي قناعة بأن سيدي عبد الحكم مرافق أم غانم. وهو اتهام أشهد أن جدي

بريء منه، وأننا - أطفال العائلة - الذين اخترعنا هذه الفرية، تحت ضغط الحاجة، لنفوز ببعض ملاليم جدتي. كان يكفي أن آتي لأخبرها بأن جدي يجلس في تلك اللحظة في دكان أم غانم ويشرب معها الشاي، فينطلق غضب جدتي من عقاله وتبدأ في توجيه السباب لجدي: «الراجل الدن، الراجل الدنف»، ثم تنفحني مليمًا نظير تشديد الرقابة على جدي وموافاتها بتقارير دقيقة. طبعًا الحكاية لها أصل وجسم هو واقعة جلوسه عند أم غانم في الدكان، وكان الأمر لا يخرج عن تناول الشاي وتبادل بعض الأخبار المتعلقة بالبلد والعائلة، فأم غانم قريبة لنا، وجدي رجل متدين بحق. لكن غيرة جدتي لم تكن لتغفر مثل هذا العمل الطائش الذي يرتكبه جدي من حين لآخر، من دون أدنى تحفظ.

كُنت، بصورة أو بأخرى، الساعد الأيمن لجدتي ومخبرها الخاص وسط هذه الدار «السايبة»، حسب تعبيرها. ذات يوم استولى عمي طه من الصومعة على كوزين من الذرة وأرسلني لأستبدل بهما اللبان الدكر لزوجته، وعندما عدت أخبرت جدتي بما حدث. وصادف ذلك مرور عمي طه، الذي رآني وأدرك بحاسته طبيعة الموضوع، أو ربما سمعنا. عندما خرجت، كان عمي طه ينتظرني وصفعني صفعة صرخت من شدتها. وعندما سألته جدتي عن السبب أجاب بأنني كنت أعذب عصفورًا. وعلى الرغم من كل شيء، أشعر الآن أنني كنت مركز البيت وعينه الشاهدة على كل الوقائع. كنت متورطًا أو شاهدًا بقدر أو آخر في بعض أعمال وتجاوزات كل فرد من أفراد الدار. فأنا بالنسبة لجدتي عينها على الآخرين، وبالنسبة لعمي طه عائق أمام حصوله على ما يريد، وفي نفس الوقت رقيب يجب الحذر منه من دون إظهار التودد إليه، ليعطي لأعماله شرعية أمام نفسه ولنفي قيامه بها عند احتداد المواجهة مع جدتي. أما بالنسبة لجدي عبد الحكم فلم تكن جدتي تذكر مصادر معلوماتها في المواجهات. وهكذا، ولأنه رجل طيب ومسالم آمن للدنيا، ظللت بالنسبة له ذلك الحفيد البائس، ابن بكريه الذي غيبته السجون والمعتقلات، والذي يؤدي واجباته بحب، من دون كسل أو تلكؤ.

هكذا كنت القاسم المشترك لمعظم الأحداث وأيضًا الأعمال التي تتطلبها الدار أو الغيط، وكان الاعتماد عليَّ كبيرًا. ومن هذه الأعمال تليبط الدار، أي إضافة طبقة جديدة من الطين المخلوط بالتبن كنوع من المحارة. يومها، كانت مهمتي جلب الماء من الجرفة، وهي ترعة صغيرة جدًّا تخترق الزراعية

بالطول، وعندما يقل ماؤها - وكثيرًا ما كان يقل - تنبعث منها روائح كريهة بسبب ما يُلقى فيها من قاذورات أو رمم الحيوانات. وبعد هذا أساعد جدتي في خلط التراب جيدًا مع الماء والتبن، ثم تقوم هي بمهمة التلييط، مستعينة بيديها وحدها. وذات مرة، وأنا عارٍ تمامًا في الجرفة، لمحت ثعبانًا طويلًا يشق سطح الماء، فهرولت كما أنا، أداري عورتي، هربًا منه. وكان العلاج الشائع في البلد للدغة الثعبان هو إحاطة موضع اللدغة بحمامة مذبوحة. وقد استغل عمي طه هذا ذات مرة، فادعى أن محفوظة لدغها ثعبان، ليفوز الاثنان بفرد حمام تقاسماه بعد طهيه.

وبعد أن انتهينا، أنا وجدتي، من عملية التلييط، دخلت إلى المندرة لتستحم وتزيل طبقات الطين السميكة التي تراكمت فوق وجهها وملابسها، ثم نقعت الملابس في ماء الحموم. بعدها، ارتدت طرحتها البيضاء فوق جلبابها الأبيض وصلت وهي جالسة، ثم سحبت كيس النقود من صدرها، وأخرجت منه قطعة نقدية قربتها من عينيها لتتأكد من قيمتها ثم قالت لي: «خد التعريفة (نصف قرش وكان يطلق على القرش ونصف ٦٠ فضة والقرشين ونصف ١٠٠ فضة) دي وهاتلنا نص رطل بلح أمهات وتعالى ناكله سوا». أمسكت بالتعريفة في يدي وانطلقت باحثًا عن بائع البلح الأمهات حتى وجدته. كان بائع البلح جوالًا، لكن بائع العنب كان له مكان ثابت. هو واحد من أبناء البلد، امتهن البيع والشراء، وكنت أحب نداءه المميز على بضاعته: «ولا بيض اليمام يا بيض اليمام يا عنب». كان عنب بز المعزة والبلدي والفيومي هي الأنواع الأشهر والأكثر انتشارًا في بلدنا، ولم أعرف أن هناك أنواعًا أخرى من العنب، وبالذات البناتي الخالي من البذر إلا عندما عدت للعيش مع أمي في المدينة.

عدت حاملًا قرطاس البلح، استخلصت لنفسي واحدة أو اثنتين في الطريق، فإغراء البلح المسكر لا يقاوم. جلست أنا وجدتي نأكل البلح، كلصين يقتسمان غنيمة، أو كشريكين في مؤامرة يتبادلان أنخاب النصر. مكافأة خاصة، لا يشاركنا فيها أحد، فنحن اللذان شقينا وتعبنا من دون الآخرين. وأنا بالذات تعرضت للمخاطر، ليس أكبرها الثعبان الذي كان يمكن أن يلدغني. فبعد أن تركت البلد بمدة لمحت ذات يوم بعض نقاط دم مختلطة بالبول على ملابسي الداخلية، وأدركت أن تلك علامة على إصابتي بمرض البلهارسيا. وبدأت بعدها أتردد على الكلستوما، وهو المستشفى المتخصص وقتها في علاج الأمراض

المتوطنة، وأهمها البلهارسيا والإنكلستوما، والأخير يصيب البطن بنوع من الديدان.

مبنى الكلستوما المصنوع من الخشب أشبه بمستشفيات الميدان العسكرية يضم عددًا من الغرف، إحداها لأخذ عينات البول أو البراز، والأخرى معمل لتحليل العينات، والثالثة صيدلية لصرف الأدوية، وأكثر من غرفة للسجلات والإدارة ثم غرفة الحقن. كانت الغرف مقامة على أرض رطبة، تنبعث منها دائمًا رائحة أشبه بتلك التي تنبعث من المراحيض العامة. وبعد ظهور نتائج التحليل، كنا نصطف لسماع النتيجة والعلاج الذي تقرر لكل منا. فإذا كانت الإصابة بالبلهارسيا، كان العلاج عدد ١٢ حقنة، يومًا بعد يوم. أما إذا كانت الإصابة بالإنكلستوما فالعلاج حقنة وشربة باكر، كما يعلن التومرجي المسؤول بصوته الجهوري، بعد أن ينادي اسم المصاب وكأنه يعلن نتيجة الثانوية العامة.

نادى التومرجي على اسمي وأعلن إصابتي بالبلهارسيا وأن عليَّ أن أحضر يومًا بعد يوم. وشدد على عدم تناولي أي شيء قبل أو بعد الحقنة بساعة، وبالذات الطعمية، وأنذرني بأن مخالفة ذلك سوف يسبب لي القيء. وكررت العلاج أكثر من مرة، وأكلت الطعمية ولم يصبني القيء، ولم ينقطع الدم. ولما ازدادت الحال سوءًا، مع تزايد كمية الدم، قررت أمي أن أتلقى علاجًا خاصًّا على يد طبيب اسمه «عبد الرحيم»، كان شهيرًا آنذاك بين سكان حينا والأحياء المجاورة. ونجح الرجل في النهاية في علاجي.

* * *

ولأني لم يكن لديَّ الوقت للانتظام في المدرسة، كنت أذهب كلما توفر الوقت إلى كُتَّاب الشيخ عبد العظيم. رجل كفيف، يسرف في استخدام عصاه بسبب وبدون سبب. يبدو أن كل مشايخ الكتاتيب كانوا كذلك، ويبدو أن تلك كانت الطريقة المضمونة والمعتمدة للتعليم وقتها. كنت أذهب هاويًا وبغير انتظام. شعرت جدتي بالذنب، على ما يبدو، بسبب عدم انتظامي في المدرسة، وأرادت أن تخلص ضميرها، فأرسلتني إلى كُتَّاب الشيخ عبد العظيم. كان الكُتَّاب بعد دارنا بدارين، وكان يعاون الشيخ عبد العظيم عريف يتولى تحفيظنا القرآن، ويمدنا للشيخ حتى يتمكن من إنزال العقوبة بالكسول والمتراخي أو المشاغب. كان الشيخ يضرب عشوائيًّا لتنزل العصا على أي

مكان من الجسم. لكن على الرغم من قسوة هذه الطريقة، وعلى الرغم من عدم انتظامي، خرجت من الكُتَّاب وأنا أفك الخط وأحفظ جزء «عم»، طبعًا من دون فهم لمعنى ما حفظت. وحين التحقت بعد ذلك بالمدرسة الأميرية لم أجد صعوبة في إتقان القراءة والكتابة.

كنت أختفي تمامًا من الكُتَّاب والمدرسة في المواسم: موسم جمع القطن أو مقاومة الدودة أو ضم الغلة. وكانت هذه المواسم هي التعبير الأمثل عن روح التعاون المشهورة عن الريف في ذلك الزمان. كان شباب البيوت التي لم يحل موعد حصاد محصولها أو المقاومة يمدون يد المساعدة للأسرة التي حل دورها، ويكون هذا دينًا إلى حين يحل الدور على أسرته. فكله سلف ودين، أو تعاون إجباري فرضته طبيعة الحياة في الريف. فأنت معرض لنفس الموقف في وقت أو في آخر، ولا بد أنك ستحتاج عون جارك. ليس هناك تفضُّل أو مجاملة ولا حتى كرم. إنه عطاء متبادل له فلسفته الضمنية التي لا يتوقف أحد ليتأملها أو ينظِّر لها. فالفلاح لا يعرف إلا ممارسة الحياة والتحايل عليها، والاستمتاع بما تجود به من متع صغيرة.

كنت أحتفي كثيرًا بموسم جمع اللُّطَع. فبعد جمع كمية معينة منها، نشعل فيها النار على رأس الغيط، وفي هذا الحريق ندس عددًا من فحول البصل الذي كنا نزرعه مع القطن، فنحصل على بصل ناضج لذيذ لم أصادف طعمه بعد ذلك طوال حياتي. وطبعًا تبدأ نتائجه في الظهور مع النوم الجماعي وانطلاق الغازات السامة.

في موسم البذار كان عليَّ أن آخذ الحمار وأسافر مع عمي إلى مرصفا، التي تبعد عن البلد حوالي خمسة كيلومترات لإحضار البذور من هناك. كما كان لي دوري في تجهيز الأرض. ومن الأشياء الممتعة التي أتذكرها عملية «ملس الفحل». حيث أجلس أنا (كثقل) على حزمة من البرسيم أو القش، مربوطة بحبل ويجرها الحمار أو الجاموسة، وأنا راكب مستمتع حتى يستوي الفحل الذي يحمل الماء من الترعة إلى الأحواض بالدور، وتصبح جوانبه ومجراه ملساء ومستوية. وفي موسم جني القطن كنت أربط جلبابي من منتصفه مثل الكبار لتخزين القطن فيه وتفريغه بعد ذلك في الأكوام المعدة على رأس الغيط. وهناك أيضًا موسم الشعرية، حيث تشترك أكثر من دار لعمل خزين السنة من الشعرية البلدي. يحضر القادوس الخشبي إلى الدار

التي عليها الدور، وبعد تجهيز العجين توضع قطع منه أسفل عامود الضغط. يمسك الرجل بذراعين متصلين بالعامود يديرهما ليضغط قرص في آخر العامود على العجين فتخرج من بين ثقوب رفيعة شرائط العجين الشبيهة بالمكرونة، لتفرد على الألواح وتُترك لتجف تمامًا قبل أن تدخل مرحلة التحميص بالفرن. وتخزن الشعرية لتكون - بعد إضافة اللبن والسكر طبعًا - غيار الريق، أو طبقًا للتحلية في بعض المناسبات.

ومن المناسبات التي كانت تبعث فيَّ البهجة والفرح في تلك الأيام يوم الطحين. كان وابور الطحين يقع على الزراعية، في منتصفها تقريبًا، ونسمع صوت ماكينته من أي مكان في البلد طوال النهار، توك، توك، توك. تتوافد النساء بصحبة أطفالهن على الوابور وهن يحملن قُفَف الذرة أو القمح أو الحِلبة فوق رؤوسهن. عادة ما كان الفلاحون يصنعون خبزهم من خليط من الذرة والحلبة لتفادي الإصابة بمرض البلاجرا الذي كان شائعًا في ريف تلك الأيام، بسبب نقص فيتامين ب٣، وهو متوفر في الحلبة. أما الأغنياء منهم فكانوا يضيفون القمح. أما الوابور نفسه فعبارة عن قاعة كبيرة تضم مصطبة مرتفعة، يعلوها القادوس، وهو عبارة عن مخروط ضخم أشبه بقمع الجاز. يفرغ العامل محتويات القفة في القادوس، بينما تنتظر صاحبتها في الأسفل أمام فتحة خشبية أشبه بفتحة صندوق البوسطة، حيث تتلقى الدقيق. وعندما يبدأ تدفق الدقيق في التناقص، علامة على قرب انتهاء عملية الطحن، تبدأ صاحبته في الخبط على الجدار الخشبي للحصول على آخر حفنة من الدقيق في القفة المبطنة بالقماش. ثم تتقدم من عليها الدور وتتكرر العملية. نخرج ووجوهنا وملابسنا معفرة بذرات الدقيق الناعمة.

وهناك موسم استثنائي آخر، عندما تبدأ السدة الشتوية ويحل الجفاف ويتحول قاع الجرفة إلى روبة من الطين وجيف الحيوانات وكل أنواع المخلفات. حينها، ترسل الحكومة الكراكات العملاقة لتطهير الترعة. تغرس الكراكات كباشاتها في باطن الترعة، تجمع ما تطاله من مخلفات. لكنها تخرج أيضًا عددًا لا بأس به من القراميط والبياض، نتحلق حوله ونتصارع لجمع ما يمكننا جمعه. كما أنها كانت تصدم بالخطأ شجرة الجميز الضخمة فتلقي بحمولتها من الثمار، فنتحلق حولها لالتقاط تلك الثمار. بعد هذا، تعود الترعة نظيفة، طاهرة، استعدادًا لملئها مرة أخرى.

أما موسم قطف العسل فكان موسم المواسم في دارنا، ولا يعرفه غيرنا سوى عدد قليل من الدور. كان لجدي عبد الحكم عدد كبير من خلايا النحل البلدية الأسطوانية، المصنوعة من الطين، مرصوصة بطول سور القَطعة، حيث يتغذى النحل على أشجار الفاكهة المزروعة هناك، والمزروعات المنتشرة حولنا. كانت القَطعة تضم عددًا من أشجار الرمان والجوافة وشجرة مشمش وشجرة توت واحدة، وهناك شجرة توت أخرى ضخمة وعتيقة أمام باب الدار الأمامي، ترمي بالجزء الأكبر من ثمارها فوق سطح دارنا. وكانت إحدى متعي في تلك السن أن أتوجه إلى داخل القَطعة مبكرًا فيمنحني الحظ ثمرة جوافة اكتمل نضجها تمامًا فسقطت على الأرض المروية، أتلقاها كمن يتلقى جوهرة نادرة. كما كان في مقدمة القَطعة مساحة تُعفى من الزراعة في موسم الدراس، لتكون جرنًا لنصب النورج لدرس القمح ثم تذريته. وهذه المساحة أيضًا هي التي كنا نتجمع فيها لممارسة ألعابنا المحببة: «عنكب شِد واركب»، «الجاموسة والدة»، «الطُّرة في العب»، وغيرها. أو نمارس رياضة القفز والارتماء فوق كوم التبن الذي يخزنه جدي في جانب من القَطعة.

بعد أن ينتهي جدي من عصر العسل، يضع الشمع المتخلف من العصر في حلة كبيرة ويضيف إليه الماء ويتركه يغلي، ثم يتركه ليبرد مخلفًا طبقة سميكة على السطح. يكشط جدي الشمع المتكاثف على سطح الماء، الذي أصبح شرباتًا بفعل ما ذاب به من عسل. يتركه ليخمر قليلًا ويصبح شرابًا لذيذ المذاق وذا أثر مسكر قليلًا. أما الشمع فيعيد إذابته في حلة صغيرة ويتركه يبرد ليعطي في النهاية قرص الشمع. ومع قرص الشمع تبدأ رحلة فوق العادة إلى البندر؛ إلى بنها، حيث تبيع جدتي للعطار قرص الشمع. وبعد فصال ومناهدة، تنجح جدتي في إقناع الرجل بدفع خمسة وثلاثين قرشًا بدلًا من ثلاثين. نشتري بعض ما يلزم الدار، أدور وراء جدتي من دكان لآخر، تختار وتفاصل في السعر قدر إمكانها. وبعد أن ننتهي من مهامنا تأتي المكافأة الكبرى: رغيف قمح وطعمية ساخنة لكل منا. نجلس على العربة الكارو، بعد أن غادر «ميعاد أربعة» المحطة، ولم يعد أمامنا سوى هذه الوسيلة. ألتهم، بزهو، الطعمية الساخنة، بينما تأكل جدتي على مهل بسبب خلو فمها من معظم أسنانه. وندخل البلد دخول الظافرين.

في إحدى هذه المرات، نفحتني جدتي خمسة قروش كاملة لأقص شعري عند حلاق البندر. ذهبت إلى صالون رمسيس القريب من محطة القطار. عندما انتهى الرجل من قص شعري أعطيته القروش الخمسة. لم ترضه هذه القروش وطلب قرشًا إضافيًّا، وهو ما اعتبرته نوعًا من الاستغلال أو محاولة لابتزاز طفل صغير. قلت للرجل بغضب: «ليه؟ دا أبو قمر حدانا بيحلق للحمار وينقرشه ويرسمله سمكة على رجله بخمس قروش!». ولم يجد الرجل ما يرد به سوى الانفجار في الضحك وكذلك زبائن المحل. وغادرت المحل وسط هذه الضحكات وأنا أيضًا أضحك من هذا الرجل الذي حاول أن يستعبطني، لكنني أفشلت خطته. كان أهل الريف يتوجسون في تلك الأيام من أهل البندر ويتحذرون منهم.

* * *

علاقة سيدي عبد الحكم بالنحل نموذج آخر للعلاقة الروحية الخالصة التي يمكن أن تنشأ بين الإنسان والطبيعة بتجلياتها المختلفة، طائر أو حيوان أو نبات، أو حشرة. كنت أشعر أن لحظات وجوده وسط خلايا النحل هي لحظات التوافق والانسجام الحقيقية. كنت أراه يتوحد مع النحل؛ يصبح نحلة. كان يحدب على النحل، وكان إذا قرصته نحلة أو قرصت غيره شعر بالحزن، لا بالألم. فلم يكن يهمه وخزها، بل كان يعتبره شفاء للناس. كل ما كان يشقيه في تلك اللحظات هو مصير النحلة. فوخزة النحلة معناه انفصال زبانها عن جسدها وموتها. وقد رأيته ذات مرة وهو يحاول إعادة زبان النحلة إلى مكانه، علَّه يعيدها إلى الحياة. وفي موسم التطريد (لا أدري حقًّا إن كان له موسم أم أنها حالات طارئة لظروف أجهلها) كنت ترى حالة أخرى من حالات هذا الانسجام النادر، بين جدي وهذه المخلوقات. في هذا الموسم يهج النحل من خلاياه، ويتجمع على هيئة عناقيد، تُسمى «الطرود»، تتدلى من فروع الشجر. ولا بد من إعادة تسكين هذا النحل مرة أخرى في خلية من الخلايا. فكان جدي يقترب من الفرع، وهو يمسك بيده كيسًا من القماش. يقترب من الفرع بهدوء غير حذر. منظره يوحي بشخص يمارس طقسًا روحيًّا. إذا اقترب جدي سكنت الحركة وسط الطرد، وكفت النحلات القليلة، التي لا تزال تبحث عن مستقر لها بين المجموع، عن الزن والحركة، كما لو أن سكينة نفسه قد انتقلت إلى الجماعة وأشاعت فيها الاطمئنان. بهدوء، يُدخل الطرد في

الكيس، ويهز الفرع لتستقر جموع النحل في قاعه القماشي. بعد هذا، تأتي عملية التدخين. فسكان الخلية القدامى يجب ألا يشعروا بدخول الغرباء بينهم وإلا صارت معركة بين الطرفين. لذلك يعمد سيدي عبد الحكم إلى إطلاق الدخان في الخلية، للتمويه على السكان الأصليين أولًا قبل دخول الوافدين الجدد.

كما كانت رعاية جدي للنحل تتجاوز هذه الأدوار لتشمل الدفاع عنها أمام الأعداء الطبيعيين، أي الدبابير الحمراء. حين تكثر هذه الدبابير، وبالذات في موسم البلح، يكون هذا إيذانًا ببدء الحملة السنوية لمكافحة الدبابير. كان يحضر قناعين مصنوعين من القماش، ينتهيان بشبكة منخل، تقي من الهجوم المضاد للدبابير، ومقشتَي بلح لسحقها. يعطيني قناعًا ومقشة، ويرتدي هو قناعًا ويمسك بالمقشة الأخرى. نتربص بالدبابير المهاجمة، وعندما نراها تقترب نهاجمها بالمقشة، فنقضي عليها، حريصين على ألا نصيب أحدًا من جبهتنا. كان علينا اصطياد الدبور قبل أن يتسلل إلى داخل الخلية فيثير فيها الفزع، ويضطر النحل إلى الفرار، هاجرًا بيته. وكانت مقشة البلح فعالة في أداء المهمة. وكانت المعركة تنتهي بعشرات من جثث صغيرة، أسطوانية الشكل، بنية اللون بخطوط صفراء. بعدها، نخلع أقنعتنا، نمسح العرق الذي تكاثف على الجبهة بكُم الجلباب. يُقعي جدي مسندًا ظهره على سور القَطعة، يخرج علبة الدخان ليلف سيجارة يكافئ بها نفسه بعد هذا الإنجاز.

أتركه مع سيجارته، يزفر هواءها بذلك الاستمتاع المعتاد. أتسلل إلى زلع المش والجبنة القديمة المصطفة بطول صف خلايا النحل. كانت جدتي تحكم إغلاق الزلع بالطين، بعد أن تملأها بالمش القديم واللبن الرائب وقطع الجبن وقرون الفلفل الأحمر الحراق وما تيسر من قشر البرتقال والطماطم الخضراء وأحيانًا الجوافة العجر (التي لم يكتمل نضجها). أتقدم إلى إحدى الزلع المفتوحة كاللص، أشمر كُم جلبابي، أغوص بيدي بحثًا عن قطع الجبن السليمة، فبائع الترمس أو الدندرمة يشترط أن تكون القطعة كاملة وسليمة. أقدمها للبائع فينفحني حفنة من الترمس أو بسكوتة بالدندرمة. أعود إلى جوار جدي، أقرفص مثل رجل صغير، أتناول حبات الترمس أو أرتشف الدندرمة وأقرمش بسكوتتها. احتفال صغير بانتصارنا على الدبابير. لا يسألني جدي من أين أتيت بما أتيت به. هل كان تواطؤًا من جانبه أم ثقة فيَّ؟ أميل

الآن لاعتباره تواطؤًا في سبيل حصولي على مكافأة أستحقها. وأعتقد أن هذا التفسير ينسجم أكثر مع شيم جدي وطيبته وتسامحه. ثم إنه كان يحدب عليَّ بصورة خاصة، وكان بيننا حوار خفي أتلمسه من تعبيرات وجه هذا الجد الطيب.

مرة واحدة غضب فيها جدي مني غضبًا حقيقيًّا، وهي تعكس أيضًا علاقة هذا الرجل بكائنات الله. في ذلك اليوم كان دورنا في ري الأرض، فانسابت المياه من الفحل إلى الأحواض، وتكاثرت أعداد أبي قردان، تلتقط الدود الذي حركه الماء وكشف مخابئه. لاحظت أن واحدًا من هذه الطيور يعرج وأدركت أنه مصاب. تربصت بالطائر حتى أمسكت به وجلست ألعب به. وفجأة رأيت جدي فوق رأسي وقد احمرت عيناه، وعلى وجهه غضب. نهرني، ثم أمسك بالطائر بين يديه. صنع جدي للطائر جبيرة من عود حطب قطن ولفها حول الساق بشريط من التيل، وظل يرقبه وهو يحجل وحتى نجح في النهاية في الطيران والاختفاء عن العيون. ذلك الرجل لم يتورع ذات مرة، كما سمعت، عن إصابة غراب وهو طائر ببندقية، فقط ليؤكد براعته في النيشان. يومها ظل أبي يبكي على الغراب المغدور، الذي سيتأثر أولاده حتمًا بغيابه.

لم يكن جدي يملك بندقية. لكن عندما كان ضم الغلة يستدعي خروجنا إلى الغيط في الظلام، قبل حلول الفجر، ولأن الغيط كان على رأس ترب، ولا مفر من المرور بالقرب منها، كان لا بد أن نتسلح ببندقية لمواجهة احتمال ظهور الذئب. فكان جدي يرسلني إلى إبراهيم أبو مطاوع، طليق عمتي سميرة، لاقتراض بندقيته. وكان الرجل يفككها إلى أجزاء ويلفها في خرقة، لأحملها عائدًا إلى الدار. ولم يكن الأمر لافتًا للأنظار، ولا خوف هنالك من إضاعتها بسبب صغر سني. كانت الدنيا أمانًا. وعند وصولي إلى الدار، كان جدي يعيد تركيبها. لكني، على أية حال، لم أرَ ذئبًا، فسرعان ما كانت تشرق الشمس لتهتك ستر الظلمة، ناشرة النور في كل مكان. أو ربما كانت حكاية الذئب هذه أسطورة متوارثة.

* * *

فجأة انتهى هذا الحلم الجميل. فجأة جاءت أمي، ذات ليلة صيفية، لتأخذني إلى المدينة التي كنت قد نسيتها تمامًا. استشعرت أمي أن مستقبلي سيضيع ولن أكمل تعليمي لو استمر بي المقام في البلد. كما أن مطاردة أبي انتهت

واستقر به المقام بأحد السجون لقضاء مدة العقوبة، وانتهى مبرر بقائي في البلد.

كان اليوم على ما يبدو يوم موسم. ما يدعوني إلى هذا الاعتقاد أن ستي حميدة سلقت في هذا اليوم رأس جاموس، ووضعته في وسط الدار وغطته بطشت ثقيل خوفًا من القطط. لكنني، وتحت ضغط الجوع والإغراء، كنت أتسلل من حين لآخر، أرفع الطشت بحرص وأستخلص قطعة، أحرص على أن تكون صغيرة حتى لا ينكشف أمري.

أرسلتني جدتي لاستعجال سيدي عبد الحكم وعمي لتناول العشاء، وعندما عدت، وجدت معركة حامية طرفاها جدتي وأمي التي ظهرت فجأة. جدتي تمسك بالشِّعبة وتلوح بها في وجه أمي، بينما تحجِّز بينهما ابنة خالة جدتي التي أحضرتها أمي معها، تحسبًا لموقف كهذا. وبسرعة، استبدلت أمي بملابسي ملابس أحضرتها معها، وسحبتني إلى حيث كانت عربة أجرة تنتظر.

وكانت تلك الليلة آخر صلتي الحميمة بالبلد. فلم أزرها بعد ذلك إلا مرات قليلة، ظلت تتراجع بتقدم العمر. لكن لم تسقط قَطُّ من ذاكرتي تفصيلة من تلك الفترة مهما كان شأنها، بل إن حضورها المُلح كان أحد دوافعي لتسطير هذه الأوراق. كان ذهابي إلى البلد، بعد ذلك، غالبًا لتقديم واجب العزاء فيمن رحل من الأعزاء. فقد مات سيدي عبد الحكم، وماتت ستي حميدة (في زياراتي لها وأنا بالجامعة، وعندما كانت تراني مهمومًا بالشأن العام كانت تحتج عليَّ قائلة: «يا ابني دا لا أكل ولا شرب، شايل همه ليه؟». وهي جملة تلخص ملمحًا مهمًّا من عقلية الفلاح والمصريين عمومًا، وتعكس السقف الواطئ الذي نعيش تحته كشعب. حلمنا بالغ التواضع، لا يتجاوز لقمة العيش)، ومات سيدي علي، وماتت عمتي سميرة، ولحقت بهم عمتي سيدة ثم زوجها. وبرحيل هؤلاء، انقطعت علاقتي تقريبًا بالبلد. فلم أعد أتردد عليها كثيرًا، بعد أن تغير كل شيء. فالدار آلت لعمي طه وأبنائه بعد أن سدد حصص إخوته. وقطعة الدار قُسِّمت وبيعت ليُبنى عليها مساكن أسمنتية. وكان رحيل عمي طه، الذي لم يُطق طويلًا فراق عمتي محفوظة، الأكثر تأثيرًا فيَّ. فمن عمي طه تعلمت الكثير عن الزراعة في طفولتي. وكان، إلى جانب حذقه لأسرار الزراعة، مرحًا، لا تغيب الابتسامة عن وجهه.

بداية من السبعينيات، نأت بلدنا، شأن كل الريف المصري، بنفسها عن

«حضارة الطين»، وذلك الإيقاع المنضبط للحياة والدائرة المحكمة التي كانت تدور فيها، واختارت «حضارة النفايات». في المرات الأخيرة التي زرت فيها البلد، لم أرَ اللون الأخضر، وأبلغني العالمون، بفخر، أن متر الأرض على الزراعية بلغ ٢٠ ألف جنيه. وغصَّت الزراعية بالمطاعم والمقاهي، بل وأصبح هناك محلات كشري ومقالي لب. دار سيدي نفسها، التي يسكنها عم طه وأولاده، أصبحت بناء من الأسمنت المسلح، مؤلفًا من ثلاثة أدوار، استعنت بالمارة للوصول إليها. لا حيوان هناك ولا طير؛ فالفلاحون الآن يشترون طيورهم من الفرارجي، وتأتيهم مذبوحة ونظيفة. ولا أفران هنالك؛ فالخبز يأتيهم من الفرن الآلي، شأنهم شأن ساكني البندر، وهم سعداء بهذا. أطاح الكاسيت وفرق محترفي الأفراح بأغانيهم الجميلة، التي كانوا يحيون بها أفراحهم ومناسباتهم، بأصواتهم هم. لم يعُد أحد يسمع البنات يغنين: «ع الزراعية يا رب أقابل حبيبي»، «ولا يا ولا يا عرباوي» (كان الناس يؤدون هذه الأغنية بإيقاع مخالف للطريقة التي غناها بها محمد رشدي)، و«عيني منك يا راكب العجلة»، وغيرها. عصر كامل من البراءة والبساطة ذهب إلى غير رجعة.

* * *

علمت فيما بعد أن جدتي وجدي حزنا كثيرًا لرحيلي المفاجئ. وظل المعاصرون لتلك الفترة يذكرونني بتلك الأيام في المرات القليلة التي كنت أنزل فيها البلد، ونعيد معًا تذكُّر تلك الأيام التي ذهبت ولن تعود. كانوا يلمحون، باعتذار، إلى ما عانيت معهم من شقاء لا يليق بابن من أبناء البندر، ذلك الشقاء الذي استعذبته وما زلت. وأدركت فيما بعد، وفي وقت متأخر، أن رحيلي إلى الأماكن النائية والمنعزلة ربما كان بحثًا عن تلك الأيام وعن هؤلاء الناس. ذهبت شمالًا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا. واخترت أماكن ربما أعادت لي تلك الحياة، لكن هيهات.

ولا أدري متى سيقدر لرحلة بحثي أن تنتهي!

يبدو أنني نمت طويلًا، وعميقًا. ففي الليلة السابقة، وبعد وصولنا إلى القاهرة في وقت متأخر، صممت أمي على أن أستحم بماء ساخن وبالليفة والصابونة، حتى أتخلص من القشف الذي طال يدَي وقدمَي. وتخلصَت على الفور من ملابسي التي حضرت بها من هناك، خوفًا من أن تنتقل البراغيث إلى المنزل.

لا بد أنني أخذت وقتًا طويلًا، وأنا أصحو، لأميز أين أنا. مكان جديد، وعالم جديد. شقة بالبدروم بشارع سليمان الحلبي المتفرع من شارع شبرا، وجيران يعمل عائلهم سائقًا لأحد الكبراء. لكن إقامتنا بهذا البيت لم تدم طويلًا، ولا أحتفظ له بذكريات كثيرة باستثناء تلك المرة التي ذهبنا فيها إلى القناطر مع أسرة جارنا بسيارته التي يعمل عليها. كما شهد هذا المنزل أول واقعة نصب أتعرض لها في حياتي في هذه السن المبكرة. فقد أعطاني عمي مسعود، وكان في زيارتنا ذلك اليوم، شلنًا لأشتري له علبة سجائر هوليوود صغيرة (١٠ سجائر). وفي شارع شبرا، على الرصيف المخصص للترام، قابلت رجلًا يسير ساحبًا دراجته. استوقفني الرجل وسألني عن وجهتي، فأخبرته بأنني ذاهب لشراء علبة سجائر. فسألني: «ولماذا لا تشتري من مصنعنا الجديد؟»، وعندما سألته عن مكان هذا المصنع، وصف لي وصفة معقدة، وفي النهاية اقترح أن أنتظره أنا ويذهب هو بالدراجة ليعود سريعًا بعلبة السجائر. لا أدري كيف انتقل الشلن من يدي إلى يده. انتظرت طويلًا، ولما لم يعد أدركت أن الشلن قد ذهب بلا عودة، وأن عليَّ أن أستعد لموجة تأنيب وتعنيف. عُدت أبكي، وثارت ثائرة عمي، الذي أعلن أن اليوم باين من أوله. وكان ينظف سمكًا أحضره معه، فأصاب السكين إصبعه.

الحياة الجديدة في شبرا مصر لها طعم وإيقاع مختلف. أنت هنا محاصر بالمباني، والشوارع ضيقة تخنق البيوت وتحجب عنها الشمس في أوقات كثيرة. أين هذا من الغيطان الخضراء، الواسعة الممتدة، تغرقها الشمس بنورها من الشروق وحتى المغيب، تحتها بشر كادحون، تحنو عليهم أحيانًا وتلهبهم بسياطها أحيانًا أخرى! تضرب بعينيك في أي اتجاه فلا ترى إلا الخضرة. والخضرة درجات، فخضرة البرسيم غير خضرة القطن أو القمح أو الذرة. كما أن الزرع نفسه تتغير خضرته بتغير مراحل حياته، من الفاتح إلى

الداكن. كما أنني افتقدت روائح البلد، دخان الكانون والفرن، روائح الزرع، روائح الروث، رائحة عرق جدي، كلها، وحتى الآن، روائح محببة إلى نفسي. وأين أصوات اللغط اليومي والباعة التي صرت أسمعها هنا من نهيق الحمير وأصوات البهائم وتغريد الطيور بأنواعها، ونقيق الضفادع وصرصار الغيط، وثرثرة جدتي مع نفسها! افتقدت أصوات الطبيعة.

بعد قليل، ولسبب أو لآخر، قررت أمي الانتقال إلى مسكن جديد. كان السكن متاحًا والمعروض من الشقق أكثر من الطلب عليه. لذلك، كان من العادي أن ترى لافتة «للإيجار» بكثرة. وهكذا، انتقلنا إلى شقة بشارع منية السيرج. وكان يسكن الشقة المجاورة أسرة قدِمت من القناطر الخيرية. وقد شهد هذا المنزل أولى تجاربي الجنسية، في هذه السن المبكرة، مع ابنة الجيران، لعبنا «عروسة وعريس». أما تجربتي الثانية في هذه السن، فكانت أكثر سذاجة، بل هي إلى النصب أقرب.

كانت أمي تغيب عن البيت طوال النهار معظم الأحيان. فهي تعمل كي توفر لنا نفقات المعيشة، وتنشط في الوقت نفسه بين أسر السجناء والمعتقلين. انتهزت فرصة هذا الغياب ذات مرة واستدرجت ابنة الخردواتي (الأصح أنها هي التي استدرجتني) الذي يقع دكانه بالقرب من منزلنا. كان أبوها يجمعنا حوله ويطعمنا أم الخلول بالدقة الإسكندراني. كانت الفتاة أكبر مني سنًّا، وجميلة، تقص شعرها ألا جرسون. المهم أن البنت جاءت إلى الشقة، لكنها لم تكن سخية. فهي لم تسمح لي بأكثر من قبلة وحضن. واكتشفت بعد انصرافها اختفاء حلق أمي البلاستيكي، وظللت خائفًا فترة طويلة من أن تكتشف أمي اختفاءه. لكنها لم تعرف الحقيقة إلا بعد زمن طويل حين اعترفت لها ذات مرة ونحن نتبادل الذكريات.

* * *

بعد جهد كبير، نجحت أمي في إلحاقي بمدرسة طارق بن زياد الابتدائية بالمظلات. كان عليَّ أن أدخل الصف الأول من جديد، فلم يعترفوا بالسنة التي قضيتها صوريًّا بمدرسة البلد. مبنى المدرسة ضخم وحوشها واسع مقارنة بمدرسة البلد، الأقرب إلى بيت بحوش. مما أذكر عن هذه المدرسة أنه كانت هناك حصة للألعاب الرياضية، يقوم بتدريسها رجل نحيف وكبير في السن. كان الأستاذ علي ندا، والد توفيق ندا، زميل أبي في العمل السري، هو

مدرس الألعاب. وكان الرجل، على الرغم من سنه الكبيرة، يتمتع بحيوية شاب في العشرين. كان الأستاذ علي يجعلنا نؤدي تمارين اللياقة الصباحية على إيقاع أغنية شعبية قصيرة، يضبط بها إيقاع التمرين. مع رفع اليدين والصعود لأعلى، يغني الأستاذ: «العنكبوت النونو طلع فوق السطح». ومع خفض اليدين للأسفل، يردد الأستاذ علي مع التنغيم: «نزل عليه المطر نزِّله تاني تحت». لم تكن هناك بيوت كثيرة قريبة من مدرستنا في ذلك الحين. كانت هناك عزبة محيي بيه، وهي صغيرة المساحة نسبيًّا وعدد سكانها قليل، وعمومًا لم يكن هناك سبب يجعلنا ندخلها؛ مخزن ترام المظلات؛ الإنكلستوما؛ والنادي اليوناني (نادي إسكو حاليًّا)؛ مدرسة الصنايع؛ ومصنع سنجر لماكينات الخياطة؛ وطعمجي، كان ابنه زميلًا لنا بالمدرسة؛ وبقال.

في تلك الأيام، توزعت إقامتي بين بيت منية السيرج وبيت جدي لأمي في شبرا البلد. بالنسبة لنا في ذلك الحين، كانت شبرا تنقسم إلى قسمين: القسم الحضري الذي تشغله الطبقة الوسطى بالأساس، ويبدأ من نفق شبرا بالقرب من محطة سكك حديد مصر من ناحية وجزيرة بدران من الناحية الأخرى، ويمتد بطول شارع شبرا حتى نهاية خط الترام الذي يُعرف الآن بـ«المظلات». وعندما تعبر كوبري الحلوة الحديدي المقام على ترعة الإسماعيلية تصبح في شبرا البلد التي تعتبر بداية القسم الريفي الفقير من شبرا، ويضم سكان شبرا الأصليين والقادمين من الريف للعمل في مصانع النسيج وغيرها، وينتهي عند سور قصر محمد علي (كلية الزراعة الآن)، وبعد انتهاء سور القصر نجد دمنهور شبرا وشبرا المحطة ثم شبرا الخيمة التي صارت تُعرف بـ«المؤسسة». أما المنطقة ما بعد السكة الحديد، والتي صارت الآن جزءًا من شبرا الخيمة، فكانت عبارة عن أراضٍ زراعية وتضم عددًا من المصانع الخاصة، خاصة النسيج، في بهتيم ومسطرد وسوق الأحد. كانت منطقة خطرة، يُنصح بعدم السير فيها ليلًا بعد أن تعرض أكثر من شخص للقتل والسرقة، منهم أحد أقاربنا أثناء عودته من عمله بعد صرف راتبه.

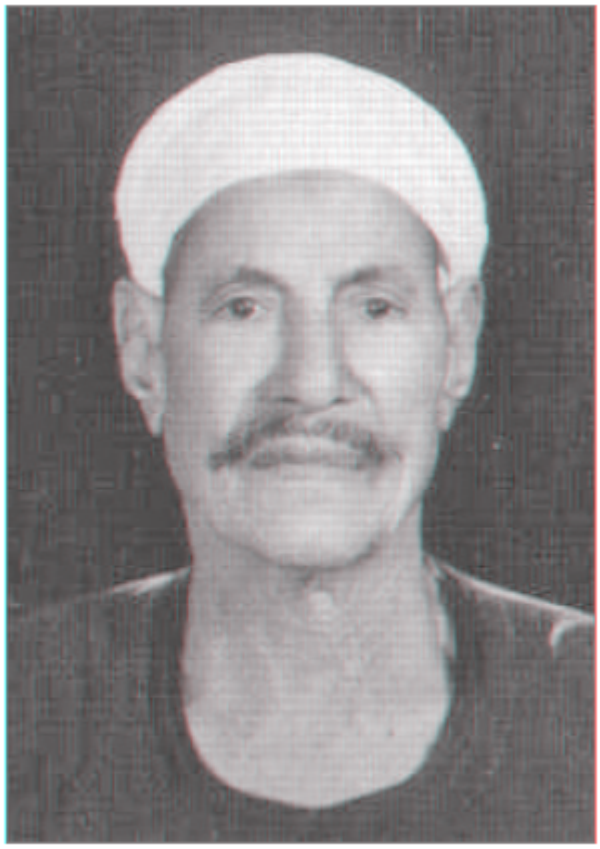

الريس محروس، جدي لأمي

لم يكن بيت جدي بيتًا بالمعنى المعروف. كان جدي (محروس) يعمل رئيس خفر على مجموعة سفن من مخلفات الأسطول الإنجليزي، اشتراها مقاول يُدعى «عطية شنودة»، يبدو أن عمله لم يكن مقصورًا على هذا النشاط وحده. فقد صحبت جدي ذات مرة إلى مكتبه الضخم بمصر الجديدة، وكانت المرة الوحيدة التي أستقل فيها مترو مصر الجديدة أيام مجده. بهجة لا تُنسى. العربات نظيفة، قليلة الركاب، ومقاعدها مريحة والركاب عليهم سيماء الرضا. كانت المرة الأولى التي أكتشف فيها ضوء الفلورسنت، ذا البياض الزهري. فقد كانت لمبات الكهرباء التي نستخدمها في بيوتنا آنذاك تعطي، مع فقر الجدران وألوانها الباهتة، ضوءًا أصفر كابيًا.

كان يعاون جدي في عمله أسرة صعيدية قبطية مكونة من الجد (عم جاد) والابن (عم مِسعِد) وزوجته وولدين، أحدهما أكبر مني (لوقا) والآخر أصغر (سمير). كانت أسرة طيبة، مسالمة، اختارت بوابير البحر سكنًا لها، بينما

فضَّل جدي بناء حجرتين بالطوب الأحمر على نقطة مرتفعة من الجسر. لكن الماء كان يكاد يدخل هاتين الحجرتين في وقت الفيضان، ووقت انحساره كان يترك قاعًا عميقًا من الأرض يشكِّل مسرح الأحداث اليومية. وفيه كان عبد الحميد يمارس عمله في صنع القوارب الصغيرة وألفطتها. كان صعيديًّا داكن البشرة قصير القامة وبشارب كث. لم أعرف له أصلًا ولا كيف جاء إلى هذا المكان. وكان يبيت في البوابير. بعد الانتهاء من بناء القارب يقوم عبد الحميد بألفطته؛ يفتل الكتان ويغمسه في المازوت، ويقوم بسد الفروق بين ألواح الخشب بواسطة الأجنة والقادوم، ليدهن القارب بعد ذلك بالزفت فلا يتسرب إليه الماء. وعلى حافة هذه الوسعاية المنخفضة، كانت تنمو بعض أشجار التوت الأبيض والأسود والأحمر، تلقي بطرحها على الوسعاية.

كان المكان قريبًا من الهويس الذي يتحكم في مدخل ترعة الإسماعيلية (ترعة الحلوة)، يحمي ظهره ويعزله عن شبرا البلد، بحركة أهلها التي لا تنقطع، شركة الكراكات المصرية (كانت تضم عددًا من الفيلَّات المصممة على الطراز الكولونيالي لسكنى المديرين، وتغص بالأشجار النادرة)، وتنتشر في المكان غابة كثيفة من أشجار الكافور المعمرة، الضخمة، السامقة. وهناك جنينة أبو حمدة العامرة بأشجار المانجو، وتفصل بين شركة الكراكات والطريق الرئيسي الذي سيصير فيما بعد الكورنيش (مكانها الآن مبانٍ تابعة لوزارة الري). وبطول جانبَي الجسر الممتد من الهويس وحتى ميناء الطوب القريب من الطريق العمومي، ينتشر نبات الحلفاء وذيل القط وست الحسن بزهورها البنفسجية التي تزين ضفاف النهر صيفًا. تتفتح زهورها بظهور الشمس وبغيابها تغلق أبوابها لحين شمس جديدة. طبيعة بسيطة تسحر الألباب، يشاركنا العيش فيها مجموعة من الكلاب من مختلف الأعمار. وحين وقع العدوان الثلاثي، قررت جدتي (بهية) أن تطلق على الكلاب أسماء الأعداء. فكان عندنا بن جوريون وإيدن، ولما لم تجد ذكرًا تطلق عليه اسم وزير الخارجية الأمريكي، أطلقت على إحدى الإناث اسم «دالاسة»، مؤنث دالاس. ولا يعني هذا أن جدتي كانت تهتم بالسياسة أو تتحدث فيها، لكنه كان على ما يبدو شعورًا عامًّا سائدًا. أو ربما انتقل إليها من أقاربها في شبرا أو عن طريق جدي الذي كان يذهب صباحًا إلى المقهى، يشرب الشاي والمِعسل ويستمع إلى نشرة الأخبار. كنت أصحبه أحيانًا، فيطلب لي كوبًا من

اللبن وعشرين كحكة بقرش أبيض، أي بخمسة مليمات، وهي عبارة عن كعكة مستطيلة مكونة من عشرين دائرة صغيرة.

وبينما اكتفت أسرة عم جاد براتبها من الخفارة، كان جدي يزيد دخله بالصيد إلى جانب عمله. أو يمكنك أن تقول إن هذا النوع من الخفارة لم يكن عملًا بالمعنى المعروف. فمن سيسرق وابور بحر كُهنة؟ هذا بالإضافة إلى أمان حصل عليه جدي من أولاد أبو دومة، قراصنة النيل آنذاك. كانوا يسرقون ماكينات الري وغيرها من ممتلكات أصحاب قمائن الطوب أو قاطني جزيرة الوراق المواجهة، ثم يعيدونها نظير حلوان. كان علي أبو دومة ذا وجه صلب منحوت وملامح محايدة، قليل الكلام، نادر الابتسام. كنت أراه وهو يشرب الشاي مع جدي من وقت لآخر ويتبادلان أحاديث هامسة. كان جدي على ما يبدو الواسطة بين الناس وبينه لإعادة المسروقات.

بهية، جدتي لأمي

(عندما عملت بجريدة «العمال» في الستينيات، تذكرت «عمال العصفور» الذين كانوا ينقلون الطوب من المراكب إلى البر على ذلك النوع من الألواح الخشبية المربوطة بظهورهم التي يطلق عليها «العصفور»، قررت عمل تحقيق عنهم لأنهم كانوا يشكلون ظاهرة غريبة. فهم غالبًا من الهاربين من الصعيد بسبب الثأر أو من جرائم ارتكبوها. كانت حياتهم صعبة وغريبة، فهم ممنوع عليهم الاختلاط بأهل الجزيرة أو الزواج منهم، وكان ينتشر بينهم نوع من الأمراض الجلدية لا علاج له إلا في مستشفى هرمل. وحتى الستينيات

كانت هذه الجزيرة تعيش عزلة شبه كاملة، إلى درجة أنني عندما ذهبت هناك للقاء الأهالي ومناقشة الموضوع معهم، جاءت جلستي بجوار رجل طاعن في السن، انتهز أول فرصة ليسألني بصوت خفيض عن صحة مولانا الملك وأجبته أنه بخير. لم يكن كثيرون هناك يدركون أن ثورة قامت وأن ملكًا رحل).

عندما كان يأتي الفيضان ويتغير لون النيل إلى البني، يحمل جدي شبكته ليلًا ويطرحها من فوق الهويس عند عيونه من جهة الترعة الحلوة، فتخرج ملآنة بأسماك البلطي والبياض وقشر البياض والشيلان، وغيرها من خيرات النهر. ذات مرة اصطحبني معه، وليلتها اصطاد جدي عددًا كبيرًا من أسماك الشيلان، باعه في الصباح بسبعين قرشًا، وهو مبلغ لو تعلمون كبير وقتها. ومكافأة لي، لأن وشي كان حلو عليه، أعطاني سمكة من نوع الرعاش أو الرعاد، وهي سمكة نادرة تصدر شحنات كهربائية شديدة عند الإمساك بها. بعتها يومها في حلقة السمك بقرشين ونصف القرش. لكن هذا التصرف أغضب أمي لأنها كانت تريد أن تطبخ عليها ملوخية، وهو تقليد كان شائعًا بين صيادي النيل لدسامة هذا النوع من السمك.

وكان بر الترعة الحلوة القريبة مرتعًا آخر من مراتع الصيد بالنسبة لجدي في هذا الوقت من العام. لكنه كان يصطاد هناك بالشبكة الزردة، أي الضيقة الفتحات، نهارًا. ينثر بعض الرَّدة على السطح فتخرج أسراب البسارية والراية الفضية بذيلها الأحمر، فيلقي جدي بشبكته فوقها ويخرجها ملآنة. تتحلق النساء حوله، ويتراوح الفصال بين قرش وقرش ونصف للرطل. أما ما يتبقى، وهو كثير، فيذهب إلى جدتي التي تتولى تنظيفه وتتبيله، ويُقلى على هيئة كفوف، كل خمس سمكات ملتصقة بالدقيق من ذيلها. وتمتلئ مشنة بهذه الكفوف التي تُلتهم كما هي، برأسها وشوكها، طعامًا لذيذًا مع الأرز أو الخبز. وكان البعض يقوم بتخليله كنوع من الملوحة.

* * *

في تلك الفترة، ولتقليل النفقات، اضطررنا لترك شقة منية السيرج وانتقلنا للعيش في منزل لأحد أقاربنا، قريبًا من سكن جدي، على الجسر في شبرا (الكورنيش الآن). وهو غير بعيد أيضًا عن المنزل الذي ولدت فيه بالسوق الكبير (بيت هَنا). كان البيت الجديد من الطين، تشعر بأرضيته وهي تهتز تحت قدميك مع أقل حركة، والسلم الذي يقود إلى غرفتنا في الطابق العلوي

طيني وبدون سور. وتوزع وقتي بين هذا البيت وبيت جدي على البحر (البحر هو الاسم المعتمد للنيل في عائلتنا، وعند كثيرين من سكان القاهرة القريبين منه. وحتى وفاتها، كانت أمي تقول سمك بحاري، وهي تقصد السمك النيلي). وفي هذه الفترة، اتسع ملعبي بشكل غير مسبوق. فقد عرفت في هذه السن المبكرة التزويغ من المدرسة.

كان مدرس اللغة العربية بالمدرسة معممًا. وكان يتبع طريقة شائعة وقتها لمعاقبة المخالفين؛ الضرب بحافة المسطرة على عظم الأصابع من الظهر. كانت حصة العربي هي الأولى، أي في الصباح الباكر. ومع برد الشتاء كانت هذه الطريقة تسبب ألمًا فظيعًا. لذلك، عندما اكتملت كراسة الإنشاء وطُلب مني إحضار أخرى جديدة، خشيت أن أبلغ أمي بهذا الطلب المكلف. وكان البديل المتاح هو الغياب يوم الأحد من كل أسبوع. فساءت الأمور، واضطررت بعدها إلى الانقطاع شبه الدائم عن المدرسة، والخروج يوميًّا في موعد المدرسة إلى مراتع المهيصة والعودة مع موعد انتهاء الدراسة.

كان رفيقي في التزويغ زميلًا في الفصل اسمه «ضياء». كنا نركب ترام رقم ٧ من الشمال، نندس بين أرجل الركاب، فلا يرانا الكمساري، أو يتغاضى عن رؤيتنا. ومن موقعنا، نتفرج على معالم القاهرة بمحلاتها ومبانيها وناسها، حتى ينتهي بنا المطاف في السيدة زينب. وفي السيدة، ندور على أهل الريف الذين جاءوا للوفاء بالنذور، ونتلقى ساندويتشات الفول النابت واللفت المخلل، وقد يحالفنا الحظ في بعض الأحيان برغيف لحم من نذر لأحد الموسرين. وبعد أن نلتهم الساندويتشات تبدأ رحلة التسكع والمغامرات في حواري السيدة ونواحيها. نجول في شوارع السد وعلي زين العابدين والناصرية والحواري المتفرعة منها، ندور على فرشات الباعة العامرة بألوان الخضراوات والفاكهة، المرصوصة بحرفنة فنان، متعة للنظر وتحفيزًا على الشراء، وباعة فواكه اللحوم الذين كانوا ينتشرون هناك، وباعة الجبن بأنواعه (قريش، حلوم، قديمة)، وسنَّاني السلاح المتجولين، باعة لكل شيء تقريبًا، وحالة من الحيوية والنشاط والتودد للمشتري نفتقدها كثيرًا في زمننا. وأحيانًا كنا ننضم لغيرنا من التلاميذ المزوغين، نطارد بعضنا بلا هدف. وعندما يقترب موعد انتهاء اليوم الدراسي، نعود مثلما ذهبنا. في مرات قليلة، تعرضنا للضرب أو المطاردة على يد محصل مجتهد أو راكب حريص على أموال

الدولة! أو عندما يقوم طفل شقي بسحب السنجة فيفصل الكهرباء ويتوقف الترام. فالمحصل يصب جام غضبه ساعتها على أي طفل يقابله، باعتباره ممثلًا لجنس الأطفال.

الشعبطة في الترام من جهة اليسار هربًا من الكمساري

أما حين كان يتوفر لكل منا قرش صحيح، فكنا نذهب إلى السينما. كان بساحل روض الفرج أربع دور للسينما تقدم أربع أفلام في بروجرام واحد، بتسعة مليمات، حتى تفلت من الضرائب، لأن القانون وقتها كان يعفي المعاملات التي تقل عن القرش بينما لا يرد لك باقي القرش. أذكر من هذه السينمات: النصر وفلوريدا وألف ليلة. ندخل العاشرة صباحًا تقريبًا ونخرج قرب العصر. من الأفلام التي شاهدتها هناك أتذكر: «وداع في الفجر» بطولة شادية وكمال الشناوي، و«أرضنا الخضراء» بطولة شكري سرحان، و«القرصان الأحمر» بطولة بيرت لانكستر. لكن هذه الغزوات السينمائية

توقفت فجأة. فذات مرة، وكنت عائدًا من السينما، وجدت الطعام معدًّا فوق الطبلية وأمي متحفزة وبيدها ورقة صغيرة. انتظرَت أمي حتى تربعت أمام الطبلية ثم سألتني: «أين كنت؟». أجبت بلا تردد: «في المدرسة طبعًا». قالت: «خذ اقرأ». فوجئت بخطاب من المدرسة: «أفيدونا عن سبب تغيب نجلكم لمدة ٣٦ يومًا...». وقبل أن أتم القراءة فوجئت بصفعة قوية على وجهي، طرت بعدها إلى الشارع بعد أن أطحت في طريقي بكوز الماء. ولم أجد ملجأً سوى بيت جدي، حيث حضرت أمي بعد قليل وبيدها الخطاب الفضيحة. وبعد أن نجح جدي في تهدئتها، ذهبت معها لتبدأ في اليوم التالي رحلة مناهدة ومعاناة مع المدرسة لقبول عودتي بعد التعهد بعدم تكرار فعلتي مرة أخرى.

هكذا قضيت مرحلة التعليم الأساسي. دراسة غير منتظمة يقطعها دائمًا الغياب لسبب أو لآخر. ففي الصف السادس غبت ٤٠ يومًا، لكن بسبب المرض هذه المرة. وقد اضطرت أمي لإدخالي مدرسة العهد الجديد الإعدادية الخاصة، وبمصاريف ١٧ جنيهًا في العام على قسطين، لأن مجموعي جاء دون المستوى في امتحان القبول. كانت أمي امرأة متحدية، قوية الإرادة، وكانت تريد أن تثبت للجميع أنها قادرة على أي شيء وكل شيء، وأن تثبت قبل كل شيء أن غياب زوجها لم يؤثر في حياتنا. فقد تقاعس أهل أبي عن مساعدتها في هذا الموقف، أو ربما لم تسمح إمكانياتهم بهذا، لكنها صممت على أن أتم تعليمي بأي ثمن. كان العناد والتحدي جزءًا أصيلًا في طبعها. فرضت عليها الظروف التي مرت بها طابعًا رجوليًّا واضحًا. وهذا ما لاحظته على كثير من زوجات المناضلين في تلك الفترة. فقد كانت زوجات رفاق أبي من السجناء يترددن على منزلنا لتنسيق الجهود وتنظيم الزيارات. ما زلت أذكر منهن أم فاروق، زوجة فكري الخولي، عامل النسيج ومؤلف رواية «الرحلة» (قرأت هذه الرواية من نسخة السجن قبل صدورها، وكان عم فكري قد أرسلها إلى أبي، ثم قرأتها مرة أخرى مسلسلة في جريدة «العمال» تحت عنوان «حلاوة زمان»، وصدرت منها أيضًا طبعة من «دار الكرمة»)؛ وكوريا، زوجة سيد ترك، أحد زعماء حدتو؛ وأم محمد عثمان التي اختفى ابنها في مباحث طنطا ولم يُعثر له على أثر. كانت تأتي لتنسق مع أمي رحلات البحث عن ابنها في متاهات وزارة الداخلية.

* * *

المدرسة الإعدادية كانت مختلفة كثيرًا عن الابتدائية. التلاميذ تبدو على وجوههم النعمة. في الفسحة، كانت رائحة الساندويتشات، خاصة ساندويتشات المرتدلة التي يحضرها زملاؤنا المسيحيون، تفوح في المكان وتثير اللعاب (بالمناسبة، كانت هناك أسر فقيرة تتناول لحم الخنزير سرًّا لرخص ثمنه). الأهم أن المخلة الدمور ببقعها الزيتية اختفت. فالمدارس الخاصة كانت في العادة للفاشلين من أبناء الأغنياء القادرين على دفع المصروفات. مما أذكره أن أحد زملائنا كان ابن عمدة وكان أكبر منا كثيرًا ومتزوجًا ويعاني من جحوظ في إحدى عينيه. لكننا، كتلاميذ وفي هذه السن، لم نشعر بأي فوارق فيما بيننا. كانت المدرسة أقرب إلى فيلَّا كبيرة وحوش صغير. وكانت، في هذا الزمن، تضم معملًا للتدريب العملي للتلاميذ. وذات يوم قرر مدرس العلوم أن يجري أمامنا تجربة استخراج الكحول من العسل الأسود المخمر. وتمت التجربة بنجاح، ولكي يخرس الأستاذ أي تشكيك في التجربة مستقبلًا، اختار عددًا منا وأعطى كل تلميذ أنبوبة ليشرب محتواها من الكحول المستخرج لنتأكد بأنفسنا. وسكر البعض، ودخلنا في حالة من الهرج والمرج والضحك الهستيري انتابت الجميع، استدعت حضور الأستاذ صمويل، مسؤول الانضباط المرعب في المدرسة. وانتهى اليوم بتوجهي مع زميل آخر لتوصيل زميلنا عبد الحميد، وهو سكران وغير قادر على حفظ توازنه، إلى منزله. وحاولنا تقديم مبررات بعيدة عن المدرسة حتى لا نوقع المدرس في إشكال. وبناء عليه، كلما سأل أحدهم عبد الحميد عما جرى، كان يرد بجملة واحدة: «أصلي كلت كشري بالسمسم»، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء لا تتغير. كان الأستاذ حسني زخاري المالك الرسمي للمدرسة ونراه من حين لآخر، أما الدينامو الحقيقي للمدرسة فكان والده، عم زخاري. وهو رجل قصير القامة، متجهم دومًا وحاسم، يعاونه فراش، اسمه لبيب، يجيد عبط التلاميذ لتلقي العقاب بالعصا على مؤخراتهم.

كان حوش المدرسة ضيقًا، يزدحم بصورة كبيرة أثناء الطوابير، أما في الفسحة فيصبح أقرب إلى السوق. وذات مرة، قررت تسلق الشجرة الوحيدة بالحوش، هربًا من مطاردة زملائي ونحن نلعب. لكني سقطت من فوق الشجرة، وغادرت المدرسة بذراع مصابة. أمي في مثل هذه المواقف لا تبدي

شفقة ولا تجزع. عجلت بلف ملاءتها وسحبتني من يدي وتوجهنا إلى حيث برسومة المجبراتي، أشهر معالج عظام لم يتخرج من كلية الطب. كان ملجأ المصابين، وبالذات الفقراء منهم، ذاع صيته، وقيل إن أطباء العظام كانوا يستشيرونه. عيادة الرجل تحتل الدور الثاني في عمارة قديمة من عمارات الفجالة، وعامرة بالمصابين الذين جاءوا طلبًا للشفاء على يد أيقونة هذا التخصص. صعدت سلالم البيت العالية وأنا أتألم مما أصاب ذراعي. وعندما جاء دورنا دخلت مع أمي، حيث استقبلنا الرجل بهدوء محايد، وشرحت أمي له ما حدث، وهز رأسه ليؤكد أنه فهم المسألة. وأثناء الحديث، غافلني الرجل وقام برد الكسر بعنف جعلني أتألم بشدة وأسبه: «يا ابن الكلب». ورد: «كلب يلهفك». وواصل تجبيس ذراعي، وأخبرنا بأن الجبس سيبقى لمدة ثلاثة أسابيع.

كما شهد هذا الحوش أيضًا واقعة أخرى ترتب عليها طردي من المدرسة لمدة أسبوع مع زميل آخر وإحضار ولي الأمر. كان فصلنا، ثالثة أول، أول من يغادر الطابور إلى الفصل. وفي ذلك اليوم، بدأنا هزارنا الثقيل بمجرد صعودنا إلى الفصل، والذي وصل إلى حد أنني قذفت زميلي بسلة مهملات خشبية ثقيلة، فتفاداها ونزلت من الشباك إلى أرض الطابور لتصيب أستاذ الألعاب المفتول العضلات الشرس في رأسه. وعلى الفور ظهر الأستاذ صمويل ليحقق فيما حدث فأنكرنا علمنا بأي شيء. وظللنا على موقفنا من الإنكار حتى تبرع طالب من زملائنا للذهاب إلى الأستاذ صمويل وإبلاغه بأن طالبًا من ثالثة ثاني هو الذي فعل هذا. لكن بعد خروجه بدقائق عاد الأستاذ صمويل ونادى على اسمي واسم الزميل الثاني، ففهمنا أن ذلك الزميل وشى بنا. وقررت إدارة المدرسة رفدي مع زميلي لمدة أسبوع وإحضار ولي الأمر. وأصبحت في موقف لا أُحسد عليه. أخفيت الأمر عن أبي وأمي، وكنت أخرج يوميًّا في ميعاد المدرسة وأعود في موعد الانصراف، أتسكع على الكورنيش أو أنضم للمزوغين ممن أعرف، ومنهم تعلمت القمار. أتقنت اللعب إلى درجة أنني في إحدى المرات، ظللت ألعب مع زُعرُج الكومي، وانتهى اللعب بأن كسبت منه عشرة قروش كاملة، علمًا بأننا كنا نلعب الدور بنصف قرش، ولك أن تتخيل مقدار الوقت الذي أنفقناه في اللعب. وبعد عودتي إلى المنزل بقليل، فوجئت بأم زُعرُج، ساحبة خلفها هذا الشحط لتشكوني إلى أمي

وتحاول استعادة النقود. وقد نجحت في مهمتها بسبب استنكار أمي لما فعلت. وحتى يزداد الطين بلة، ظهر في هذه اللحظة عبد الحميد، زميلي بالفصل، ومعه خطاب المدرسة بفصلي لمدة أسبوع والتنبيه بضرورة حضور ولي الأمر. صُعقت أمي وأبي الذي خرج من السجن مؤخرًا. مصيبة في ذيل مصيبة، لكن وجود عبد الحميد حال دون عقابي العاجل، بحماسته وعنفوانه، وأجَّله حتى انصرافه بعد أن هدأت أعصابهما، وأدركا عدم جدوى التأنيب أو حتى الضرب. ورافقني أبي في اليوم التالي إلى المدرسة، وبعد علقة من عصا عم زخاري وتأنيب لأبي عدت إلى الفصل، وسط استقبال حافل من الزملاء.

في هذه المدرسة الإعدادية كان تعرفي الأول على النظرة المعادية للشيوعية. فقد نشأت في بيتنا على أن أبي رجل شيوعي، يعني بطل وزعيم يدافع عن حقوق الآخرين المقهورين. وكان الجيران ينظرون إلى أمي باحترام خاص ويتعاطفون معها باعتبارها ست جدعة وبنت بلد سترت غيبة زوجها، ويساعدونها حتى في مواجهة البوليس. أما في المدرسة فقد فوجئت بمدرس اللغة العربية يلقننا أن من يبلغ سن الستين في الاتحاد السوفيتي يطلقون عليه النار، انطلاقًا من القاعدة الشيوعية «من لا يعمل لا يأكل»! وأن الشيوعيين لهم ذيول والعياذ بالله، وهو ما أربكني في هذه السن أشد الإرباك. لكن نفس هذا المدرس هو الذي حدثنا بعد ذلك عن الرجل الذي يبيع المَنِي في خرقة، تضعها النساء ممن لا يحملن في مهابلهن فيحملن! وهي خرافات اكتشفت كذبها فيما بعد.

* * *

خرج أبي من السجن ونحن نقطن المنزل ٢١ شارع رقم ٦، وكان يعرف أيضًا بقناية الزلط، وهو الشارع الموجود خلف قصر محمد علي (كلية زراعة عين شمس الآن) من جهة شبرا البلد. كان المسكن عبارة عن حجرة في شقة بالدور الأرضي تضم حجرتين أخريين، في إحداهما أسرة عسكري شرطة، أطلق على بناته أسماء أمم وجمهورية وولايات. ويقوم بإصلاح الساعات في غير أوقات العمل. وبالأخرى أسرة جاءت مع عائلها من المنوفية للعمل بأحد مصانع النسيج المنتشرة بشبرا الخيمة. وكان الحمَّام مشتركًا بيننا وبين أفراد هاتين الأسرتين. ولأن البيت كان قريبًا من النيل، فقد

أصاب النشع والرطوبة جدرانه التي غُطيت بطبقة من الملح حتى السقف. وهو ما أصابني بروماتيزم المفاصل (وفي هذا البيت، ماتت أختي الصغرى بالدفتيريا، وسأكتشف فيما بعد إصابة أحد صمامات قلبي). لكن هذا المنزل كانت له ميزة ليست في غيره من معظم البيوت المجاورة؛ كان في صحنه طلمبة تمدنا وجيراننا بالمياه الجوفية النقية.

كان الشارع مأوانا وملعبنا الأثير في تلك الفترة. كنا لا ندخل بيوتنا إلا للأكل أو النوم. فمساكننا ضيقة، متقشفة، وعارية من أي مظهر من مظاهر الترفيه. أما الشارع ففيه متسع للجميع. كان الشارع أمانًا. وكنا كلنا تقريبًا متساوين («زي فراخ الجمعية» حسب تعبير أمي)؛ لم يكن أبو أي منا قد سافر بعد إلى الخليج أو إلى أي مكان آخر. يُخيل إليَّ الآن أن أحدًا منهم لم يكن عنده قرش أزيد من الآخر (ربما كان هذا سببًا للرضا النسبي الذي كان الناس ينعمون به، على الرغم من الفقر؛ السبب الآخر في اعتقادي أننا كنا نعيش في مجتمعات كبيرة شبه مغلقة. فأهل شبرا في شبرا لا يبرحونها إلا فيما ندر، وكذلك الأحياء الأخرى، فيظل حيك هو مرجعيتك، ولا تطلعات هنالك). كنا نلعب الكرة الشراب أو السبع طوبات أو الكلب الحيران. وكانت كل ألعابنا من صنع أيدينا، ما عدا البِلي والنحلة التي كنا نشتريها من مصروفنا. كنا نجمع أغطية المياه الغازية نصنع منها عجلات بعد ثقبها وجمعها بالأستك وتدعيمها ببكرة خيط، أو نفرد هذه الأغطية ونشكلها على هيئة كراسي وترابيزات صغيرة. كما كنا نجمع علب السجائر الفارغة ونستخلص منها كروتًا متساوية، كنا نسميها «الشيك»، نستخدمها كبديل للنقود في لعب الكوتشينة. بل إن واحدًا منا على الأقل كان يصنع الاسكوتر بالاستعانة بالخشب ورولمان البلي المستعمل.

وكان ظهر قصر محمد علي المواجه للبيوت هو المكان المخصص لإلقاء القمامة ومياه الغسيل، وهو ما حوَّل المكان بمرور الوقت إلى مرتع للذباب والديدان والعصافير. وكان بصورته هذه مكانًا نموذجيًّا لصيد هذه العصافير. ننصب الفخاخ ونزودها بالدود أو الأرز فوق أكوام القمامة وننتظر بعيدًا حتى يقع العصفور في الفخ. وكان محمد شفيق، من دوننا، يصنع فخاخه بيديه، وكان يجيد أيضًا صنع النبلة أفضل من الجاهزة وأكثر متانة وكفاءة.

وفي الصيف، كانت هذه الساحة المواجهة للبيوت تتحول إلى سوق جملة للتين الشوكي. تحضر عربات النقل الكبيرة محملة بأقفاص التين، فتجد في

انتظارها عربات اليد الصغيرة. وتبدأ عمليات تنزيل الأقفاص، بعدها تتخذ كل عربة لنفسها مكانًا ويبدأ البائع في رص بضاعته وتنسيقها. وفي هذه المرحلة يأتي دورنا في خطف أو سرقة عدد من أكواز التين يعقبها مطاردات من بعض الباعة. وكانت آثار هذه السرقات تظهر عند النوم، حيث تبدأ في الظهور آثار الشوك الدقيق الذي نسيناه في غمرة المطاردات ثم الاستمتاع بالحصيلة. لذلك قرر البعض منا بعد حين اللجوء إلى طريقة أقل معاناة. تفتَّق ذهن هذا البعض عن هذه الحيلة: بعد أن يرص البائع بضاعته، يتسلل فرد منا محتميًا برقابة ناضورجية من بيننا لفك المسمار الذي يثبت العجلة بالعربة، وعندما يبدأ البائع في دفع العربة تنفصل العجلة وتتبعثر محتويات العربة على الأرض. وهنا، تبدأ المساومة بين البائع وواحد منا يتدخل باعتباره وسيطًا لرد المسمار والحصول على الحلاوة. وبعد إتمام الاتفاق يتوجه أحدنا لإحضار المسمار المخبأ في حوض طلمبة المياه ورده لصاحبه مقابل عدد من ثمار التين. لم تكن مواسير المياه العذبة والصرف الصحي قد دخلت منطقتنا بعد، وكنا نعتمد على الطلمبات أو النيل القريب للحصول على الماء النقي، ونصرف فضلاتنا في طرنشات أمام البيوت يتوجب كسحها كلما قاربت على الامتلاء. ولذلك، كنت تجد لبيوتنا رائحة كريهة، يلحظها الغريب فقط بعد أن اعتدناها ولم نعد نلحظها. وكان المنوط بهما عملية الكسح واحدًا اسمه «هندوم» والآخر «مرسي». هندوم جاد وكبير في السن، أما مرسي فشاب، يرفع الدلوين بعصا يوسطنها فوق كتفه، ويحلو له دائمًا أن يغني، وهو يحمل حمولته من فضلات البشر، أغاني فايزة أحمد. وكلاهما يدلدق المحتويات في طريقه، حتى إذا وصل إلى المكان الذي يلقي فيه حمولته تكون قد فرغت ونشرت في الطريق روائحها المميزة.

لم يكن أي حي من أحياء القاهرة تقريبًا يخلو من فريق للكرة الشراب. وكانت هناك ساحات معروفة، يجري فيها تنظيم الدوريات بين فرق الأحياء، كان أشهرها ساحة أحمد حلمي خلف محطة مصر. وكانت لنا ساحتنا التي ننظم فيها المسابقات بين فِرق الأحياء. كانت الساحة هي الميدان الكائن أمام البوابة الرئيسية لقصر محمد علي، ويتولى تنظيم الدوري صاحب مكتبة تطل على هذا المكان، اسمه «السني»، ولم يكن يلعب الكرة لإصابة في قدمه تجعله يظلع أثناء السير. وكانت هناك الكثير من الفرق التي تحمل اسم

«الأسد المرعب». أما كابتن فريقنا فكان سعيد بلوظة، وكان يرى نفسه صالح سليم، ويدَّعي الإصابة عند أدنى احتكاك به. كان حلاقًا قليل العمل أو عاطلًا في معظم الأوقات. وكنت أنا وأخي كثيرًا ما نتسلل عبر شباك غرفتنا، نسرق له الخبز الجاف في غياب أمي. وذات مرة، جمعنا له مبلغًا من المال لشراء أدوات حلاقة، واخترنا مكانًا أمام سور القصر، ومثَّل بعضنا دور الزبائن؛ في محاولة لجلب الزبائن الحقيقيين.

كثيرًا ما كانت الكرة تضل طريقها إلى داخل قصر الباشا. وكان لا بد من مجازفة أحدنا بارتقاء السور العالي والقفز داخل القصر لإحضار الكرة. وفي بعض هذه المرات كان هذا الأحد يتسلل إلى أشجار المانجو والممبوزيا (فاكهة بالكريز أشبه، لكن بذرتها طرية تشغل معظم حجمها، فلا يبقى منها سوى طبقة رقيقة حلوة بمزازة. ولم يعد من أشجارها سوى القليل، ولا يزال البعض منها في حديقة الحرية، ترمي بطرحها على أسوار الحديقة، ويدوسه المارة بلا مبالاة أو معرفة. وبالمصادفة، وجدت شجرة منها بمستشفى الشيخ زايد التخصصي، وهو بناء جديد، وتعجبت لهذا) طمعًا في بعض الثمار. وهي مجازفة قد توقع صاحبها في يد أحد رجال المتعهد الذي رسا عليه مزاد الحديقة ذلك العام. كان هذا المتعهد يضع نظامًا لمن يريد أن يستمتع بالثمار: ادفع ٥ مليمات على البوابة ومن حقك بعد ذلك تناول ما لذ لك وطاب من المانجو والممبوزيا، بشرط ألا تخرج بشيء من هذه الثمار. وطبعًا كنا نحتال بكل الطرق كي لا ندفع هذا المبلغ الذي يمكن أن تشتري به وقتها جبنًا لاثنين (عندما كانت ترسلني أمي لشراء جبن بقرش كانت تحرص على أن توصيني بأن أخبر البائع بأن يعطيني كل بنصف قرش لوحده «عشان يتوصى». وكان من الأوامر أو النصائح الشائعة على لسان الأمهات على طبلية الطعام: «ما تحفِّش واعمل حساب إخواتك»). وعمومًا كان الناس طيبين. فإن أمسك بك رجل المتعهد فهو سيوبخك ثم يهددك ثم يتركك لحالك بعد وعد كاذب بعدم تكرار فعلتك.

قليلون من رفاق الصبا من التحقوا بالمدارس، والأقل من أكمل تعليمه. وربما كنت وأخي الأصغر الوحيدين اللذين أكملا تعليمهما من بين رفاق الصبا. كان من بين هؤلاء الرفاق بلطة وكتكوت والجو والصناديلي وشُقرف وشَكَل، وهي أسماء توحي بالشقاوة وبمصير أصحابها. الجوُّ مات غريقًا بالنيل،

وكتكوت وقع من فوق النخلة ومات. أما شُقرف فقد قابلته وأنا في الجامعة وكان يدير كشكًا أعطته له الحكومة بعد عقوبة قضاها في السجن، لكن من الواضح أنه كان يستغله في أنشطة غير مشروعة. خرجت ذات مرة مع هؤلاء الرفاق للسرقة، ولا أتذكر من كان يقودنا يومها. المهم أننا ذهبنا للسرقة في منطقة قريبة من منية السيرج، وأُوكل إليَّ أمر المراقبة (ناضورجي) ولا أتذكر ما الذي كنا نسعى لسرقته يومها. لكن أثناء خدمتي اقترب مني رجل يحمل سلة، فارتعد بدني، وكنت مستعدًّا للاعتراف بكل شيء. لكن الرجل لم يفعل أكثر من أن طلب مني توصيل السلة التي يحملها إلى بيته، نفحني بعدها خمسة مليمات. فحمدت الله على النجاة والنقود، وعدت أبحث عن الرفاق فلم أجدهم وعدت إلى البيت وحدي.

على أن شقاوتنا كانت تصل أحيانًا حد الخطر. ففي إحدى الليالي قرر محمد الدغيدي أن نفعل شيئًا مختلفًا. اتفقنا على أن نغير ملامحنا ونخض من يقع في طريقنا. وهكذا ذهبنا إلى بيته واستخرجنا من مخبآته طربوشًا غريب الشكل. ثم تفتق ذهن محمد أن أطلي وجهي بسناج وابور الجاز وأمسك بسكين إمعانًا في التخويف. وبعد أن أتم الدغيدي عمله نظرت إلى وجهي في المرآة وجدت ملامحي مفزعة كما تمنيت، وأن أحدًا لن يعرفني وستتحقق المفاجأة حتمًا. ووقع اختياري على بيت الشيمي (أقارب لنا من ناحية أمي وممن ساعدونا كثيرًا في غياب أبي). رننت جرس الباب وجثوت على الأرض ممسكًا بالسكين في وضع الانقضاض. بعد قليل انفتح الباب لأجد أمامي يوسف المسكين. استطلت واقفًا بالتدريج وأنا أوجه السكين إلى وجهه وأطلقت صيحة عظيمة. اتخض الطفل المسكين، وعلى إثر صرخته خرج خلفي رجال البيت ليمسكوا بي. لم يكونوا يعرفون من الذي فعلها، فيوسف أصابه إغماء. لكنهم عرفوا هوية الجاني من أخي الذي ظنوه الفاعل في البداية، ولكي يفلت من أيديهم اضطر للاعتراف بالحقيقة. وهربت إلى الحِوَز، أبحث عن ملجأ في مساربها (كانت الحِوَز أرض حكر، ثم أصبحت حيًّا عشوائيًّا استقر مع الزمن، وصار أهله جزءًا أصيلًا من سكان شبرا البلد. وكان على مدخلها منزل الشيخ سعيد رمضان، وهو مقرئ ذائع الصيت وقتها، يرتل في إذاعة السعودية، وينبعث من بيته دائمًا صوت البيانو. كان رجلًا ضخم البنية، داكن البشرة، سمح الوجه. عثرت على تسجيلات بصوته من إنتاج شركة

القاهرة للصوتيات والمرئيات فيما بعد. وبجوار بيت الشيخ سعيد كانت فيلّا فهيم رجب، وهو مليونير عصامي يملك مصنعًا قريبًا من هذا البيت ناحية الكورنيش). وبعد فترة مات يوسف، لكنني ظللت طويلًا أشعر بالمسؤولية عن موته، على الرغم من تأكيد أمي بأنه مات بعد مدة طويلة من هذه الواقعة ولأسباب أخرى.

* * *

منذ أن رُحِّل أبي إلى سجن الواحات لقضاء مدة عقوبته، لم تزره أمي سوى مرة واحدة، لمشقة الرحلة وتكاليفها المادية، ولصعوبة إجراءات الزيارة، إلى جانب مشاغلها اليومية. لكن أمي استطاعت ذات يوم الحصول على تصريح بالزيارة واستمارة سفر مجانية من أحد أقاربها يعمل بالسكة الحديد. كانت الرحلة، كما حكت لي بعد ذلك، مضنية وشاقة وصادفتها صعاب كثيرة، إذ كان عليها أن تستقل القطار من القاهرة إلى أسيوط، على خط مفرد معظم المسافة، وهو ما يضطر القطار إلى التوقف والانتظار أكثر من مرة ليعبر القطار القادم من الاتجاه المعاكس. وكان القطار يتوقف لسبب آخر، عندما تطمر الرمال السكة ويُضطرون إلى إزاحة الرمال بالمعاول قبل أن يتمكن القطار من استئناف رحلته. ومن أسيوط، تستقل مواصلة أخرى في صحراء جرداء ليلًا حتى تصل إلى الواحات. ثم من هناك، تبدأ رحلة أخرى إلى السجن بالسيارة. أضف إلى هذا أن أمي اصطحبت معها أختي الصغيرة (ثلاث سنوات تقريبًا)، التي توفيت بعد ذلك بالدفتيريا.

أبي وأمي في الأربعينيات

عن سجن الواحات والطريق إليه، قرأت المقطع التالي:

أسسه الجيش البريطاني الكولونيالي في بدايات الحرب العالمية الثانية ليلقي فيه وإليه بالمصريين المعارضين للسياسة البريطانية وببعض أسرى الحرب. إنه في الصحراء الغربية بالقرب من الحدود الليبية وعلى بعد حوالي أربعمائة كيلومتر من أقرب مدينة له في صعيد مصر (أسيوط)، ولم توجد أيامنا سوى وسيلة وحيدة للمواصلات بين المدينة والمعتقل، هو درب غير ممهد تخترقه السيارات الحكومية والعسكرية والخاصة. لذا كانت الزيارات القليلة النادرة التي تقوم بها عائلات المساجين محفوفة بالخطر والمشقات. ولك أن تتخيل بعد تكبد هذه المشقات لا تستطيع العائلة سوى أن تقضي ساعات قليلة

في زيارة السجين، لترجع بعدها في اليوم أو الليلة ذاتها إلى المدينة حيث لا توجد فنادق أو أماكن لقضاء الليلة للأغراب عن الواحة التي تبعد حوالي خمسين كيلومترًا من السجن أو المعتقل.

في السجن، كان أبي، بحكم خبرته كميكانيكي طيران سابق، يعمل بالحملة ويتولى إصلاح سيارات السجن، وهو ما أعطاه بعض الامتيازات. وبفضل علاقته التي توطدت بعساكر السجن، كان يتولى تهريب الخطابات والمواد الغذائية. وذات يوم، فوجئنا بأحد جنود السجن، اسمه «راشد»، يزورنا ومعه خطاب من أبي وتمثالان من الجبس من صنع الفنان السجين حسن فؤاد. تمثال نصفي لامرأة بشعر منسدل، وتمثال التضامن، وهو عبارة عن أربعة أشخاص يصنعون دائرة ورؤوسهم متقاربة وأياديهم تحيط ببعضهم البعض. بالإضافة إلى «توْتوْ»؛ موقد له شريط دائري ويعمل بالكحول من صنع السجناء. كان ذلك يوم الخميس الأول من الشهر، فاستأذن راشد أمي في اقتراض مذياعنا ماركة «مولارد»، ليستمع مع زملائه إلى الست في مصلحة السجون (مكانها حاليًّا جراج الشركة المصرية للتأمين بشارع قصر النيل)، حيث سيبيت. كما استأذن أمي في أن أصحبه وأقضي السهرة معه ومع زملائه في المصلحة. وتحت ضغط إلحاحه وإلحاحي، وافقت أمي. مقر مصلحة السجون يبدو قصرًا صغيرًا أو فيلَّا كبيرة. وتواجهك وأنت داخل إلى باحة المصلحة نافورة لطيفة يعج ماؤها بعدد كبير من أسماك الزينة الكبيرة، برتقالية اللون مع بقع سوداء وبيضاء. رحب «رجال الداخلية» بي، أو بالأحرى رحبوا بالراديو، وتعشيت معهم مكرونة بالصلصة ولحم محمر. وما إن بدأ الحفل الغنائي حتى ذهبت في سبات عميق، لأصحو مبكرًا قبلهم وأخرج وهم نيام لأستمتع بحوض الأسماك الملونة وأصوات عصافير تملأ المكان. وبعد أن أكلنا فول الإفطار وشربنا الشاي، تحرك راشد يحمل الراديو الكبير وأنا أتبعه كظله ليعيدني مع الراديو إلى أمي.

تستوقفني أحيانًا تلك العلاقات الإنسانية التي تنشأ في بعض الأحيان بين السجين وسجَّانه. وقد سمعت قصصًا كثيرة عن مواقف إنسانية من جانب أفراد من الشرطة تجاه السجناء وأسرهم من دون مقابل. من هؤلاء كان المخبر محمد كمال. هذا الرجل هو من أبلغ أبي ذات مرة بنية القبض عليه، ما أتاح له فرصة الفرار قبل حضور الحملة. كما كان الرجل يزورنا في الأعياد

بصحبة زوجته وأطفاله وأبي بالسجن، وكان يكنُّ لأسرتنا كل احترام وود. كان رجلًا طيبًا بالمعنى الإنساني ولم يكن له اهتمام بالسياسة.

* * *

أنهى أبي سنوات السجن السبع كاملة (السنة ١٢ شهرًا)، وخرج من السجن وأنا في المرحلة الإعدادية. هناك نظام في السجون يقضي بحساب مدة السجن بالشهور العربية وهذا يقلل المدة، لكن هذا النظام لم يُطبق على أبي. وكان النظام وقتها يقضي بأن يمضي السجين فترة مراقبة بعد خروجه. فعليه ألا يغادر سكنه بعد السادسة مساءً وحتى السادسة صباحًا، وإذا أخل بهذا يكون جزاؤه أن يبيت أثناء فترة المراقبة في قسم الشرطة التابع له. فكان مندوب من القسم يمر في وقت معين من الليل يوقع في دفتر مراقبة يحتفظ به أبي بعد أن ينفحه سيجارة. لا أدري لماذا كنت أشعر حينها أن الرجل يأتي من أجل السيجارة وليس المراقبة.

حاول أبي أن يمارس أبوته بعد طول غياب. وبدأ هذه الممارسة بمحاولة تأديبي بالضرب، لكن أمي تصدت له. ولا أعتقد أنها فعلت ذلك بدافع الشفقة عليَّ، فهي لم تتورع عن ضربنا وتأديبنا في أكثر من مناسبة، بل الأحرى أنه كان نوعًا من تأكيد حقوق الملكية. فلا يجوز بعد أن حملت العبء كله طوال هذه السنوات أن يأتي هذا الرجل ليمارس ترف هذه السلطة التي ليست من حقه. وكان هذا الموقف حاسمًا لتحديد النفوذ في البيت منذ البداية. بعده ضمت أمي القادم الجديد إلى منطقة نفوذها. فهي التي تحدد الأدوار وتكلف كل فرد بدوره. وكان رأيها أن أبي لو تسلم القيادة سيخرب البيت. فأبي لم يمارس الحياة الاجتماعية الطبيعية ولم يعاين تفاصيلها اليومية، ولا يتقن سوى العمل السري الذي وهبه حياته، وها هو يضطر إلى التخلي عنه. أبي يعطي البائع ما يطلبه حتى ولو كان مبالغًا فيه، أما أمي فتفاصل وتستخلص الكلمة الأخيرة، حتى إن أبي كان يتدخل أحيانًا لصالح البائع مشفقًا عليه!

خرج أبي من السجن إلى الدنيا الواسعة بلا دور ولا وظيفة ولا رفاق ولا مجال لأي نشاط سياسي. منذ أن كان بالسجن وهو منعزل عن الباقين بسبب الانشقاقات الدائمة بين الرفاق. كما أن الحزب الشيوعي المصري كان يخوض صراعًا بين الفرقاء انتهى بإعلان حل نفسه. فماذا يفعل رجل احترف هذا النوع من العمل ولا يجيد سواه، ولا يقبل بغيره؟ وكان عليه أولًا أن يخوض

غمار البحث عن عمل نقتات منه. دار على الرفاق ممن تولوا قيادة بعض المؤسسات، من دون جدوى. وأخيرًا، قبِل أحد الرفاق القدامى من الضباط، وكان يتولى رئاسة مؤسسة المسرح، تعيينه موظفًا بدار الأوبرا بمرتب ١٤ جنيهًا في الشهر، بعد موافقة المباحث. فقد نجح النظام في اجتذاب العناصر المثقفة من الشيوعيين للعمل لصالحه وتحت قيادته، بينما عانى العمال منهم مشقة البحث عن عمل كريم. كانت المعضلة التي أشار إليها لينين، عن التناقضات بين العمال والمثقفين في صفوف الحزب، أوضح ما تكون في المنظمات الشيوعية المصرية بوجه عام. العمال يرون أنهم الأولى بالقيادة بوصفهم أصحاب القضية الأصليين، والمثقفون يرون أحقيتهم بوصفهم الأوسع معرفة ووعيًا. وهو ما لم يلتفت إليه الشيوعيون في مصر.

وكان ضابط أمن الدولة المكلف بإنهاء إجراءات الإفراج عن أبي قد عرض عليه العمل في الصحافة، لكن أبي رفض واعتبره نوعًا من الضحك على الذقون وخيانة، في حال حدوثه، لانتمائه العمالي. ثم كيف لميكانيكي أن يتحول فجأة إلى صحفي! وشتان بين المجالين. يبدو أن حاجتهم إلى الصحفيين كانت أكبر من حاجتهم إلى العمال.

وبمناسبة الميكانيكي، يروي خالد محيي الدين في كتابه «والآن أتكلم» عن اللقاء بين عبد الناصر وأبي. يقول:

> وأذكر أنني وجمال توجهنا يومًا لزيارة (القاضي) أحمد فؤاد في بيته، ووجدنا عنده شخصًا قدمه لنا قائلًا: «الرفيق بدر»، وقد تحدث حديثًا سياسيًّا مبهرًا سواء بالنسبة لي أو بالنسبة لجمال.
>
> كانت هناك أحداث سياسية خطيرة (١٩٥١) سواء في مصر أو في سوريا، حيث وقع انقلاب عسكري جديد، وكانت الصورة مرتبكة أمامنا، لكن «بدر» تحدث ممتلكًا لرؤية صافية تمامًا، واستطاع أن يفسر لنا الأحداث تفسيرًا مقنعًا وملهمًا في آنٍ واحد.
>
> انحنيت على أحمد فؤاد هامسًا: «مين ده؟».
>
> وأجاب همسًا: «السكرتير العام».
>
> وعندما نزلنا من بيت أحمد فؤاد كان عبد الناصر لم يزل منبهرًا بهذه الشخصية الغامضة والواسعة الأفق، وبينما نهبط السلم سألني: «مين الرفيق بدر ده؟».

قلت: «السكرتير العام للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني».
فقال: «بيشتغل إيه؟».
قلت: «السكرتير العام».
وكرر السؤال لأكرر الإجابة. أخيرًا سألني بحدة: «يعني كان بيشتغل إيه قبل ما يبقى سكرتير عام؟». وتذكرت أن عثمان فوزي قد حدثني طويلًا عن الرفيق بدر، وكيف أنه كان قائدًا لفرع منظمة حدتو وسط ميكانيكيي الطيران، وكيف أنه وهو الميكانيكي استطاع أن يكوِّن نفسه فكريًّا وسياسيًّا ليصبح سياسيًّا وقائدًا يستحق الإعجاب.
قلت ببساطة: «ميكانيكي».
وصاح عبد الناصر: «ميكانيكي، يعني أنت ممكن تبقى عضو في الحزب ده وتتلقى أوامر من ميكانيكي!».
فقلت: «المسألة مش مسألة أوامر، وإنما هي مسألة اقتناع بفكرة».
لكن مسألة «الميكانيكي» هذه ظلت عالقة في ذهن عبد الناصر، وظل يرددها دومًا، أحيانًا في تهكم وأحيانًا في استنكار، وحتى بعد الثورة، وفي اجتماعات مجلس قيادة الثورة قال مرة مشيرًا إليَّ: «ده زعيمه ميكانيكي».
وفي موضع آخر من الكتاب يقول:
... كان بدر (سيد سليمان الرفاعي) يتمتع بكل ميزات أحمد فؤاد بل ويتفوق عليه، فهو في نهاية الأمر السكرتير العام لمنظمة حدتو التي يعمل أحمد فؤاد واحدًا من كوادرها، لكن أحمد فؤاد قاضٍ وسيد سليمان رفاعي ميكانيكي.
... واختار عبد الناصر أن يمنح إعجابه للقاضي أحمد فؤاد.
انتهت شهادة خالد محيي الدين وهي تكشف جانبًا من شخصية عبد الناصر لم يستطع إخفاءه؛ طبقيته.

بعض الرفاق بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو): من اليسار وقوفًا الرفيق بدر (سيد سليمان رفاعي)، جنيد علي عمر من الرفاق السودانيين، سيد خليل ترك، الرفيق عاكف (أحمد الرفاعي)، محمد شطا (الجالس إلى اليمين) ولم أتعرف على الجالس بجواره.

* * *

* * *

كانت الأوبرا قريبة من دار الكتب، فاستخرج أبي لي اشتراكًا واستعار لي أول كتاب، وكان بعنوان «نابليون» من تأليف إميل لودفيج وترجمة عادل زعيتر. يومها قال لي أبي: «جيلكم محظوظ، وأنا في سنك كنت ما أزال أقرأ أرسين لوبين». وفي الأوبرا، صادقت، على الرغم من فارق السن، زملاء أبي من موظفين وفنانين وفنيي إضاءة وملابس. كانت الأوبرا مرتعًا خصبًا آخر لصباي. طبعًا أنا في غنى عن أن أحدثك عن العظمة المعمارية لهذه التحفة التي أكلتها النيران. ما زالت ذاكرتي تحتضن بحسرة سقف الدار الذي كان يضم صورًا دقيقة ورائعة لكل عمالقة الموسيقى الكلاسيكية. وكان مدير الأوبرا وقتها، الأستاذ شكري راغب، أعزب، يعمل وينام في الدار. وكنت أراه في كل مكان بها. كانت دارًا واسعة، تضم غير خشبة العرض المهيبة مخازن كبيرة لملابس وإكسسوارات العروض منذ نشأتها، بالإضافة إلى مكتبة موسيقية تضم تسجيلات ونوتات نادرة، كان يشرف عليها وقتها الأستاذ فرج العنتري، المؤرخ والناقد الموسيقي المعروف. وعلى يدَي هذا الرجل جم التواضع استمعت إلى الأوبرات والسيمفونيات العالمية (انظر ملحق: عم فرج العنتري). لكن تكويني على ما يبدو لم يكن متوافقًا مع الموسيقى الكلاسيكية (عندي ما يشبه اليقين بأن الاستمتاع بهذه الموسيقى الراقية يحتاج إلى قدر من الصفاء لم أحظَ به في أي وقت في حياتي. كما كان تفكيري الشعبوي حائلًا بيني وبين هذه الموسيقى الراقية!). كل هذا رأيته وشاهدت كل عروض الأوبرا تقريبًا مجانًا. كان عم نور، بواب الدار النوبي الأسمر، صديقًا للكل. وكان يسمح لي بالدخول في أي وقت. وكنت دائمًا أجد مكانًا في القاعة، وإن تعذر هذا تابعت العرض من الكواليس. وكان بهذه الدار العريقة مقاعد «أعلى التياترو» بعشرة قروش التذكرة. وكانت تستضيف مواسم لفرق الأوبرا العالمية، الإيطالية بالأساس. وشاهدت على خشبتها بعض عروض المهرجان الدولي الأول للفنون الشعبية، الذي ضم فرقًا للرقص الفولكلوري من بلاد العالم، وفازت رومانيا حينها بالجائزة الأولى، بلحن لسيد درويش كما أخبرني وقتها الأستاذ فرج العنتري. وعلى خشبتها أيضًا، شاهدت العرض الأول لمسرحية «مأساة الحلاج» للشاعر صلاح عبد الصبور وإخراج سمير العصفوري، وهو من العروض العلامة في المسرح المصري. وكان آخر ما

رأيت فيها مسرحيات فؤاد المهندس وشويكار.

على الجانب الآخر من الأوبرا، هناك المقصد الأول لأبناء جيلي من «هواة القراءة»، سور الأزبكية. توثقت صلتي به فيما بعد في المدرسة الثانوية. كنت أذهب من المدرسة في روض الفرج إلى هناك سيرًا على الأقدام، نتجادل ونحكي أنا ومحمود زميلي. كان محمود وقتها معجبًا بالوجودية، وبالذات كتابات ألبير كامو. أما أنا، فكنت شغوفًا بالمسرح والفلسفة اليونانية. وفي هذه السن قرأت الكثير من المسرحيات وكذلك تاريخ المسرح، إلى درجة أنني قررت الالتحاق بمعهد الفنون المسرحية بعد حصولي على الثانوية، لكن أبي اعترض لأنه معهد وليس كلية. ومن هذا السور، كونت مكتبتي الأولى من الكتب المستعملة بالأساس، خاصة مؤلفات سلامة موسى التي ساهمت في تشكيل وعيي في تلك الفترة بشكل كبير. كنت كلما نجحت في توفير خمسة أو عشرة قروش، نبدأ أنا ومحمود رحلتنا إلى السور.

* * *

منذ المرحلة الابتدائية وأنا أعمل في الإجازات الصيفية. عملت في أكثر من عمل: في مصنع نسيج، وكان عملي هو جمع البكرات الفارغة وتنظيفها من بقايا الخيوط لإعادة استخدامها مرة أخرى؛ وبعت المرطبات في حديقة أغاخان بالمظلات، قبل تقسيمها وتسويرها، أكثر من صيفية، وكان أخي يونس ينضم إليَّ أحيانًا؛ وذات مرة عملت صبيًّا لميكانيكي موتوسيكلات. أما أكثر العطلات ثراء، فكانت تلك التي قضيتها في العمل بإحدى إجازات المرحلة الإعدادية بمطبعة يملكها زميل لأبي في العمل السري، اسمه «مراد القليوبي» من خريجي كلية الفنون الجميلة، وكان له في ذلك الحين كتاب ألفه عن المسرح في يوغوسلافيا. كانت المطبعة في أحد ممرات شارع أحمد بدوي الذي يصل بين شارعَي شبرا والترعة البولاقية ولصق مصنع رمسيس لمنتجات لحوم الخنزير. في هذه المطبعة بدأت علاقتي بالطباعة، والتي سيقدَّر لها أن تتواصل بعد ذلك لتتيح لي مشاهدة كل التطورات التي طرأت على هذا العالم في قابل الأيام، حيث عملت بأكثر من مشروع للنشر، وفي كل الخطوات، من أول اختيار وإقرار النص وحتى التنفيذ في المطبعة.

كانت الطباعة في ذلك الحين في مرحلة الجمع اليدوي؛ أن تجمع النص المطلوب حرفًا بحرف. فكان صندوق الحروف المصنوعة من الرصاص يضم

حروف الأبجدية بكل الأبناط لكل حرف وحسب موقعه في الكلمة. فالحرف في أول الكلمة، في لغتنا، غيره في منتصفها أو في آخرها. هذا غير الكشايد التي توضع لعمل المسافات بين الكلمات والسطور والفقرات. ولك أن تتخيل حجم صندوق الحروف، وحجم الجهد الذي يبذله الجمِّيع. أما الطباعة، فكانت خطرة آنذاك، وكان الأسطى وجدي، أسطى المطبعة، شاهدًا على هذا. فقد فقدَ أصابع يده اليمنى لأنه تأخر في سحبها بعد أن وضع فرخ الورق في الماكينة، وظلت الحروف مطبوعة بارزة في لحم يده، تنمو بنمو جلده. كان عملي الأساسي في المطبعة هو المشاوير. فكنت أحمل البروفات إلى الزبائن لمراجعتها والموافقة عليها. وكنت أذهب إلى زبائن آخرين لاستلام الشيكات، أتذكر من هؤلاء الزبائن وكالة الجاعوني لتوزيع الأفلام بشارع عبد الخالق ثروت. كذلك كنت أذهب إلى الخواجة بوابجيان، بأحد ممرات شارع شريف، لشراء الحروف، ومن شارع إبراهيم كنت أشتري الأحبار من وكيل هناك. أتاح لي هذا العمل أن أستطلع القاهرة منذ وقت مبكر، وهو رصيد سيساعدني كثيرًا عندما أبدأ تجوالي في قاهرة المعز. كان حجمي صغيرًا، وساعدني ذلك على التسلل من بين السيقان التي يزدحم بها الأتوبيس أو الترام، وأحيانًا التزويغ من الكمساري، كان الكمساري نفسه يخجل من مطالبتك بالأجرة وأنت في هذه السن، وأحيانًا كان الجمهور يتعاطف معك ويحرج الكمساري لاجترائه على مطالبة عيِّل في مثل سني بثمن التذكرة.

أما أهم الدروس التي تعلمتها في هذه المطبعة فكان أخلاقيًّا. كنت ضحية مزاح ثقيل على ما يبدو، لكنه كان درسًا. فقد زيَّن لي الأسطوات الأكبر مني سنًّا فكرة أخذ أكواب الشاي، التي تركها القهوجي ولم يحضر لأخذها، إلى المنزل. وتحت إلحاحهم، أخذت الأكواب إلى المنزل. كنت صغيرًا عديم الخبرة. في اليوم التالي، رأيت وجه الأستاذ مراد القليوبي مكفهرًّا ويحاول في نفس الوقت السيطرة على انفعالاته. حدثني بهدوء وهو يشرح لي جُرم ما فعلت. لم أجد أمامي سوى البكاء ومشاعر الندم وكراهية النفس. نعم، كرهت نفسي ساعتها، وكرهت من فعل بي هذا وأوصلني إلى هذا الدرك المخجل. لكنه كان درسًا عظيمًا لقادم الأيام. فقد أصبحت السرقة، إلى جانب الكذب، على رأس قائمة الخطايا عندي.

في سنة الإعدادية، وبعد خروج أبي من السجن، كانت المرة الأولى التي

يشترون فيها ملابس لي. فقد جرت العادة على تقييف (أي تضييق) الملابس التي يتخلى عنها من هم أكبر سنًّا. وحتى الآن، لا أعرف كيف أختار ملابسي. فالاختيار ترف يحتاج إلى إمكانيات. توجهنا كأسرة إلى محل كان شهيرًا في ذلك الحين، وتعتبره الأسر الفقيرة مثلنا محلًّا معتبرًا، اسمه «فتال» في شارع فؤاد (٢٦ يوليو حاليًّا). اشترينا بدلة صوف طبيعي، بنية اللون مع نغبشات بيضاء. وظلت أمي لسنوات، وكأنها تعايرني، تتذكر وتذكِّرني: «فاكر لما جبنالك البدلة من عند فتال؟!»، وكانت تستغل أي فرصة لفتح الموضوع والتذكير به. ولأن الكعكة في إيد اليتيم عجبة، فلم أهنأ كثيرًا بهذه البدلة. ارتديتها للمرة الأولى وأنا ذاهب إلى المدرسة للحصول على رقم الجلوس في امتحان الإعدادية. وبعد أن تسلمت رقم جلوسي، قررت أن أعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام عن طريق الكورنيش واستكمال مذاكرة مواد الامتحان. وهكذا انطلقت قاصدًا الكورنيش مرورًا بمستشفى الرمد وموقف الترام. لكن عندما وصلت إلى شارع الكورنيش وانتقلت إلى الجهة الأخرى من الشارع حيث النيل، رأيت عددًا من ولاد الحتة يركبون فلوكة تحركت لتوها في النيل. فلما رأوني عادوا مرة أخرى لاصطحابي. بعد تردد قليل وتحت ضغط الإغراء، قررت النزول إلى الفلوكة. وانطلقنا قاصدين جزيرة الوراق. ألقت بنا المقادير أمام غيط بطيخ لم تنضج ثماره بعد. هجمنا على ثمار البطيخ الخضراء المستديرة الصغيرة نقطعها، من دون مبرر أو تفكير في خسائر صاحب الغيط أو عواقب فعلنا، والتي حلت على الفور. فجأة انشق غيط الذرة المجاور عن شبح طويل نحيف وسريع الجري. جرى أولًا إلى القارب وكسر مجاديفه، ثم استدار ليمسك بنا واحدًا فواحدًا. شمرت أكمام جاكتتي ورجلَي بنطلوني وجريت في الماء حتى ابتللت كلي وكدت أتجه نحو المياه العميقة وأنا لا أعرف العوم، لولا أن أمسك بي الرجل. وقفنا أمامه مطأطئي الرؤوس وهو يوبخنا ويؤنبنا، ثم اختار لنا عقابًا غريبًا بعض الشيء؛ ري غيط البطيخ بالجرادل! وانصعنا صاغرين. وقبل أن ننهي العمل بقليل، ظهر على البعد صاحب الفلوكة، جاء يبحث عنها بعد أن تأخرنا كثيرًا عن موعدنا. أمرنا صاحب الغيط بأن نختفي عن العيون. نهَر الرجل وقال له إننا جئنا وأفسدنا غيطه، وحذره من أن يأتي عيال آخرون، وصرفه. واكتفى الرجل بالجزء الذي أنجزناه وصفح عنا، ودبر أمر رجوعنا على ظهر مركب تنقل

البطاطس.

في الطريق إلى المنزل، وبعد أن جفت البدلة وفردت أكمام الجاكت ورجلَي البنطلون، كان شكلي أقرب إلى إعلان إطارات الكاوتش الشهير «ميشلان». واكتشفت بعد حين أن البدلة كشَّت بسبب الماء وصارت ضيقة عليَّ. المهم أن أبي وأمي علما بالواقعة قبل وصولي من أحد المخبرين الصغار في شلتنا، أكلته الغيرة لأنه لم يشاركنا مغامرتنا. كان أبي وأمي ينتظرانني في حالة تحفز شديد. وبَّخاني ونهراني كثيرًا، وتحدثا طويلًا عن شقائهما وتضحياتهما من أجل توفير مأكلنا ومشربنا بصورة يحسدنا عليها الآخرون! التزمت الصمت في البداية مع تعبيرات الأسف والندم على وجهي وآلاف الانفعالات المكبوتة تتصارع داخلي، ثم انهرت باكيًا في النهاية. كان موقفًا صعبًا، تذكرته وتأملت فيه أكثر من مرة في حياتي، ووصلت في النهاية إلى أن توفير حاجات الأطفال هي مسؤولية الأهل وليست منَّا منهم، وأن ما يواجههم في الحياة من عنت لتوفير هذه الحاجات أمر لا دخل للأطفال فيه، والمسألة دور، وسيأتي الدور على هؤلاء الأطفال ليكونوا مكانهم مسؤولين عن أطفال. وقد علمني هذا درسًا غاليًا، سينعكس أثره على تربيتي لأبنائي، واعتراضي على زوجتي بسبب استخدامها الغذاء أحيانًا كسلاح ومكافأة في صراعها مع الولد بالذات، وتذكيره الدائم بشقائنا من أجله.

* * *

أخيرًا، عدِّت الإعدادية على خير، وحصلت على مجموع يمكنني من الالتحاق بمدرسة روض الفرج الثانوية، وهي غير بعيدة عن المدرسة الإعدادية. التحقت بالمدرسة بعد رحيل ناظرها المرعب، رياض منقريوس، وحلول ناظر آخر درس في فرنسا ويتسم بلين الجانب. الاثنان مسيحيان، لكن ما سمعناه عن إدارة الأول يشيب لهوله الولدان. هذا الرجل وصل صيت شدته إلى الصحف وصفحات الكاريكاتير. فقد أحاط سور المدرسة بالأسلاك الشائكة واستقدم كلابًا شرسة لمواجهة أي طالب يقترب من السور. أثناء نظارته، ظهر كاريكاتير يصور أحد المعلمين يتسلق سور المدرسة، ولما اقتربت منه الكلاب صرخ في وجهها: «إنتم هنا للطلبة مش للمدرسين». أما الناظر الجديد، الأستاذ شاكر حنا، فقد انتهج طريقًا معاكسًا، وشهدت المدرسة على عهده حالة من الفوضى وعدم الانضباط، كان من مظاهرها تكسير كل

كراسي فصول المدرسة تقريبًا والتهديد بمطالبة الأهالي بسداد ثمنها، وهو أمر لم نسمع عنه حينها. الفوضى الحقيقية بدأت من اللحظة التي أخرجونا فيها من المدرسة وأركبونا الترام للاصطفاف في ميدان رمسيس (ربما لاستقبال عبد الناصر بعد عودته من الخارج أو تجديد ترشيحه للرئاسة). بعدها، كان عدد من الطلبة يتفقون بين حين وآخر على الخروج في مظاهرة لغير سبب معلوم، فنتجمع في الحوش نطالب بالخروج. وعندما يأتي ضابط الفتوة وجنوده لإثنائنا، نهتف في وجوههم هتافاتنا الشهيرة حينها: «عدو الطلبة عدو الشعب» و«نريد العَلم ولو بالقوة». وعندما ينفتح باب المدرسة، ننطلق خارجين كالطوفان. وبسبب تكرار الخروج، كان ناظر محطة الترام يأمر بتخصيص ترام لنا يقلنا حتى ميدان رمسيس، ومن هناك، ينطلق كل منا إلى حال سبيله. فمن يذهب إلى السينما، ومن يذهب إلى سور الأزبكية القريب، أو إلى حديقة الأزبكية نفسها للاستمتاع بمرأى أشجارها وزهورها والتمتع بالجلوس في ظلالها الحاضنة. ما كان يدعو ناظر الترام إلى هذا هو أننا خرجنا ذات مرة وركب عدد منا الترام، وقام آخرون بدفعه بمن فيه حتى تقاطع شارعَي أبو الفرج وروض الفرج، فارتبكت حركة المرور وأصبح الناظر في حيص بيص. لذلك، كان إذا رآنا خارجين يأمر على الفور بتسيير ترام يبعدنا عن المنطقة.

كان مدرس الجغرافيا في هذه المدرسة، الأستاذ منير، حاصلًا على الدكتوراه، وكان بالمدرسة فريق للتمثيل يشرف عليه أحد النجوم من خريجي المدرسة هو الفنان عدلي كاسب، الذي كانت صورته مع زميله خريج المدرسة أيضًا فاخر فاخر، تزينان طرقات المدرسة. وفي مكتبة هذه المدرسة، توطدت علاقتي بالكتب، خاصة بعد أن توثقت صلتي بأمين المكتبة وصرت معاونه الأساسي. فقد أنجز بمساعدتي جرد تلك المكتبة الزاخرة بكنوز الإبداع الإنساني، وكانت فرصة لي للتعرف أكثر على محتوياتها. وقد كافأني على مجهودي بأن منحني نسخة مكررة من «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي وديوان حافظ إبراهيم، جزآن. في هذه المدرسة أيضًا كانت هناك حصة للهوايات، يختار منها الطالب بين الزراعة أو الموسيقى أو الآلة الكاتبة أو التصوير. وفيها كانت دروسي المبكرة في التصوير الفوتوغرافي.

في تلك الفترة، رأيت أبي يعود إلى المنزل ذات يوم حاملًا ربطة أوراق

كبيرة، وعلى وجهه خليط من الارتياح والتفاؤل والحماس، والشك. فهمت منه أن هناك تنظيمًا جديدًا، تابعًا للاتحاد الاشتراكي، اسمه «التنظيم الطليعي»، يضم عناصر قيل إنها يسارية ومؤتمنة، وهو ذو طبيعة سرية. اشتهرت وثائقهم في ذلك الحين بأنها مرقمة بالتخريم، بحيث تجد رقم الوثيقة مثقوبًا على كل ورقة من أوراقها، وهو إجراء الغرض منه تحقيق السرية. عاش أبي مدة في وهم عودة النشاط واستعادة أيام المجد. كان ثروت عكاشة، كما علمت منه، هو المسؤول عن مجموعته، وظل أبي يذهب إلى الاجتماعات ويعود بالأوراق المرقمة بالثقوب، ومع كل مرة يعود أكثر يأسًا من سابقتها. إلى أن اختفى ثروت عكاشة وانقطع الاتصال وفقد أبي الأمل. قال: «إنهم غير جادين». وعاد إلى وحدته. كان النظام في تقديري يتلاعب بالشيوعيين - وكانوا القوة المعارضة الوحيدة تقريبًا آنذاك - كيفما شاء (شاع عن عبد الناصر قوله إن الشيوعيين «جنرالات بلا جيش»). أما الشيوعيون أنفسهم فكانوا يرون أنفسهم أندادًا للنظام، وهذا غير حقيقي. فصورتهم عن أنفسهم وحجم تأثيرهم كان مبالغًا فيه. وكان قطاع منهم يرى أن النظام يتبنى برنامجهم (كان النظام يتبنى بالفعل بعض أفكارهم)، وهو ما تطور بعد ذلك إلى فكرة وجود مجموعة اشتراكية في السلطة. لا أشك في إخلاص هؤلاء الناس وإيمانهم العميق بمبادئهم وأفكارهم، لكن في الممارسة كان هناك شيء ما غير مفهوم في كثير من المواقف (على سبيل المثال، قال أحد زعماء الشيوعيين في حديث تلفزيوني لاحق إنهم كانوا متفقين مع النظام في سياسته الخارجية ومختلفين معه في سياسته الداخلية. وهذا الكلام معناه في التطبيق أنهم يؤيدون النظام مهما صدر منه من اعتقالات وتعسف، ما دام متحالفًا مع الاتحاد السوفيتي).

* * *

أخيرًا، حصلنا على شقة مستقلة لنا وحدنا، عبارة عن غرفتين وصالة في مساكن الفرنواني الشعبية بشبرا الخيمة. شقة حصلنا عليها بالوساطة والمحسوبية، وتدخل المباحث (على الرغم من كل شيء، كانت تظهر في أحيان نادرة وجوه إنسانية بين ضباط مكافحة الشيوعية، منهم الإنسان والفلاح الأصيل، اللواء محمود يونس الذي ساعدنا في الحصول على هذه الشقة، ولم يعترض على التحاق أخي بعد ذلك بالكلية الحربية). قال الموظف

مسؤول الإسكان لأبي: «اكتب في الطلب أنك تسكن في حارة الحنفي»، وهي حارة صغيرة متفرعة من شارع السوق الكبير بشبرا البلد، عدد كبير من منازلها تحت بند «آيل للسقوط». وهكذا انتقلنا إلى حياة جديدة، شقة حجرتان وصالة، يرمح فيها الخيل، مقارنة بالحُق المشترك الذي كنا نسكن فيه، وبمائة وخمسين قرشًا تقريبًا في الشهر، نجحت أمي في مبادلتها فيما بعد بشقة ثلاث غرف بمائتين وستين قرشًا في الشهر، كان إيجارها فوق طاقة صاحبها (بعد ١٥ عامًا سيبلغوننا بأننا سددنا ثمنها وصارت ملكًا لنا). في الشقة الجديدة، يمكنك الذهاب إلى الحمَّام براحتك وأن تسخن ماء وتأخذ حمامًا في أي وقت تشاء. والحمام له صرف صحي يعفيك من الروائح الفاسدة التي كانت تنبعث في السكن القديم. حياة جديدة وجيران مختلفون. كانت المنطقة من حولنا لا تزال غيطانًا خضراء، يتخللها بضع بيوت متناثرة. وعلى الجانب الأيسر للشارع الرئيسي للمساكن، وأنت قادم من المؤسسة، كان هناك سور طويل ممتد لشركة بونتريمولي لصناعة الأثاث، وهو اسم عريق في عالم صناعة الموبيليا (أصبح مكانه الآن بعض الأبراج السكنية وموقف الأتوبيس والميكروباص).

وبعد انتهاء سور المصنع، هناك قطعة أرض يزرعها ويقيم فيها مع زوجته وأولاده، رجل داكن البشرة وملامحه أقرب إلى العبيد الذين نراهم في الصور القديمة، يُدعى «عم حسن». كنا نشتري من عم حسن الفجل والجرجير والخضرة (شبت وبقدونس وكزبرة). كنت ألحظ شيئًا غريبًا عندما أدخل أرض عم حسن. كان الرجل يحتفظ بتمثال كبير على يسار الداخل إلى الأرض، وهو ما استرعى فضولي. راقبته ذات مرة وشاهدته وهو يصلي أمامه، ومرة أخرى شاهدت امرأة تحمل طفلًا تتبرك بالتمثال. يبدو أن الرجل كان وثنيًّا، لكن الناس على أيامنا كانوا متسامحين ولا يهتمون بما تعبد أو لا تعبد، فلم يستوقفهم الأمر. وربما كان الكبار يعرفون ذلك لكن أحدًا لم يتعرض للموضوع قَطُّ. وكانوا كلهم يحبون عم حسن، خاصة النساء. في ذلك الحين لم تكن تستوقفنا حكاية مسلم ومسيحي. سمعنا مرة واحدة عن فتنة قامت في الحافظية، القريبة من الخازندار بشارع شبرا: مسلم مزق نسخة إنجيل لمسيحي، فقام المسيحي بتمزيق نسخة من القرآن، وقامت الدنيا وتحزب الفريقان وكانت عركة بينهما. لكن لأننا كنا في ظل حكم الدولة القومية،

نزلت الشرطة العسكرية وطحنت الفريقين بلا تمييز. كان عبد الناصر لا يبدأ خطابه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» بل بـ«أيها الإخوة المواطنون». وهكذا كانت تلك الفتنة هي الأولى والأخيرة التي شهدناها في الستينيات، وقبل أن تحكمنا «دولة العلم والإيمان»، أصل كل فساد.

كان الشارع الرئيسي الممتد بطول سور شركة بونتريمولي هو ملعبنا الأثير للكرة، فلم تكن السيارات تمر إلا فيما ندر. وبعد إحدى هذه المباريات، شعرت بعرق غزير وارتفاع في درجة الحرارة وإرهاق مفاجئ. وتوكأت على أصدقائي، وذهبنا إلى منقذ الفقراء في ذلك الحين، الدكتور كمال نخلة. كان الكشف ٢٥ قرشًا، وهو أجر متواضع لطبيب آنذاك. الدكتور كمال شاطر. قال: «أنت مصاب بلغط خفيف في القلب، وعليك استئصال اللوزتين، وستكون بخير، لا تقلق». انتظرت حتى جاءت إجازة الصيف، وبالواسطة دخلت مستشفى الدمرداش. وهناك، ظلوا يحضِّرونني كل يوم لإجراء عملية اللوز (حقنة أتروبين تجعل ريقي جافًّا لإجراء العملية) ثم يؤجلونني لليوم التالي، حتى جاء آخر يوم في الأسبوع والذي لا بد أن أجري فيه العملية. دخلت إلى غرفة العمليات أخيرًا لأنتهي من هذا الصداع. نظر الطبيب في تذكرتي وتوقف عند الملحوظة الواردة بتشخيص الدكتور كمال ورفض إجراء العملية قبل عرضي على استشاري القلب بالمستشفى. طبيب القلب مظهره لا يوحي بالطمأنينة. لم يكلف خاطره أن يبعد البايب الضخم عن فمه وهو يكشف عليَّ. وضع السماعة على صدري ثم قال: «قوم، جايلي بعد إيه؟!». دارت بي الدنيا، وأصابني وهم شديد. عدت إلى العنبر حزينًا لأجد أحد أصدقائي من المساكن جاء لزيارتي. كانت حالتي النفسية في الحضيض، وكل حين أضع يدي على قلبي فلا أشعر بنبض، وأعتقد أنني انتقلت إلى العالم الآخر من دون أن أشعر. كان مع صديقي جريدة ووقفت عيناي، على غير عادتي، عند صفحة الأبراج. وعندما وصلت إلى برجي وجدته: «لا تقلق، صحتك بخير!».

قررت الهروب من المستشفى. لملمت أشيائي على عجل، وحملها عني صديقي. توجهت أولًا إلى جدي وجدتي على البحر. شرحت لهما ما حدث وسط دموعي وبكائي، وانهارت جدتي من البكاء. وسحبتني من يدي ونحن على هذه الحال وتوجهنا إلى بيتنا. تمالك أبي نفسه وهو يستمع إليها وهي

تتشحتف، ثم شخط فيها واستدار نحوي ليخطب فيَّ: «حتى لو أنت محكوم عليك بالإعدام مفروض تكون في أيامك الأخيرة أقوى من كده!». كلام كبير يستعصي على فهمي في تلك السن وفي غير تلك السن. أعرف أنه يريد التخفيف عني، لكن الكلام كان فوق طاقتي، مفاجئًا ومربكًا. وكان عليَّ أن أعرض نفسي على طبيب متخصص في القلب. وبواسطة زميله القديم إبراهيم العطار، ذهبنا إلى قريب له وهو طبيب قلب كبير. قابلَنا الرجل بوجه بشوش ومودة، وعندما حكيت له ما كان، وقام بعمل رسم قلب، وكان اختراعًا غير شائع نسبيًّا، أشاد بكفاءة الدكتور كمال نخلة وكيف توصل لتشخيصه بالسماعة وحدها. أعاد لي الطبيب (الذي لم أعد أتذكر اسمه) الحياة، وهوَّن من حالتي وقال إنني أعاني من تليف في الصمام الميترالي، وإن عليَّ الانتظام على حقنة بنسلين كل ستة شهور حتى سن الحادية والعشرين، وإن عليَّ التوجه إلى أقرب طبيب قلب في حال ارتفعت درجة حرارتي. بُعثت من جديد. مستعد لعمل أي شيء امتنانًا لنجاتي. كانت أمي كما ذكرت قد اتفقت على أن تستبدل بشقتنا شقة أكبر (٣ غرف). المهم قمت أنا وعبد العاطي (صديقي منذ المرحلة الثانوية، ولا يزال، ونتواصل من حين لآخر، وكانت أمي تحبه وتعتبره أحد أبنائها) وحدنا بنقل أثاث المنزل من الدور الخامس للدور الخامس في الشقة الجديدة، ابتهاجًا بالعودة إلى الحياة.

كان الخامس من يونيو ١٩٦٧ يومًا فاصلًا بين مرحلتين وعالمين مختلفين في حياتنا. من الكرامة والعزة وأحلام الوحدة العربية و«تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا» وصواريخ القاهر والظافر، إلى الخراب والضياع المفاجئ. ريح عاتية، لم تبقِ ولم تذر، نقلتنا من حال إلى حال. تخيل نفسك تعيش في دفء خيمة وفجأة تطير من فوقك، وتتركك عالقًا وسط صفير الرياح ورمال الصحراء التي تعمي الأبصار. قبلها بقليل، ظهر في سماء مصر نجم لامع أثار ضجة عظيمة وصار حديث الناس في عموم البلاد. ظهر مطرب سوري، صوته جبلي مميز، ذكوري حتى النخاع، اسمه «فهد بلان». أثناء الغناء كان يهز كتفيه بصورة دائمة ويلوح بمنديل في يده. كان الصوت جديدًا على آذان المصريين، وأحبوه. لكنهم اعتبروه بعد النكسة نذير شؤم. كان من أغانيه التي ذاعت وقتها «واشرح لها» و«ركبنا ع الحصان» و«يا سالمة» وغيرها. وكانت له أغنية حماسية تحمل كل ملامح البداوة وفيها جملة لو قيلت الآن لحوكم صاحبها أمام محاكم حقوق الإنسان الدولية، ولَطورد مطاردة داعش. يعلن، بعد أن يؤكد حنينه إلى النزال والحرب، ما ينتويه إذا ما وقع العدو في يديه: «نشرب دم الغاصب شُرب ونرده مهدود الحيل!»، فهو لن يكتفي بقتل الغاصب، بل وسيشرب دمه!

كان الخامس من يونيو هو أول أيام امتحان الثانوية العامة. ذهبت إلى لجنة الامتحان في الصباح الباكر. وبعد أن اتخذنا أماكننا حسب أرقام الجلوس، بدأوا يوزعون علينا أوراق الأسئلة والأجوبة، وبدأنا نؤدي الامتحان. لكن بعد قليل دوت صفارات الإنذار فجأة، وجاء المراقبون وجمعوا أوراقنا على عجل، وأبلغونا بتأجيل الامتحان إلى أجل غير مسمى. إذن هي الحرب التي انتظرناها طويلًا. كان لسان حالي ولسان حال كل الناس يقول: «ها قد حانت الفرصة لنضع حدًّا لهذا الكيان المصطنع والغاصب». عدنا جريًا إلى بيوتنا لنتابع أخبار النصر. وبشرنا أحمد سعيد من إذاعة «صوت العرب» بما كنا نتوقعه وننتظره: إسقاط ٢٣ طائرة ثم وصل العدد بالتدريج إلى ١٠٠ طائرة بعد ذلك، وسط أناشيد حماسة وفخر واستهانة بالعدو الصهيوني، بوصفه مجموعة من العصابات لو تجمعنا بالعصي وحاصرناهم لا بد أن نهلكهم، بل ولا داعي للعصي فنحن لو اكتفينا بالبصق عليهم لأغرقناهم. فعددنا كعرب أضعاف

أضعاف عددهم. بلغت الروح العنان، وسكرنا، كلنا سكرنا. لم يشك أحد في النصر ولو للحظة. حالة من اليقين النادر تحلق بنا. النتيجة محسومة مسبقًا: نحن ١٠٠ مليون وهم لا يزيدون على الثلاثة ملايين. سنغرقهم حتمًا في البحر.

لكن فجأة بدأ شيء ما في رائحة الجو يتغير. وحين سمعت أم كلثوم تنشد بعد ذلك بيومين «مصر تتحدث عن نفسها»، وعندما وصلت إلى «لا تبخلوا بمائها على ظمي وأطعموا من خيرها كل فم»، شيء ما في صوت أم كلثوم يومها أعطاني الإحساس ببلد يرحل وهذه وصيته الأخيرة. بعدها بدأ التراجع في النبرة ثم في مضمون الكلام إلى أن اعترف عبد الناصر بالهزيمة وبمسؤوليته عنها وأعلن تنحيه الشهير. وخرجنا نلطم الخدود ونطالب الزعيم الأمل بالبقاء. فلم نعرف غيره. انكشف عنا الغطاء. وصارت سحابة سوداء تحلق فوق رؤوسنا، وتصاحبنا أينما ذهبنا. كان خطاب التنحي مثل رفع الغطاء فجأة عن نائم في عز البرد، تمامًا كما كانت النكسة. فجأة يرتفع عنك الغطاء، للمرة الثانية، في عز الدفء والنوم العميق، ليبلغوك أن أباك قرر أن يترك البيت بما هو عليه ويتركك بلا أب، يتيمًا، بائسًا، ضائعًا. فجأة، شعرنا جميعًا بالبرد والضياع. خليط من مشاعر الحب والخوف والضياع والتمسك بآخر خيط للأمل. منذ يوليو ١٩٥٢، ملأ عبد الناصر حياتنا، ولم يعطِ أي فرصة لسواه. صارت بيننا وبينه عِشرة وعيش وملح. نصحو وننام ونحلم على وقع خطاباته وبياناته. صوره في كل مكان وإنجازاته، على الرغم من الهزيمة، تتردد في كل حين ونصدقها. لم نعرف غيره ولا لنا غيره. كان عبد الناصر يملأ حياتنا، وهو المسؤول في النهاية عما حدث وعليه أن يتصدى هو نفسه لعلاج ما تسبب فيه. كيف يتركنا وسط بحر الظلمات ويتخلى عن مسؤوليته؟ دوامة سوداء أحاطت بنا، جعلتنا لا نرى سواه منقذًا. هو الأب والأخ الأكبر، هو ربان السفينة ولا بد من التمسك به وإلا غرقنا.

بعد أن انتهى عبد الناصر من خطابه، انطلقت صفارات الإنذار. لكن الناس بدلًا من أن تطفئ الأنوار، فاضت على الشوارع فيما يشبه الشلال. انطلقنا مثل كلاب ضالة أو حيوانات هائمة تبحث عن راعيها. قضينا ليلة سوداء في الشوارع في انتظار أن يرجع عن قراره (خاصة أنه كلف زكريا محيي الدين بتولي الرئاسة، وكان زكريا وقتها محسوبًا على الأمريكان، كما كان هو الذي حاول زيادة سعر كيلو الأرز من أربعة قروش إلى أربعة قروش ونصف. يومها

أطلقت عليه صفحات الكاريكاتير «بطل رفع الأسعار»).

كان مشهد المشاهد عندما أعلن جمال عبد الناصر تنحيه عن الحكم ليصبح مواطنًا عاديًّا يختار له الوطن مكانًا آخر يخدم منه هذا الوطن، كان هذا يوم التاسع من يونيو بعد العشاء بقليل. وبعد انتهاء الرئيس من خطابه، خرجت مصر عن بكرة أبيها، وخرجتُ معها. ناس ضالة، كان لهم قبل قليل بوصلة توجههم وقبطان يقودهم، وفجأة وجدوا أنفسهم في بيداء مكشوفة، فقاموا يتمسكون بما اعتادوا عليه. لم نكن نعرف غيره ولا نرى له بديلًا. شعبنا يعشق الثبات ويؤمن بأن من تعرفه أفضل ممن لا تعرف. بكى الناس وتشحتفوا، وعدل الرئيس عن التنحي. وبشرنا بهذه البشرى محمد أنور السادات، رئيس البرلمان (مجلس الأمة) حينها، والمذيع المعتمد في المواقف الجليلة منذ أعلن بصوته عبر الإذاعة بيان الثورة.

وانقلب الغم إلى فرح غامر، وعدنا إلى بيوتنا. وبهذا الحمل الثقيل فوق ظهورنا، انهمكنا في إقامة السواتر الخرسانية أمام البيوت، ودهان الشبابيك باللون الأزرق، واعتدنا صوت صفارة الإنذار ثم صفارة الأمان.

وعاد الريس، وانهمك الجميع في خدمة المعركة القادمة والإعداد لها. نظمت مع أقراني من ساكني مساكن الفرنواني الشعبية مجموعة لمراقبة تقييد الإضاءة وتنفيذ تعليمات الدفاع المدني. أعددت كروكيًّا للمساكن، وقسمنا أنفسنا عليه، ونظمنا جماعات منا تذهب لتلقي التدريبات العسكرية. وما زلت أتذكر أننا كنا نتدرب على بندقية من طراز «لي إنفيلد» العتيق التي كان يحملها الغفر في الأرياف. وبعد قليل، فقد المسؤولون حماسهم للفكرة وعدنا إلى ممارسة حياتنا التي اختلطت، إلى الأبد، برحيق النكسة المر. بعدها، وحتى الآن، لم أصحُ يومًا مستبشرًا أو مقبلًا على الحياة، بعد أن فقدت، وإلى الأبد، صفاء ذهني وروحي، ومعي جيلي. ومن الأسئلة التي ظلت معلقة: «هل كان عبد الناصر وهو يتخذ قرار الحرب لا يعلم بحال الجيش وقتها، أم أنه كان يعلم ومع ذلك اتخذ القرار بإعلان الحرب (بإغلاقه مضايق تيران وطلبه سحب القوات الدولية من سيناء)؟». ما توصلت إليه بعد مرور كل تلك السنين أن عبد الناصر تخيل غالبًا سيناريو شبيهًا بسيناريو ١٩٥٦، يسخن الموقف، فتسارع القوى العظمى للتدخل سياسيًّا للحيلولة دون نشوب الحرب، وتبقى الأوضاع على ما هي عليه لحين التوصل إلى حل، فيكون بهذا

حقق نصرًا سياسيًّا. عمومًا، لا تزال هناك الكثير من التساؤلات المتصلة بتلك النكسة لم تجد إجابتها حتى الآن وعلى الرغم من مرور كل تلك السنوات.

وكان الموقف الأمريكي بالضغط على الدول الثلاث للانسحاب من المواقف التي أثارت اللغط. فقد كانت المرة الأولى، وربما الأخيرة، التي تقف فيها الولايات المتحدة ضد إسرائيل. فما الذي جعل الولايات المتحدة تتخذ هذا الموقف؟ رد الأستاذ هيكل وقتها الموقف إلى شجاعة ونزاهة الرئيس أيزنهاور. لكن الحقيقة أن الموقف كان فرصة لا تعوض للإعلان رسميًّا عن تشييع الاستعمار القديم (إنجلترا وفرنسا بالأساس) ليبدأ الأمريكيون عصر الاستعمار الجديد، وهو ما يؤكده الإعلان في العام التالي مباشرة عن «مشروع أيزنهاور لملء الفراغ في الشرق الأوسط».

* * *

وسط هذه الأجواء، دخلت الجامعة موسم ١٩٦٧-١٩٦٨

كان عام ١٩٦٨ عامًا حاسمًا في العالم كله. ففي مايو من هذا العام، قام طلاب فرنسا بثورة ثقافية سياسية اجتماعية، عمت البلاد وتجاوزتها إلى غيرها من بلاد أوروبا، بل وبلاد العالم. كانت تلك الحركة احتجاجًا على الرأسمالية والنزعة الاستهلاكية والإمبريالية الأمريكية، وكذلك الجمود الذي أصاب أوروبا والحاجة إلى تجديد مؤسساتها. أما نحن في مصر، فقد انتفضنا قبل ذلك بحوالي ثلاثة شهور. كانت الانتفاضة رد فعل مباشرًا على أحكام القضاء الهينة التي صدرت ضد قادة الطيران، والذين قُدموا ككباش فداء للتستر على المسؤولين الحقيقيين عن النكسة. لكنها كانت في ذات الوقت تعبيرًا عن الرغبة في تغيير أوضاع كثيرة قادت إلى النكسة، والتستر على فشل النظام في تحقيق تنمية حقيقية وجر البلاد إلى حرب اليمن ثم النكسة. كان عمال حلوان هم الذين بدأوا عندما نظموا مظاهرة احتجاج تصدت لها الشرطة فقتلت عاملين وأصابت ٧٧، بينما بلغت إصابات الشرطة ١٤٦ مصابًا. وكان الطلبة من جانبهم يعدون العدة للاحتفال بيوم الطالب العالمي في ذكرى انتفاضة ٢١ فبراير ١٩٤٦. وقد زادت أحداث حلوان من غضبهم. كانت المظاهرات التي خرجت يومها من حلوان والجامعات هي الأولى من نوعها طوال حكم عبد الناصر، وفوجئ بها النظام، وهذا ما يبرر زيادة عدد المصابين من رجال الشرطة على المتظاهرين، حسبما ورد ببيان وزير الداخلية حينها.

لكن هذا سيتغير بعد ذلك عند التصدي للانتفاضة الطلابية في ١٩٧٢.

لم يكن الأمن المركزي قد أُنشئ بعد، وكان الجنود (بلوكات النظام) يركبون خيولًا ويتسلحون بدروع وعصي. وكانوا غير مدربين تدريبًا كافيًا. كان النظام واثقًا، حتى ذلك الحين، من إحكام سيطرته على الشعب بعد أن قضى على معارضة الشيوعيين والإخوان. وكان من العوامل الحاسمة لصالح طلاب جامعة القاهرة انضمام شباب وصبية بين السرايات، الذين أوقعوا إصابات كثيرة بين رجال الشرطة بالحجارة. أما أنا، فقد فوجئت بالمشهد وأصابتني رجفة. وانتابني خليط من مشاعر الخوف والتفكير في الانسحاب وتأنيب الضمير. مضطربًا، انسحبت بعد حين، بأحاسيس منقسمة بين الواجب والشعور بالخيانة. وصلت البيت منهك الأعصاب. تنفس أبي الصعداء. لكني ظللت متوترًا وقررت العودة مرة أخرى، لكن أبي تصدى لي وحذرني بأن بيان الداخلية سيصدر بعد قليل، وسيدعي أن ما حدث بفعل مندسين على الطلاب، ولو قُبض عليك سيعتبرونك ضمن المندسين بسبب تاريخ أبيك. كان كمن يقرأ من كتاب مفتوح. ففي اليوم التالي، على ما أذكر، صدر بيان الداخلية ليؤكد على أن القاعدة الطلابية سليمة وأن ما حدث من فعل مجموعة مندسة. لكن هذا لم يخفف قَطُّ من شعوري بالتخلي عن زملائي في هذا الموقف العصيب.

لم تقتصر المظاهرات على جامعة القاهرة، بل خرجت جامعتَا عين شمس والإسكندرية. صحيح أن أحكام الطيران كانت السبب المباشر وراء التظاهرات، لكن المطالب التي تقدم بها الطلاب تضرب عميقًا في الأزمة التي كانت تعيشها مصر بعد النكسة وتراكمات الحكم البوليسي. كانت المطالب:

١- الإفراج فورًا عن جميع الطلاب المعتقلين.
٢- حرية الرأي والصحافة.
٣- مجلس نيابي حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة.
٤- إبعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات.
٥- إلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها.
٦- التحقيق الجدي فى حادث العمال فى حلوان.
٧- توضيح حقيقة المسألة فى قضية الطيران.

٨- التحقيق فى انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة.

واضطر النظام ولو مؤقتًا للرضوخ، فأعيدت محاكمات الطيران وتشكلت حكومة جديدة، معظمها، للمرة الأولى، من أساتذة الجامعة المدنيين. وبعد قليل، أصدر جمال عبد الناصر ما يمكن أن نعتبره برنامجه الإصلاحي (بيان ٣٠ مارس). وعلى الرغم من بقاء الحرس الجامعي، فإنه لم يعد يتدخل في أنشطة الطلاب كما كانت الحال سابقًا. وصدر قرار جمهوري بلائحة جديدة تمخض عنها اتحاد طلاب مستقل نسبيًّا.

الأهم من كل هذا أننا تمتعنا بعد المظاهرات بحرية نسبية، عبرت عن نفسها في ازدهار الأنشطة الثقافية والسياسية. وفي ظل هذا الزخم، كان أول ظهور عام للشيخ إمام. فقد أقيمت احتفالية في كلية الآداب لإحياء ذكرى استشهاد تشي جيفارا والمناضل المغربي المهدي بن بركة. كان المتصدر للموضوع حينها زميلنا الشاعر زين العابدين فؤاد، عضو اللجنة الثقافية بالكلية، والذي نجح أيضًا في التواصل مع السفير الكوبي ودعوته للحفل. وكان من المشاركين في تنظيم الحفل الشاعر الراحل نبيل قاسم الذي ذهبت معه إلى عدد من سفارات أمريكا اللاتينية وكذلك فيتنام، للحصول على صور ذات علاقة بالمناسبة لعمل معرض صور على هامش الاحتفال. يومها، امتلأ مدرج ٧٨ بكلية الآداب (من أكبر مدرجات الجامعة) بالجمهور عن آخره. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يغني فيها إمام وسط حشد بهذا الحجم الضخم أغانيه التحريضية (حسب الصديق زين، لم يحضر نجم الاحتفالية). كان من شأن هذا الحدث ارتفاع شعبية إمام ونجم ولجوء النظام إلى محاولة احتوائهما بدلًا من المواجهة معهما. فغنت ليلى نظمي أغنية «ساعة العصاري يا نسايم» وغنى محمد رشدي «دلّي الشيكارة»، وهما من كلمات نجم وألحان إمام. وفي رمضان عام ١٩٦٨، قدمت الإذاعة برنامجًا يوميًّا بعنوان «مع ألحان الشيخ إمام» إعداد وتقديم رجاء النقاش. ونشرت صحف الحكومة موضوعًا عنهما وصورة لهما وهما بالبيجامة مع خبر عن توفير الحكومة مسكن لهما. لكن هذا لم يغير من موقفهما أو يخفف من حدة أغانيهما، وعاد النظام إلى مطاردتهما. أما أنا، فقد سبق أن تعرفت على أغاني إمام ونجم عن طريق الحلاق الخاص للأستاذ محمد حسنين هيكل الذي كان على علاقة بأحد أصدقاء أبي، وأحضر لنا ذات ليلة جهاز التسجيل الخاص به ليسمعنا أغانيهما. حركت الأغاني شيئًا

في داخلي بل وأصابتني رعدة من جرأتها، وطلبت خفض الصوت حتى لا يسمعنا أحد من العمارات المجاورة. فقد كانت المرة الأولى التي أستمع فيها لكلمات بهذه القوة والجمال والمباشرة التي لا تعرف التورية.

الشيخ إمام ونجم ومحمد علي

ومما زاد من شهرة إمام ونجم في ذلك الوقت مقال كتبه الدكتور فؤاد زكريا ونُشر بمجلة «الفكر المعاصر»، وكان بعنوان «ظاهرة الشيخ إمام». ومنذ تلك الاحتفالية، لم تنقطع الصلة بين نجم وإمام وجمهورهما من الطلبة، الذين صاروا من مريديهما وعرفوا طريقهم إلى بيتهما في حوش قدم. وألقت الشرطة القبض بعد ذلك على نبيل قاسم، لكن البوابة كانت قد انفتحت واستمر شلال النشاط الطلابي واكتسب المزيد من الحيوية. فتكاثرت الفرق المسرحية والموسيقية الجامعية في أكثر من كلية، كما ظهر في الجامعة آنذاك عدد من الشعراء. وشهدت كلية الآداب أول نادٍ للسينما، وكان أول عرض له في مدرج ٧٨ الكبير، الذي اكتظ بالجمهور لمشاهدة فيلم شهير وقتها هو «الملاك الأزرق»، الذي كان بداية شهرة الممثلة الكبيرة مارلين

ديتريش. كان سامي السلاموني صاحب الفكرة وشارك في تحقيقها، حسبما أتذكر، صلاح هاشم ومحمد عبد العال (الفيل) وسامي الرزاز وخالد جويلي. كما أفرزت تلك الفترة كثيرًا من نجوم المستقبل في الفن والثقافة.

منذ المرحلة الإعدادية، عشقت اللغة الإنجليزية، وعاهدت نفسي على الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بعد انتهاء دراستي الثانوية. وفي امتحان الثانوية العامة حصلت على مجموع كبير في اللغة الإنجليزية؛ ما مكنني من الالتحاق بهذا القسم الذي ظللت أتمناه منذ زمن. لكن بعد أن التحقت بالقسم، أحسست بغربة شديدة. فالقسم معظمه من البنات خريجات المدارس الخاصة، من أبناء الأغنياء، يرتدين أرقى الموضات، يتحفظن في تعاملاتهن ويمسحن أفواههن إذا ابتسمن. أضف إلى هذا أن أسعار كتب القسم كانت باهظة الثمن، مقارنة ببقية الأقسام، وفوق طاقتنا كأسرة. وكان هناك سبب آخر جعلني أقرر في النهاية ترك القسم والانتقال إلى قسم آخر. كان الدكتور رشاد رشدي هو رئيس القسم، ويدرسنا مادة النقد. كان بالنسبة لنا نحن الطلبة اليساريين أحد رموز اليمين في الثقافة، وكانت بيننا وبينه مشاحنات دائمة. كنا نرفع شعار الالتزام، وهو يرد: «يا ابني art is art». وانتهيت، مع زميل لي هو المرحوم سيد حلمي، إلى طلب نقلنا إلى قسم آخر. تعجب مسجل الكلية، الدكتور صفي الدين أبو العز، الذي سيتولى فيما بعد وزارة الشباب، من الطالبَين اللذين يتركان بكامل إرادتهما القسم الذي يتمناه كل طالب. وعندما سألنا أي قسم نختار، أجبناه: «أي قسم». فاختار لنا الرجل قسم الصحافة. كانت المسألة بالنسبة لنا سيان. فبعد التخرج ستقوم القوى العاملة بتعييننا في أي وظيفة غالبًا لا تناسب مؤهلاتنا.

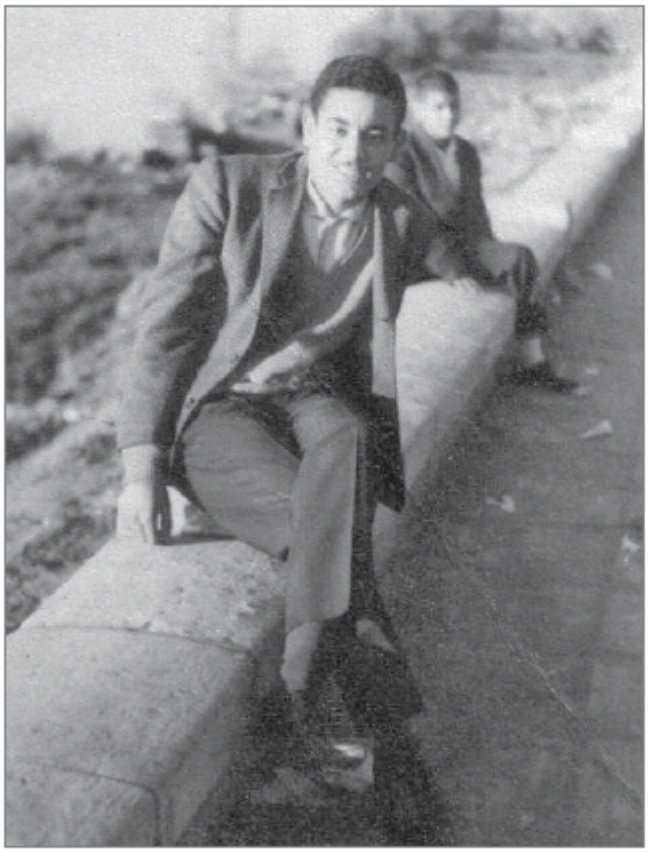

وأنا في الجامعة

في قسم الصحافة كان العدد أقل مع تفوق نسبة الطالبات، لكنهن أقل تحفظًا وأكثر تفاعلًا من قريناتهن في قسم اللغة الإنجليزية. والدراسة في القسم لا تحتاج إلى مجهود كبير كذلك المطلوب في قسم اللغة الإنجليزية. كانت المواد المتخصصة قليلة: تحرير صحفي، إخراج صحفي، تاريخ صحافة، تاريخ طباعة. أما باقي المواد فهي من أقسام وكليات أخرى. فدرسنا إحصاء وقانون دولي وتاريخ يوناني وروماني وحضارات شرقية قديمة واقتصاد ولغة إنجليزية. لكن منذ وقت مبكر قدم لي مدرس الأدب الإنجليزي الدكتور فاروق عبد الوهاب نصيحة غالية، اتبعتها. كان الدكتور فاروق من تلاميذ الدكتور رشاد رشدي، وشغل منصب سكرتير تحرير مجلة «المسرح» تحت رئاسته، وكان يدرسنا نماذج من الأدب السوفيتي، مختارًا أسوأ نماذجه، والتي كان يطلق

عليها «الأدب الزدانوفي». قال لي الدكتور فاروق: «دراستكم لا تحتاج أكثر من أسبوعين مذاكرة آخر السنة»، وقد كان. كنت أحضر المحاضرات بلا انتظام وأحيانًا أقصد الكافتيريا من دون أن أحضر المحاضرات، حيث ألتقي زملائي وزميلاتي هناك. وكان هذا سببًا لرسوبي، ويا للعجب، في اللغة الإنجليزية بالسنة الثانية بسبب نسبة الحضور.

كافتيريا آداب كانت أيقونة كافتيريات الجامعة ومقصدًا لغيرنا من طلبة الكليات الأخرى، وهو ما أتاح عقد الكثير من الصداقات مع طلاب هذه الكليات. كانت مكانًا مبهجًا للقاء: النسبة الغالبة من طالبات الطبقة الوسطى، أنيقات الملبس (كانت الموضة وقتها الميكروجيب)، وأنت ومقدرتك على الاقتراب والتفاعل. لم يكن الحجاب قد ظهر بعد، ناهيك عن النقاب، وكانت العلاقة بين الجنسين سلسة لا عقد فيها ولا حرمانية. ولذلك لم نسمع وقتها ولو لمرة واحدة عن اغتصاب أو تحرش.

قسم الصحافة في رحلة إلى الفيوم، ويظهر في الصورة الدكتور سامي عزيز

ولا أنسى صبيحة حفل عبد الحليم حافظ الذي غنى فيه: «ميِّل وحدف منديله كاتب على طرفه أجيله»، وكيف افترشت الزميلات نجيل الحديقة المواجهة للكافتيريا، وهن يغنين بنشوة ما بعدها نشوة الأغنية الجديدة،

ويلوحن بالمناديل ويتمايلن. حالة نشوة جماعية نادرة، تقترب من الزار، انضم إليها الطلاب بعد حين. كانت الحياة بسيطة خالية من العقد. كنا في مقتبل العمر وبالنا خالٍ بلا مسؤوليات. لم أشترِ كتابًا أو أكتب مذكرة، وكنت أكتفي آخر العام بالمذاكرة مع اثنتين من زميلاتي. كنت أدخل بيوت زميلاتي بلا أي حساسيات وصادقت أسرهن. كنت أذهب أحيانًا للمذاكرة، وأحيانًا أخرى لمجرد الود والزيارة. وقد استمرت واحدة من هذه العلاقات حتى الآن، صديقة العمر الصحفية والكاتبة صاحبة القضية والموقف كريمة كمال. وكنت أعرف دفعتي في أقسام الكلية الأربعة عشر تقريبًا. وقضيت معظم سنوات الدراسة تقريبًا مع زملائي. نادرًا ما كنت أبيت في منزلي، وحتى عندما كنت أبيت بمنزلي نادرًا ما كنت أرى أبي، لأنه كان ينام مبكرًا ويصحو مبكرًا، بينما كنت أنام متأخرًا وأصحو متأخرًا. وهكذا كنا ننام في نفس المنزل من دون أن نلتقي.

تعرفت آنذاك على طالب بقسم الصحافة يسبقني بعام هو المرحوم رجائي الميرغني (الصحفي والنقابي المعروف ووكيل نقابة الصحفيين الأسبق)، عرفته عن طريق دفعتي وابن بلده المنيا المرحوم سيد حلمي. كان رجائي من المنيا وسيد من قرية قريبة منها اسمها «ريدة». وقد عشت مع رجائي وإخوته (المراغنة) فترات طويلة من سنوات الجامعة. وزرت معهم بلدهم وتعرفت على بقية إخوتهم. وهناك تعرفت أيضًا على عدد من أصدقائهم. ومن بين أولئك الأصدقاء أحد الكوادر الشيوعية القديمة من منظمة «العمال والفلاحين» هو عم أحمد عبد العزيز. كان يملك حينها دكانًا صغيرًا يضم نولًا لعمل السجاد البلدي من فضلات الأقمشة، بشارع الحسيني على ما أتذكر. وعندما أعجبتني إحدى هذه السجاجيد وأردت شراءها، سألت: «كم ثمنها؟»، فأجابني: «جنيه». أحسست أنه يجاملني وأنها أعلى سعرًا بكثير. ولكي يحسم الجدل ويلجم احتجاجي، قال: «أقسم بشرفي الماركسي أن هذا هو ثمنها». الله يرحمه.

الصديق وزميل الدراسة رجائي الميرغني

ولسبب لا أدريه، وجدتني أقرب إلى الطلبة اليمنيين بالذات من دون غيرهم من الطلبة العرب. فقد كانت دفعتي تضم طلابًا من البحرين ولبنان وفلسطين والسودان والصومال والكويت، وليبيا، والسنغال، إضافة إلى اليمن. جذبني إلى الطلبة اليمنيين بساطة وعفوية أزالت أي غربة بيني وبينهم منذ اللحظة الأولى. كانت المجموعة منقسمة بين الماركسيين والقوميين العرب، وكان خطاب الفصيلين في ذلك الحين متشابهًا إلى حد كبير. وكانت المجموعة تضم، إلى جانب طلبة آداب، طلابًا من كلية الحقوق والتجارة والاقتصاد والعلوم السياسية. كانت الدراسة في قسم الصحافة، كما قلت سابقًا، لا تستلزم وقتًا طويلًا، لذلك كان لدينا وقت فراغ كبير، والحياة متسعة. وتوثقت علاقتي باثنين على وجه التحديد: الطالب محمد علي الشامي الذي كان يحاول حينها كتابة الشعر، والصحفي البارز (فيما بعد) محمد المساح. تعلمت السهر على أصوله في تلك الفترة، وكذلك التدخين، بعد أن أقنعني الشامي ذات ليلة باردة ونحن نعبر كوبري الجامعة أنها تدفئ!

زميل الدراسة الشاعر اليمني
محمد الشامي

مع الصحفي اليمني الكبير وزميل الدراسة
محمد المساح

وبينما يتحلى الشامي بالتأنق والاتزان، كان المساح نموذجًا للكائن البري الفطري، قليل الحجم، ناشف العود، محب للحياة، قارئ نهم للأدب، فوضوي، لا يهتم كثيرًا بالسياسة وإن كان متورطًا فيها. ذات يوم دخل معركة مع طالب كويتي ضعفَي حجمه، لكن المساح استطاع رفعه من وسطه ودفعه إلى الأرض، ليخرج من المعركة منتصرًا والخزي والشماتة يلاحقان خصمه (صدر عنه كتاب في ٢٠١٩ بعنوان المقال الثابت الذي ظل يكتبه سنوات عمره «لحظة يا زمن»، تضمن جانبًا من ذكرياته عن هذه المرحلة من حياته، وعلمت أنه عاد للعيش في قريته بعد انتهاء رحلته مع الصحافة، وتوفي في أبريل ٢٠٢٤، مات فقيرًا معدمًا رافضًا للمناصب، مبتعدًا عن كل أشكال السلطة). كذلك ارتبطت بطلاب يمنيين من الكليات الأخرى من قاطني الشقة ٤ بشارع بكر الصدفي بالمنيل (لا زلت على صلة بالسفير علي محسن حميد الذي كان طالبًا بكلية السياسة والاقتصاد ومن سكان الشقة)، ثم تعرفت بعد ذلك ببقية أفراد القبيلة اليمنية الموزعة غالبًا بين المنيل والدقي.

وقد ظلت علاقتي بناس اليمن حتى اليوم، كل جيل يسلمني إلى الجيل التالي.

ومن الشخصيات اليمنية المؤثرة التي التقيتها كان الطالب إسماعيل الكبسي من كلية الحقوق. كان إسماعيل شخصًا نقيًّا وحادًّا في تفكيره، والإنسان عنده وحسب لهجته الصنعانية «إما برجوازي جذر (يعني قذر) أو مناظل (مناضل) ثوري»، ولا وسط. إنسان بالغ النقاء، يرى الأشياء إما أبيض أو أسود. ذات ليلة بتُّ بمنزله. كنت وقتها أعمل بالقطعة بجريدة «العمال»، وأعددت موضوعًا قبل أن أنام أهنئ فيه الطبقة العاملة بمناسبة عيد الأول من مايو. عندما استيقظت وجدت تعليقًا من إسماعيل على المقال بخط يده: «ممارسة فكرية جبانة ينضح بها الفكر الماركسي داخل مصر». بعد أن تخرجت من الجامعة بعامين تقريبًا، ذهبت إليها في زيارة لأصدقائي من الدفعات التالية ومن تخلفوا من دفعتي. وعندما ذهبت إلى كلية الحقوق فوجئت بلافتات تكريم «الشهيد» إسماعيل الكبسي. ما الذي حدث؟ بعد أن أنهى إسماعيل دراسته، عاد إلى البلاد رافعًا شعار «الكفاح المسلح»، وكون مجموعة من المسلحين، لكنه استشهد في كمين أعده النظام. هذا ما علمته من الأصدقاء، وقد حزنت كثيرًا عليه.

في الصف الثاني، قرر الدكتور سامي عزيز أن يكون بحث ذلك العام عن إحدى الشخصيات الصحفية. وكنت في ذلك الحين لا أقدِّر كثيرًا الكتَّاب الساخرين وأعتبر أعمالهم خفيفة. لذلك طلبت من الدكتور سامي تحديد الكتَّاب، «علشان ما يجيش حد يعمل بحث عن السعدني أو محمد عفيفي أو أحمد رجب»، كما قلت له. وفوجئت بجواب الدكتور سامي: «إنت بالذات هتعمل بحثك عن محمود السعدني»! أُسقط في يدي. كان الطلبة يختارون عادةً أحد الصحفيين ممن صدرت عنهم كتب تتناول مسيرتهم أو تتوفر معلومات منشورة عنهم، مثل الصاوي محمد أو عبد القادر حمزة. ولما لم تكن هناك مادة كافية عن محمود السعدني، قمت بالاتصال ببعض أصدقاء شبابه وجمعت بعض المعلومات الشخصية عنه. لكن هذا لم يكن كافيًا لبحث جامعي. ولم يكن أمامي سوى الاتصال به مباشرة وترتيب موعد معه. كان للسعدني في ذلك الحين برنامج إذاعي يوقِّعه بـ«النصاب، الحلنجي، العبد لله محمود السعدني». وعندما سألته عن السبب، قال: «اسمع يا بدر، لو قلتلك يا

بدر إنت ابن كلب هتزعل. لكن لو قلتلك إنت ابن كلب زيي مش هتزعل. فأنا باشتم نفسي قبل ما يشتموني ولاد الكلب». ونجحت في النهاية في الحصول على بعض المعلومات والإرشادات، إضافة إلى قراءات لبعض أعماله، التي مكنتني من إتمام البحث.

* * *

الحياة الثقافية في قاهرة الستينيات كانت مزدهرة. مسارح وسينمات عامرة بالجمهور، وكتب بأسعار معقولة واختيارات جيدة، وندوات ومحاضرات ثقافية في شتى الموضوعات. كان جدولنا مشحونًا بين الأنشطة وعزومات الأصدقاء للشراب. وكان هناك مصدر للشراب المجاني، تتيحه من حين لآخر سفارات «المعسكر الاشتراكي». ذهبنا في إحدى هذه المرات إلى حفل أقامته سفارة كوريا الشمالية في ذكرى ميلاد الزعيم الكوري كيم إيل سونج. وقفنا نصف الساعة تقريبًا نستمع إلى خطبة عصماء، ألقاها الملحق الثقافي عن آل سونج وتاريخهم النضالي الكبير من أجل البلاد. اللافت أن الرجل كلما ورد اسم «كيم إيل سونج» كان لا بد أن يتبعها بعبارة «الزعيم المحبوب والمبجل من قبل الأربعين مليون كوري»، تمامًا مثلما كان يفعل فؤاد المهندس في فيلم «صاحب الجلالة» كلما ذكر اسم «مارينجوس الأول». بعدها، انفتح سبيل الويسكي، أنهار من الويسكي (كانت هذه الأنهار تمتد إلى كبار الصحفيين حيث ترسل صناديق الويسكي إلى مكاتبهم بالصحف). بعد أن انتهى الحفل وبعد أن تشبعنا بالكحول، ركبنا الترولي باص، الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تقودنا مباشرة من الزمالك إلى المنيل. وكانت هذه الوسيلة، التي انقرضت سريعًا، دائمة الاهتزاز وتحتاج إلى جهد وتركيز للحفاظ على التوازن، خاصة في الملفات. وعندما غادرنا الترولي في المنيل، كان أثر الخمر قد بدأ في التراجع وأفقنا من سكرنا.

كنا في ذلك الحين نتمثل شخصية «زوربا اليوناني»، تلك الشخصية التي أبدعها روائيًّا كازنتزاكس وجسَّدها سينمائيًّا أنطوني كوين. شخصية تجمع بين الفوضوية والعبث والعدمية، لكن بُعدها الإنساني جعلها أيقونة شباب العصر المتمرد. لذلك كانت تحظى برفض الأيديولوجيين وتثير سخريتهم، وتحولت إلى اتهام وسبة، بل وأحيانًا خيانة تعرقل سبيل النضال!

على الرغم من كل هذا اللهو، كانت تلك الفترة هي الأكثر خصوبة في

التأسيس المعرفي. في هذه الفترة شغفت بالفلسفة اليونانية والمسرح اليوناني، إلى جانب كتابات سلامة موسى. مما أتذكر أنني قرأت حينها كتاب «تطور الفكر السياسي» لجورج سباين إلى جانب عدد من الكتب المتصلة بالفلسفة اليونانية. أما في المسرح، فكانت الفاتحة كتابًا لدريني خشبة بعنوان «أشهر المذاهب المسرحية ونماذج من أشهر المسرحيات»، وهو كما يوحي عنوانه يعطي القارئ فكرة شاملة ومبسطة عن تاريخ المسرح بمدارسه المختلفة، منذ المسرح اليوناني وحتى مسرح العبث. وقرأت مسرحيات لسوفوكليس ويوريبيدز وإيسخولوس وأريستوفانيس، ثم قرأت لموليير وراسين، وغيرهم من كتَّاب المسرح حتى سارتر وكامو. وكان المسرح يقدم عروضًا لتلك المسرحيات على خشبته، وأتذكر أنني شاهدت على المسرح أعمالًا مثل: «أوديب ملكًا» و«أنتيجون» و«السحاب»، وهي من نصوص المسرح اليوناني المشهورة. كما كانت هناك مجلة شهرية للمسرح، يرأس تحريرها الدكتور رشاد رشدي، بخمسة قروش، يحتوي كل عدد منها على مسرحية مترجمة، مع الحرص على تقديم التيارات المسرحية المختلفة: جان أنوي، برتولد بريخت، صمويل بيكيت، أرثر ميلر، ألبير كامو، جان جينيه، وغيرهم. كما كان الاشتراك السنوي بالمجلة (ستون قرشًا) يمنحك، إلى جانب أعداد المجلة، عضوية نادي المسرح وتخفيض بنسبة ٥٠٪ في كل عروض مسارح الدولة. وظهرت أكثر من فرقة مسرحية تابعة للدولة (حتى الآن، فإن وظيفة الدراما ما زالت عندي بمفهومها الذي وضعه كتَّاب المسرح اليونانيون، أي «catharsis»، والتي كان يحلو لدريني خشبة ترجمتها: «تطهير النفس من أدران انفعالاتها»).

سيُقدر لاهتماماتي في القراءة أن تشهد تحولًا كبيرًا نحو التاريخ. حدث هذا بعد لقائي بصلاح عيسى والعمل معه في «دار الفتى العربي». أنت مع الأستاذ صلاح في حضرة التاريخ بشحمه ولحمه. تاريخ حي وممتع، وطريقته في سرده متعة في حد ذاتها. وهو من دلني ووجهني نحو مراجع التاريخ الأساسية؛ الجبرتي وابن إياس والمقريزي وغيرهم. حديثه عن التاريخ ساحر، ويذهب بك إلى مناطق غير معهودة. حضرت معه ذات مرة نقاشًا مع أحد مؤرخي الزمن للاتفاق على عمل كتاب للشباب عن أحد أبطال العرب. كان ما يشغله هو أن نقدم البطل للشباب كإنسان، له أخطاؤه وإنجازاته، وليس سوبرمان، وتجنب

إضفاء القداسة على الشخصيات التاريخية، وهو أمر شائع في الكتابة عن تلك الشخصيات. لكن الرجل لم يستطع تحقيق الفكرة بحكم تأثره بالنهج التقليدي. وكان هذا درسًا جديدًا لي. وهو في كتاباته يُعنى بتفاصيل لا تستوقف غيره. يكفي أن تقرأ له «رجال ريا وسكينة» لتدرك عمق هذا المؤرخ والمفكر، ودأبه في جمع التفاصيل وتكثيفها، وكذلك رشاقة قلمه.

عندما لاحظ شغفي بالتاريخ واهتمامي به، حاول مساعدتي وتشجيعي، فعرض عليَّ أن يعطيني قاموسًا بدأ العمل به لمصطلحات العصر المملوكي، على أن أستكمله. وتحمست للفكرة، وأعطاني كشكولًا يضم ما أنجزه، وقطعت شوطًا لا بأس به بالفعل في جمع تلك المصطلحات أثناء قراءتي. لكني توقفت بعد حين لانشغالي بأعمال أخرى. ونظرًا لتركنا «الفتى العربي» في تلك الفترة، انقطع التواصل بيننا، ولم أره سوى مرة واحدة أثناء رئاسته لمجلس إدارة جريدة «القاهرة»، بصحبة صديقي سيد محمود الذي كان رئيسًا لتحرير الجريدة. لكني ألقيت النظرة الأخيرة عليه بمقابر السادس من أكتوبر بصحبة رفيق عمره محمد عبد الرسول. كان إنسانًا استثنائيًّا رحمه الله.

* * *

في السنة الثانية، تعرفت على بعض زملاء القسم من السنة الثالثة والرابعة، كانوا يعملون بالقطعة في جريدة «العمال» التي كانت تصدر عن اتحاد العمال. صحيح أنها كانت جريدة للعمال إلا أنها كانت ذات طعم مختلف وجذبت كثيرًا من شعراء وقصاصي المستقبل حينها. كانت نكهة «روز اليوسف» واضحة فيها. كان رئيس التحرير الفعلي، عبد الله إمام، من «روز اليوسف»، وكذلك كان المدير الفني لـ«روزا»، عدلي فهيم، هو مديرها الفني، وكان يرسم الكاريكاتير رسامون من «روز اليوسف»، بالإضافة إلى عدد من الكتَّاب، أذكر منهم سعاد زهير. كما كان الخطاط محمود أبو شنب والمصحح رزق هيبة من «روزا». وكان يتولى السكرتارية اثنان: سيد شحم وسامي محمد علي، قبل أن يصبح المخرج التلفزيوني الكبير. وكانت هناك صفحة ثقافية جيدة، يتولى تحريرها لينين الرملي. كان مقر الجريدة بـ«دار الشعب»، وكانت الجريدة تشغل الدور العلوي. وكنا نحصل على ما بين ٢-٣ جنيهات عن الموضوع، وهو مبلغ لا بأس به بالنسبة لطالب في ستينيات القرن الماضي، حيث كان أول مربوط خريج الجامعة ١٧ جنيهًا. وجعلني عملي بالجريدة

أقترب من أباطرة الحركة العمالية في ذلك الحين، وبالذات رؤساء النقابات العامة. تستطيع أن تقول إنهم: نقابيون صفر، من كوادر الاتحاد الاشتراكي، تربَّوا على يد أمن الدولة. وكان هناك فساد واضح في التصرف في أموال العمال، وقبضة قوية تسد الطريق أمام أي معارضة يمكن أن تثور. رأيت البعض منهم وهو يسكن على السطح، ورأيته وهو يركب سيارة آخر موديل، وهو يسكر في أفخر بارات وسط البلد. كانت الانتخابات النقابية متوقفة في تلك الفترة، وأصبح وجود هذه القيادات المفروضة على العمال أبديًّا.

كانت الجريدة بداية تعرفي على مثقفي الستينيات الذين صاروا كبارًا في دنيا الرواية والقصة والشعر. عرفت حينها سيد حجاب ويحيى الطاهر عبد الله وعبد الرحيم منصور. وكان الأبنودي صديقًا لرئيس التحرير، فكان يزورنا كثيرًا في الجريدة، وكان الأستاذ عبد الله إمام يمتلك ريكوردر بَكَر، وهو جهاز لم يكن منتشرًا في مصر، وسجل للأبنودي بصوته قصائده الأولى. واتسع البراح أمامي، فعرفت طريقي إلى مقهى إيزافيتش الشهير بميدان التحرير، ملتقى مثقفي مصر بكل توجهاتهم. وعلى مسافة قريبة، هناك مقهى ريش العتيد، لكنه كان أكثر نخبوية من إيزافيتش. فالأسعار في ريش أعلى بعض الشيء، وفي إيزافيتش يمكنك تناول عيش السرايا أو واحد فورنو (مهلبية في الفرن) لذيذ بقرشين ونصف، يقدمه لك عم جمعة (كتب عنه الأبنودي واحدة من قصائده الجميلة). كانت هناك أكثر من شلة، بينها أكثر من «إحنة». لم تكن إحَن سياسية، بل شخصية في الغالب الأعم. ولأني لم أكن على وعي بما يتداول في الجلسات التي يشهدها المقهى، فقد التزمت الحياد بين المختلفين، واكتفيت بالسمع (ربما كان هذا طبعي)، خاصة أن معظمهم كان يكبرني بثماني سنوات على الأقل. كنا نذهب إلى ريش من حين لآخر، لكن ظلت إيزافيتش هي المأوى الأساسي.

و«إيزافيتش» هو اسم عائلة يوغوسلافية، ذات ميول يسارية. ومما يروى أن الخواجة إيزافيتش هو الذي عرَّف العالم بجريمة قتل شهدي عطية تحت التعذيب في سجون عبد الناصر. فقد أرسل برقية إلى الرئيس اليوغوسلافي، تيتو، يبلغه بالواقعة. وكان الرئيس عبد الناصر وقتها في زيارة ليوغوسلافيا، فأبلغه تيتو بما جرى، وهو ما جعل عبد الناصر يأمر بفتح التحقيق في ملابسات ما حدث (وهي رواية لا توجد مصادر تدعمها). كان ناصر يريد بناء اشتراكيته

لكن بدون الاشتراكيين. وكانت علاقته طيبة مع دول العالم الاشتراكي، أما اشتراكيو الداخل فكانوا يتعرضون للسجن والتعذيب، وهو تناقض محير.

* * *

ليل قاهرة الستينيات حي وأليف ويُغري بالسهر. كنت أنام الثامنة صباحًا وأستيقظ في الرابعة مساء. تسير في شوارع وسط البلد في أي وقت من الليل، فتقابل أصدقاءك بالمصادفة. إذا ذهبت إلى المسرح أو السينما، فلا بد أن تصادف عددًا من أصدقائك وبدون موعد سابق. فلم يكن هناك موبايل للتنسيق، وقليل منا من كان ببيته تلفون أرضي. نعرف مزايا وعيوب كل مكان، وكذلك مواعيد تشطيبه، وأن بار كايرو هو آخر ما يغلق أبوابه. وأنك لو مررت مثلًا ببار كازابلانكا في الثانية صباحًا يمكن أن تقابل سيد حجاب. وكان الملجأ الأخير بعد الرابعة صباحًا هو بوفيه المحطة، الذي يعمل طوال أربع وعشرين ساعة. كنا نذرع القاهرة طولًا وعرضًا ليلًا من دون أن يعترضنا معترض، لا دورية ولا كمين شرطة، أو أمين شرطة يبتزك.

عندما أوشكت دراستي الجامعية على الانتهاء، اتخذت قرارًا بيني وبين نفسي ألا أعمل بالصحافة. كنت أراها مهنة من لا مهنة له، ولا تحتاج إلى دراسة ولا إلى استعداد خاص. الصحفي كما عاينته في ذلك الحين، مجرد مندوب لدى وزارة من الوزارات أو جهة من الجهات، ينقل أخبارها الروتينية ولا مكان لأي سبق صحفي أو خبر يخالف التعليمات. كما أن مكاني، وتطبيقًا للماركسية كما كنت أفهمها حينها وتأثرًا بأبي، ليس في الصحافة بل في أوساط الطبقة العاملة. ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون. فقد شهد النظام في تلك الفترة أزمة خرجت إلى العلن، حيث كان حريصًا على إخفاء أزماته. وقد عُرفت حينها بـ«أزمة علي صبري». كل ما سمعناه حينها أن السيد علي صبري أوقِف في المطار عند عودته من زيارة للاتحاد السوفيتي وجرى تفتيشه وعُثر معه على مقتنيات قيِّمة من بينها سجاد فاخر (وهو سبب لم يكن مقنعًا حينها)، ولم نعرف تفاصيل أكثر من هذا. لكن الواقعة أثارت نوعًا من البلبلة استدعى أن يعقد النظام المؤتمرات واللقاءات لتوضيح المسألة. وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر عقده السادات (رئيس مجلس الأمة) بالقاعة الكبرى بجامعة القاهرة. ذهبت لتغطية المؤتمر للجريدة، وكان ملخص ما قال السادات إن علي صبري «أخونا» وله

«مواقفه» و«أنتم فاكرين إننا ماسكين السكاكين لبعض فوق؟»، ولم يذكر أي شيء عن تفاصيل الأزمة. سارعت بالعودة إلى الجريدة حتى ألحق بعدد الغد (الخميس) من الجريدة. كنت منهك القوى وأعاني من صداع شديد. انتهيت من الموضوع وسلمته إلى رئيس التحرير. لكني فوجئت باستدعاء من الرقيب، الذي يحضر كل أربعاء لمراقبة العدد قبل طباعته. نادرًا ما استدعى الرقيب أحدنا. دخلت المكتب مضطربًا ووجدت موضوعي أمامه بخط يدي قبل الجمع على غير العادة.

قابلني الرجل بوجه محايد، لا هو تكشير ولا ابتسام، وما إن دخلت حتى فاجأني بسؤال استنكاري: «إنت بتكتب بعقلك الباطن؟ إنت عاوز تقفل الجورنال؟». لم أفهم السؤال وبدا عليَّ الارتباك، فأضاف متهكمًا: «هو علي صبري كان معاكم». زلة قلم بفعل الإرهاق على وشك أن تتحول إلى مؤامرة، يقودها العقل الباطن. ما حدث هو أنني بسبب الصداع والإرهاق وسرعة الكتابة، ولأن الموضوع كله كان عن علي صبري، أخطأت في إحدى المرات وبدلًا من أن أكتب «قال السادات» كتبت «قال علي صبري»! هكذا ببساطة. كانت الرقابة وقتها كلية السلطة ولا راد لما يقره الرقيب. وفي أكثر من مرة كان يُحذف من الجريدة مانشيتات ثم نفاجأ بنشرها بعد ذلك في «أهرام» الجمعة. حاول أستاذي الدكتور سامي عزيز إقناعي بعد تخرجي بالرجوع عن قراري والالتحاق بإحدى الصحف، بل أبدى استعداده بالتوسط لي للعمل في الجريدة التي أختارها. كنت ضمن قلة في دفعتي مارست العمل الصحفي قبل التخرج، وكنت أتلقى مكافأة على عملي، وهذا ما جعل أساتذتي يتوقعون لي مستقبلًا صحفيًّا كبيرًا. لكني صممت على موقفي. واخترت الترجمة لأنها تناسب طبيعتي أكثر وتعفيني من الصدامات وتفتح في العقل نوافذ مفيدة على الآخر، إضافة إلى حبي للغة الإنجليزية. لكني حتى اليوم أعتبر نفسي مترجمًا هاويًا. أنا مترجم «من تحت السلاح» أو قل «مترجم عصامي»، كونت معارفي واكتسبت أدواتي بنفسي. فأنا لم أدرس اللغة دراسة أكاديمية ولم تساعدني الظروف للحصول على دبلوم في الترجمة. وهو وضع يقلل دائمًا من ثقتي بنفسي ويجعلني حريصًا دائمًا على الاجتهاد والتدقيق المبالغ فيه.

حدثان كبيران شهدتهما أثناء عملي بجريدة «العمال»: يوم رحيل جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، والصراع بين مراكز القوى والسادات، والتي

حسمها الأخير لصالحه نهائيًّا في ١٥ مايو ١٩٧١.

يوم رحيل الزعيم، كنت في زيارة حيي القديم، خلف قصر محمد علي بشبرا، وجلست مع أصدقائي نلعب الطاولة والراديو مفتوح ولا نلتفت إليه. لكن بعد حين لاحظنا أن الإذاعة تقصر بثها على القرآن الكريم، حتى إن أحدهم علق مازحًا: «الظاهر الفقها عملوا انقلاب». وبعد قليل، توقفت تلاوات القرآن، وجاءنا صوت أنور السادات ليبلغنا الخبر الفاجع: «مات عبد الناصر!». ها هو الموقف يتكرر مرة أخرى؛ فقدان الأب. لكن هذه المرة الغياب مؤكد وليس احتمالًا كما كانت الحال عند تنحيه. وبدأنا نسمع نواح النساء في الشوارع المحيطة بنا. أسرعت بالتوجه إلى الجريدة لأن الحدث مفاجئ ويستوجب تغيير كل المادة تقريبًا. خرجتُ إلى الشارع، آلاف من الرجال والنساء يهيمون على وجوههم، لا يعرفون ماذا يفعلون. سرت على قدمَي من شبرا البلد حتى كوبري أبو العلا تقريبًا، لأنني لم أجد موطئ قدم في الأتوبيسات المتجهة إلى أي مكان. وعندما وصلت بعد معاناة إلى مقر الجريدة بشارع القصر العيني، لم أجد أحدًا، وأبلغني الفراش بأن الأستاذ عبد الله إمام في أمانة القاهرة. وعندما وصلت إلى أمانة القاهرة (بشارع صبري أبو علم، مقر بنك قناة السويس حاليًّا)، رأيت بالداخل حشدًا كبيرًا، يخطب فيهم عبد المجيد فريد أمين العاصمة، مطمئنًا إياهم بأن البلد في أيدٍ أمينة.

بِتنا ليلتها بالجريدة حتى انتهينا في وقت متأخر من تجهيز عدد جديد، يحوي الكثير من صور عبد الناصر في مراحل حياته المختلفة. الغريب أن أحد كتَّاب اليسار ممن شهدوا هذا اليوم كتب بعد ذلك يقول إن هذا الخروج كان بتدبير من الاتحاد الاشتراكي! وهو قول يكذبه كل من عاشوا تلك اللحظة. فلو كان ذلك صحيحًا، وكان الاتحاد الاشتراكي تنظيمًا قادرًا على هذا بحق، لما استطاع السادات حسم معركته مع هذا التنظيم وغيره من مراكز القوى بكل ما كانوا يتمتعون به من سلطات، وخروج جماهير هذا التنظيم في الشوارع رافعة شعار «افرم افرم يا سادات». ولن أضيف أكثر مما كُتب عن جنازة هذا الزعيم الذي ارتبط به الشعب، هذا الارتباط الذي لم يحققه حاكم سابق أو لاحق لمصر. كان زعيمًا كبيرًا، وكذلك خطاياه.

عندما حدثت أزمة مراكز القوى انقسمت النخبة انقسامًا شديدًا. وقف معظم اليساريين بجانب مراكز القوى، واعتبروا السادات ممثلًا لليمين،

واعتبروا مراكز القوى اشتراكيين. كانت مراكز القوى تتحكم في كل السلطات تقريبًا. فمعهم نائب رئيس الجمهورية ووزراء الدفاع والداخلية والإعلام ورئيس مجلس الشعب وسكرتير رئيس الجمهورية والاتحاد الاشتراكي. أما السادات فكان يسانده بالأساس رئيس الأركان (الفريق محمد صادق) ورئيس الحرس الجمهوري (الليثي ناصف)، ومحمد حسنين هيكل. لكنه كان يعتمد على سند أهم، هو الشرعية (بغض النظر عن طبيعة هذه الشرعية). وكادت جريدة «العمال» تدخل طرفًا في الصراع. كان رئيس التحرير على علاقة قوية بضياء الدين داود، وكان من أركان مراكز القوى. وذات يوم، دخلت قاعة التحرير وكانت هناك بروفات مواد العدد ووجدت بينها مقالًا بتوقيع عبد الله إمام يهاجم من طرف خفي وبحذر شديد محمد حسنين هيكل (منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كان هيكل المنظِّر الأساسي للنظام وركنًا ركينًا من أركانه، إلى درجة أنه في وقت ما كان مقاله الأسبوعي «بصراحة» يذاع كل يوم جمعة بعد نشرة الخامسة مساء). لكن يبدو أنهم تراجعوا عن هذه الفكرة لسبب أو لآخر، حيث اختفى المقال من بين مواد العدد. بالنسبة لي كانت الأزمة صراع ورثة، لا ناقة لنا فيه ولا جمل. سينتصر أحدهما في النهاية ويحكمنا، ولا فرق عندي بين الاثنين (يبدو أن اختيارنا دائمًا بين الرمضاء والنار؛ مرسي أم أحمد شفيق). عمومًا، حسم السادات الموقف لصالحه وبصورة دراماتيكية سريعة، بفضل «غباء خصمه السياسي» على حد تعبيره.

في مايو ١٩٧١، حصلت على الليسانس. وملأت استمارة رغبات القوى العاملة وكتبت وزارة الصناعة كرغبة أولى، حتى أكون وسط الطبقة العاملة. وفي الإجازة الصيفية وجدت هناك دعوة بالجامعة لعمل مشروع لمحو الأمية في إحدى القرى. لا أتذكر الآن من كان الداعي. لكني عندما وصلت إلى مكان الاجتماع بكلية طب قصر العيني، وجدت مجموعة من الطلاب والطالبات من أكثر من كلية يملأهم الحماس والرغبة في العمل، واختير عدد منهم للاتصال بالثقافة الجماهيرية لمساعدتنا في مشروعنا. كانت الكتلة الأساسية من طلبة كلية الهندسة، عدد منهم من «جماعة أنصار الثورة الفلسطينية»، التي تكاد تكون الكيان السياسي المعارض الوحيد المتماسك بالجامعة آنذاك. وكنت قد تعرفت قبل ذلك بطلبة جماعة أنصار الثورة من خلال مناظرة أجرتها الجامعة وسجلت تلفزيونيًّا ولم تُذع. فقد فوجئت ذات يوم بأستاذي خليل صابات يستدعيني في غرفة الأساتذة. أبلغني أن مناظرة ستقام حول «الصحافة ومسؤوليتها عن جهل المثقفين». سيوجه الأستاذ رجاء النقاش وطالب من كلية الهندسة، الشاعر عصام الغزالي فيما بعد، الاتهام إلى الصحافة باعتبارها مسؤولة عن جهل المثقفين، وسنتولى أنا والدكتور خليل الدفاع عن الصحافة وننفي مسؤوليتها عن هذا الجهل. وافقت من دون الخوض في التفاصيل. وعندما ذهبنا إلى مدرج الساوي بكلية الهندسة، والذي ستقام به المناظرة، ألبسونا أروابًا سوداء مثل تلك التي يرتدونها في مناقشة الرسائل الجامعية، وكانت كاميرات التلفزيون حاضرة. وعندما جاء دوري للحديث، وجهت هجومي إلى المؤسسات الثقافية الغربية وبالذات مؤسسة «فرانكلين» (كان لها فرع غير معلن هو «دار الكرنك» وكان مسؤولًا عنها ماهر نسيم ولمعي المطيعي). وهو ما نال استحسان وتصفيق الحضور، وشعر الدكتور خليل الليبرالي المعتدل بالحرج، لأنه لم يتوقع ذلك الهجوم مني، إلى درجة أنه انتحى بي جانبًا ليقول بلغة اعتذارية وبصوت خفيض: «صدقني يا بدر أنا مش برجوازي». وبعد انتهاء المناظرة، تعرفت على عدد من أعضاء الجماعة وصار بعضهم من أصدقائي.

كان أول ما فزنا به من الثقافة الجماهيرية، وكان يرأسها آنذاك سعد الدين وهبة، محاضرة بقصر ثقافة السينما بجاردن سيتي عن ثقافة الفلاح، أعقبها

نقاش ثري مع الرائد الكبير يحيى حقي. كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن للثقافة معنى أشمل وأنها ليست بالضرورة كتابًا ومثقفًا. أفهم للمرة الأولى كيف تتداخل الثقافة في كل جوانب حياتنا. يحيى حقي رجل نوراني، يرسل وجهه وابتسامته الدائمة موجات من الدفء الإنساني تبعث في نفسك الارتياح. فهمت من هذا العملاق أن ثروة المعلومات التي يعرفها ويمارسها الفلاح فيما يخص دورة النبات ثقافة. ممارسات الفلاح في المواسم والأعياد ثقافة. أغاني الفلاحين في أفراحهم ومناسباتهم ثقافة. ألعاب أطفال الفلاحين ثقافة. جماع هذا وغيره وامتزاجه في إيقاع الحياة اليومية، هو ما يشكل ثقافة الفلاح.

(فيما بعد، روى لنا الصديق والكاتب الراحل محمد روميش هذه الحكاية عن العظيم يحيى حقي. قال: «كان يحيي حقي رئيسًا لتحرير مجلة «المجلة» ويحصل على راتب كبير شجعه على استئجار منزل يتناسب مع زوجته الفنانة التشكيلية الفرنسية. لكن المسؤولين قرروا ذات يوم الاستغناء عن خدماته وأصبح متعثرًا في تلبية أمور معيشته ومنها إيجار الشقة. في تلك الفترة، جاءه عرض مغرٍ من الجامعة الأمريكية لطبع أعماله إلى جانب عدد من الكتَّاب. واتصل بي يستشيرني في الأمر. انتابتني الحيرة. هل أنصحه بالموافقة، وهكذا يتخلص من الأزمة المالية التي يعاني منها، أم أنصحه بالرفض نظرًا للحساسية تجاه الجهة العارضة واستمرار أزمته؟ المهم أنني تجنبت الإجابة واختفيت فترة. وفوجئت به بعد مدة يتصل للاطمئنان عليَّ. وبررت غيابي بأنني كنت مشغولًا. وعندما سألته عن الموضوع بطريقة تعمدت أن تبدو عرَضية، قال: «ما أنا رفضت الموضوع». وعندما سألته عن السبب، قال: «أنا عارف أنا عامل إيه، لكن ما أضمنش هم هينزلوا إيه معايا»». وهي حكاية تبرز جانبًا من معدن وشخصية هذا العملاق جم التواضع).

نجحت المفاوضات مع الثقافة الجماهيرية ووافقت على مدِّنا بأتوبيس لنقلنا بين القاهرة وقها وقرية الحسانية القريبة منها، اللتين اختارتهما قيادة المشروع لتنفيذ مشروع لمحو الأمية. ووافقت على تزويدنا بالكراريس والأقلام اللازمة لهذه الفصول، وتخصيص مدرستين في قها والحسانية لاستخدام فصولهما كفصول لمحو الأمية. واتُّفق على أن يذهب مدرسو قها للتدريس والعودة يوميًّا. أما مجموعة الحسانية، فتقرر أن تبيت هناك للقيام

بأنشطة أخرى، خاصة بعد أن تبرع واحد من أهل البلد، مسيحي اسمه «جبران»، بتخصيص داره لإيوائنا. كان من الواضح أن هناك قيادتين للمشروع لا تناقض بينهما. كانت هناك القيادة الرسمية التي تتولى الاتصال والتنسيق مع الثقافة الجماهيرية، وقيادة تحتية غير ظاهرة توجه المشروع. وفي أثناء ذلك، ظهرت، بتحبيذ من الأهالي، فكرة إقامة مركز شباب في هذه القرية. واتفق الجميع على الاستفادة بساحة كبيرة بين البيوت، كانت المدرسة الأهلية الموجودة بالقرية تستخدمه كحوش للمدرسة. المكان مناسب، لكن تبين أن هناك قصة أخرى وراء هذا الاختيار.

عرفنا من الأهالي أن هذا المكان يعتبر منفعة عامة، لكن صاحب المدرسة (عمدة البلد) حاول أكثر من مرة وضع يده عليه. في البداية، بنى فرنًا صغيرًا في المكان، لكن الأهالي أدركوا حيلته وواجهوه بطريقته. قام أحد الفلاحين بوضع عدد من خلايا النحل قريبًا من الفرن، وهاج النحل في المنطقة. فقام فلاح آخر بتقديم بلاغ في النقطة، فجاءت الحكومة وأزالت الفرن وخلايا النحل، وهكذا كسب الأهالي معركتهم إلي حين. وكان حوش المدرسة هو آخر هذه الحيل من جانب العمدة. فقد وضع يده على قطعة الأرض وحولها إلى حوش للمدرسة. وبدأ موقف العمدة منا ينتقل من الحياد إلى الكراهية الواضحة. احتشد الناس حول الفكرة وبدأ العمدة يعرقل العمل، بتحريض أصحاب قمائن الطوب لمنع إرسال الطوب لنا للبدء في إقامة المركز، وهذا ما جعلني أستعين بعلاقات جدي بأصحاب القمائن في شبرا. وهكذا جاءتنا أول نقلة طوب من شبرا وعلى متنها جدي. وفوجئنا ذات يوم، وكان جمعة، بنائب المحافظ يزورنا في يوم عطلة، ليثنينا عن إقامة هذا المركز؛ ما أثار استغرابنا. لكن الأهالي المتجمهرين هاجموه، وفوجئنا ببعض الفلاحين يرفعون لافتة كبيرة كُتب عليها: «مركز شباب الحسانية يرحب بالزائرين». وهو ما جعل نائب المحافظ ينسحب بهدوء، معلنًا: «اللي عايزينه الناس هو اللي هيكون». لكنه انتحى ببعضنا جانبًا وقال بصوت غاضب مسموع: «عايزين تقلبوها كوبا؟!». وهو ما فتح نقاشًا واسعًا بيننا وبين الأهالي عن كوبا وكاسترو وجيفارا وغير ذلك من موضوعات كانت بعيدة عن أذهان الناس هناك.

أحدث المشروع صدى طيبًا عند أصدقائنا من المثقفين، ووفدت علينا أعداد منهم للزيارة والتشجيع (ومنهم من سيتولون في العام التالي قيادة مظاهرات

الحركة الطلابية الشهيرة في يناير ١٩٧٢ ويُقبض عليهم، ومن بينهم عدد من المشاركين في المشروع). ونجحنا في إقامة عدد من الأمسيات ألقى فيها بعض أصدقائنا الشعراء، أذكر منهم زين العابدين فؤاد وصابر زرد، قصائدهم وتفاعلوا مع الفلاحين، ودارت بينهم حوارات ومناقشات مفيدة. ولما كان جزء من مشروع مركز الشباب إقامة مسرح داخله على الطراز الروماني، فقد كونت فرقة مسرحية وأجرينا بروفات على مسرحية من فصل واحد ليوسف إدريس (ملك القطن). لكن العام الدراسي عاجلنا، واضطر المشاركون للتوقف عند هذا الحد، ولم أعرف مصير المركز بعد ذلك ولا الفرقة المسرحية التي اخترت رئيسًا لها من شباب البلد من المتحمسين للتمثيل. لكننا في نفس الوقت نجحنا في محو أمية عدد من الفلاحين وحصلوا على شهادات رسمية من الثقافة الجماهيرية.

أسفر المشروع كذلك عن أكثر من زيجة. كان هناك اثنان بالفعل قد سبقا وتزوجا وهما لا يزالان بالدراسة وصارا نموذجًا للتمرد المبكر: محمد توفيق وسهام صبري، التي ستصبح فيما بعد زهرة الحركة الطلابية. وكان من هذه الزيجات زواجي من طالبة الطب آنذاك هدى، وقدمت لنا سهام دبلتين من الألمونيوم المطلي بديلًا عن دبل الخطوبة، حيث لم تكن إمكانياتنا تسمح آنذاك بخاتم من الذهب. كانت هدى مسيحية كاثوليكية، وهو ما أثار في البداية صدمة في أسرتها، خاصة من جهة الأب. فقد كان أبوها الأصغر بين ١١ أخًا صعيديًّا. وتعرضت أسرة زوجتي بسبب ذلك إلى غارات تلفونية وضغوط مستمرة من جانب الأقارب، لكنها تحملتها بصبر كبير. حملات تلفونية غاضبة تحمل اتهامات بالدنس والخروج على شرع الله. قال لي حماي: «الزمن أكبر طبيب». وهدأت الحملة بعد حين بعد أن ثبت تصميم هدى على إتمام الزواج.

الطريف أن المشكلة عند حماتي لم تكن بسبب أنني مسلم، بل جهلي باللغة الفرنسية! ومع ذلك، احتضنتنا ورحبت بأن نعيش معها في نفس البيت. ولما لاحظت ترددي قالت لي بأنها سترتاح معي أكثر مما ترتاح مع ابنتها. وبالفعل عشنا معها فترة من الزمن في نفس الشقة ذات الدورين لم تشعر خلالها بوجودي. تركت لنا الروف العلوي وعاشت هي في الدور السفلي. وبعد فترة قررنا أن نستقل، وحدث في تلك الفترة أن ساكنًا بالدور الثالث من العمارة قرر أن ينتقل إلى مكان آخر. كان الرجل رئيسًا لمجلس إدارة شركة

قطاع عام كبيرة لإنتاج اللحوم والدواجن، وفي إحدى جولات التفاوض حول الشقة توقف فجأة عن الحديث في الأمر، وقال لي: «السادات هيجنني!». وأخذ يحدثني طويلًا عن الإزعاج الذي يعانيه على يد السادات. فمرة تأتيه الأوامر بأن الرئيس سيفتتح ربما بعد يومين مزرعة للجاموس والأبقار في النوبارية، فيقوم بنقل جاموسه وأبقاره إلى النوبارية؛ ثم بعدها بقليل يخبرونه بأن الرئيس سيقوم بافتتاح جديد في الصالحية، فيقوم بشحن نفس الأبقار والجاموس إلى المكان المحدد، وهكذا. كلها افتتاحات وهمية لا طائل حقيقي من ورائها.

كانت حماتي سيدة نورانية، تتمتع بروحانية عالية. وعلى الرغم من تلقيها التعليم بالمدارس الفرنسية أجادت العربية عندما مرض زوجها واضطرت إلى قراءة الجرائد له. وعلى الرغم من اختلاف التربية والثقافة تفاعلت معي وتقبلت الكثير من طريقتي المختلفة في التفكير والتصرف. بل أصبحت بيننا ثقة متبادلة جعلتها تسألني في كل ما يلتبس عليها وتصدق أجوبتي. كما أنها كانت المربي الحقيقي لأولادنا. كانت على عكس زوجتي التي لم تجد في تربيتي ما يستحق، بل كانت تخشى من فيروس في هذه التربية يمكن أن ينتقل إلى الأولاد. أما أنا فقد وجدت في تربيتها فضائل كثيرة استهوتني، بل وغيرتني. وكانت أهم ملامح هذه التربية الاستقامة وقول الصدق، تربية تخلو من اللوَع الشائع في تربيتنا.

تيتا مارجو، حماتي، قلب كبير وروح سمحة

أي كلام عن حماتي لن يوفيها حقها، فقد كانت أفضالها علينا كأسرة كثيرة. ولن أنسى لها موقفها عندما تُوفيت زوجتي واستخرجنا إعلام الوراثة الذي يعطيها وأبناءها ميراث هدى ويحرم ابنيها. فالقانون يمنع توريث المسلم للمسيحي أو المسيحي للمسلم. لكنها اتفقت مع أبنائها (رفيق وآمال في كندا والدكتورة لورين، أستاذ اللغة الفرنسية بكلية الألسن) على توزيع ميراث هدى مناصفة بين ابني وابنتي، وائتمنوني على نصيب الولد حتى يبلغ السن القانونية.

حين التقيت زوجتي في مشروع محو الأمية هذا كنت في الثالثة والعشرين من عمري وهي تصغرني بنصف عام تقريبًا. وشأن كل أبناء جيلي من اليساريين، كان الالتقاء الفكري هو أساس الاختيار في كل شيء. كانت الأيديولوجيا هي الحاكمة لمنظورنا إلى كل شيء، حتى في العواطف. وخشية التعميم، أقول إن حالي تحديدًا كانت على هذا النحو. فكان هذا هو المعيار الذي على أساسه اخترت زوجتي، والذي اختارتني على أساسه (بعد قليل من ارتباطنا، سوف ننضم معًا إلى تنظيم سري واحد). لكن بعد أن انفجرت الفقاعة وانهارت كل هذه التنظيمات، في وقت واحد تقريبًا، بدأت اختلافاتنا الإنسانية تطفو على السطح. كانت المشكلة الأساسية في اعتقادي هي

اختلاف التربية. بالإضافة إلى إصرارها دائمًا على جعلي أشعر بالتقصير بالإضافة إلى طبيعتي المتشككة وغير الحاسمة والمترددة في كل شيء، والتي تضخمت مع المرض النفسي، في مواجهة اليقين الذي تتمتع به. هي تملك يقينًا لا أملكه حتى الآن. لا أقول هذا تنصلًا من المسؤولية، لكن ذلك اليقين كان يجعلها عندما تؤمن بفكرة من الأفكار تتعصب لها وتتشبث بها وتلح على تطبيقها على الآخرين بكل الطرق. كنت أمازح ابنتي وأقول لها بالإنجليزية: «أمك مثالية ومخلصة ووفية وجادة وتسعى إلى الكمال، لكن هذه أيضًا من صفات الدكتاتور!». وكنت أنصحها دائمًا بألا تتعصب لأي فكرة مهما كان نبلها.

كانت هدى مقاتلة وشديدة الإخلاص لما تؤمن به على جميع المستويات، ومستعدة للدفاع عنه مهما حدث. كان أبرز مثال على هذا عندما أدركت فداحة ما تحدثه الأدوية من آثار سلبية على صحة المرضى، فقررت أن تجد سبيلًا آخر لمساعدتهم. ودرست أكثر من مجال من مجالات الطب البديل، حتى استقرت على فرع منه هو العلاج المثلي أو «homeopathy»، وهو نوع من العلاج يعمل على المجال الطاقي للجسم. ونجحت في وقت قصير في جمع مريدين كُثر حولها من المرضى المؤمنين بطريقتها. كانت تخصص للمريض ساعة كاملة للكشف والتشخيص، ومتابعة عبر الهاتف على مدار الساعة. وحققت نجاحًا كبيرًا في علاج كثير من الحالات. لكن هذا جعل كثيرًا من الأطباء يشعرون بالخطر، وخاصة المتنفذين منهم. فبدأت تتعرض لحملات تفتيش من جانب وزارة الصحة؛ في محاولة لإغلاق عيادتها. لكنها قاومت وانتصرت.

عندما مرضت مرضها الأخير، اختارت نهاية تليق بها. كان تقديري أنها مصابة بجلطة في الساق وأن علاجها بسيط؛ حقن لتذويب الجلطة. لكنها أرادت أن تكون وفية لما تؤمن به وألا تخون مرضاها، حتى لو كانت حياتها هي الثمن. اختارت لنفسها الطريقة التي آمنت بها والتي وهبت لها عمرها.

لخص صديقي الحبيب المخرج الكبير داود عبد السيد المشكلة بيننا في جملة عبقرية معبرة. كانت ابنتي وزوجتي تحضران فيلمًا في أحد المهرجانات، وبعد الفيلم سألته ابنتي عن رأيه في الفيلم، فقال إنه لا بأس به. قالت ابنتي: «وأنا رأيي كده، لكن ماما بتقول إن المخرج شاب ومفروض نشجعه».

فمازحها قائلًا: «إنت عارفة مشكلتك إيه يا هناء؟ إن أمك ملاك بس أبوكي بني آدم». لكن على الرغم من كل شيء فقد منحتني هذه السيدة الكثير وتعلمت منها الكثير، وكان أكثر ما اكتسبت منها الرضا. كان لديها قدر من الرضا يكفي أمة، وهي التي علمتني أن الرضا طبع يمكن اكتسابه، وليس شيئًا أصيلًا يولد مع الإنسان. وكثير مما اختلفنا حوله تبينت بعد رحيلها أنها كانت محقة فيه.

سلام لروحها.

* * *

عاد زملاء المشروع إلى الجامعة في العام التالي (١٩٧٢) ليخوضوا أتون أضخم احتجاج طلابي في تاريخ مصر. لم أحضر هذه المرة لأنه كان عليَّ أن أقضي الخدمة العسكرية. كانت ظروف دفعتي من الضباط الاحتياط غريبة ومربكة. كانت هذه الدفعة من أكبر دفعات الاحتياط التي شهدها الجيش، ولم تستوعب كلية الضباط الاحتياط هذا العدد الضخم، فاضطروا لتوزيعنا على وحدات تعليمية مختلفة. وجاء توزيعي على مدرسة ضباط الصف بمحجر أبو حماد بمحافظة الشرقية. لم تكن المدرسة مستعدة لاستقبالنا، وهكذا أعطوا لكل فرد منا ضلع هايك صغيرًا (خيمة صغيرة) وقالوا لنا تصرفوا. كنا في شهر أكتوبر ودرجات الحرارة تصل أحيانًا إلى الصفر في هذه البقعة الصحراوية القفر. وانطلقنا كلٌّ يبحث لنفسه عما يمكن أن نطلق عليه «مبيت». واكتشفنا وجود حفر منزلقة أشبه بجحور الثعالب. وهكذا، عندما يحين وقت النوم، نثبت ضلع الهايك بالحجارة ثم ننزلق بحذر إلى الجحر ونتدثر ببطانية، ونظل هكذا من دون حراك حتى الصباح.

لكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا والحمد لله. فقد نصبوا لنا خيامًا هندية كبيرة، تستوعب كل خيمة ١٦ فردًا، محكمة الإغلاق. وبدأنا أخيرًا نحظى بالدفء، حرارة ١٦ نفَس في خيمة واحدة، يا لها من نعمة! لكن هذه النعمة تنقلب إلى نقمة عندما ينطلق بروجي الصحيان، وتهم مسرعًا لقضاء حاجتك وحلاقة ذقنك وارتداء ملابسك في برد أكتوبر. كانت حلاقة الذقن في هذا الزمهرير الصباحي محنة. كانت يدي تغلق تلقائيًّا وتتيبس وأضطر إلى تدفئتها من حين لآخر حتى أتمكن من استكمال حلاقة ذقني. ذات مرة، قابل الباشجاويش محمود المغاوري داغر زميلنا المرحوم سامي الرزاز تنبعث منه رائحة الكولونيا بعد الحلاقة. اقترب من سامي وتشممه جيدًا، ثم هتف

بانزعاج: «كولونيا؟! كولونيا يا أستاذ سامي؟! هو فيه أحسن من الميه الطاهرة بتاعة ربُّنا؟! كولونيا؟!». كان الباشجاويش داغر فلاحًا بسيطًا طيبًا وظريفًا، معتزًّا بنفسه وعمله. كانت مهمته تعليمنا خطوات السير وفك وتركيب البندقية. وأثناء أحد الدروس رأيناه يحدثنا كما لو كان يحدث نفسه بصوت عالٍ: «آني يا حتة إعدادية فسيانة وعندي العلم ده كله، أمال لو خدت مؤهل عالي زيك إنت وهو كنت عرفت إيه ولا إيه؟!».

انتهت فترة التعليم الأولي على خير لنبدأ رحلة طويلة بقطار حربي مباشر إلى مرسى مطروح لتلقي الفرقة الفنية التي بعدها سنتخرج برتبة الملازم. الطريق إلى مرسى مطروح فردي في مناطق كثيرة، وهو ما يستوجب توقف القطار من حين إلى آخر انتظارًا لمرور القطار القادم من الاتجاه المعاكس. أما إذا دخلت المنطقة الصحراوية من الطريق، فأنت لا بد واقع تحت رحمة الرمال التي تغطي القضبان، وعليك الانتظار حتى يزيلوا الرمال من فوق القضبان. وصلنا منهكين وجائعين. أخذوا تمامنا على عجل ثم توجهنا إلى الميس للعشاء. المكان مختلف تمامًا عن مدرسة ضباط الصف. فنحن في منشأة تعليمية جاهزة، والأهم أن بها عنابر للنوم وأسرَّة. كانت المياه العذبة في مطروح شحيحة، وتأتي في فناطيس بالقطار. والمياه المتوفرة هناك جوفية ومالحة بعض الشيء ومذاقها سيئ، يطلقون عليها «مياه روماني»، ربما لأنها تُجلب من آبار تعود إلى العصر الروماني. ولما كنا نستحم في المنطقة من البحر التي تطل عليها المدرسة (ملَّاحة)، ملوحتها عالية، كان لا بد من توفير بعض المياه العذبة لإزالة الملوحة عن الجسم، وقد أصيب البعض بأمراض جلدية لعدم توفر الماء العذب.

وطلبًا لماء الشرب، كان بجوارنا وحدة حدود يفصلها عنا سلك شائك، كنا نهرب إلى كانتينها، حيث الماء العذب والشاي والمعمول. وكان قائد الوحدة يرحب بوجودنا، وكان أحيانًا يجلس معنا ونتبادل معه الحديث. كما كنا نخرج أحيانًا في نزهات إلى المدينة والتي تبعد حوالي ٥ كيلومترات. كنا نلزم طريق الشاطئ، حيث على يسارك البحر وعلى يمينك صحراء مهجورة لا حياة فيها. المعالم الوحيدة التي تصادفك على طول طريق الشط هي: البوسيت، الليدو (وكان وقتها على البحر مباشرة)، جامع سيدي العوام، استراحة شركة البترول (تحولت فيما بعد إلى فندق ريم)، ولا شيء غير ذلك. نسير في شارع

الإسكندرية الطويل، الشارع الرئيسي في البلد، والممتد من الكورنيش وحتى محطة القطار. لم يكن بالشارع سوى القليل من البيوت، وأهم معالمه قهوة علي جالون ومطعم بنايوتي، حيث الأطعمة اللذيذة والبيرة المثلجة، وأحاديث الخواجة بنايوتي المسلية وضحكته الدائمة. ثم نعود ليلًا من نفس الطريق، لكنه لا يكون وقتها نفس الطريق. فرياح الشتاء الليلية تثور، حاملة معها رملًا دقيقًا يخترق الجلد ويلتصق به.

أبلغونا في المركز أن الرئيس السادات سيزورنا. وفي اليوم الموعود، تحلقنا كالعادة حول المعلمين في أرض الطابور وأمامنا الرشاش الذي نتدرب عليه. وهلَّ علينا الرئيس بموكبه، وهو يرتدي الزي العسكري ويمسك بعصا المارشالية المعروفة. وعندما توقف الموكب، تقدم قائد المركز لفتح باب السيارة وهو يؤدي التحية العسكرية ويقدم التمام مفتخرًا بصوت جهوري: «فرقة مؤهلات عليا يا افندم». هنا، انقلبت البسمة التي همَّ الرئيس برسمها على وجهه إلى تكشيرة، وتنقل بين المجموعات بصحبة الفريق صادق وزير الدفاع، ولم ينطق سوى بجملة واحدة طوال جولته. قال للفريق صادق وهو يشير إلى الرشاش المنصوب أمامه: «دا بقى زوجي يا صادق» (يقصد بماسورتين). جاءنا السادات والجامعة مشتعلة، والطلبة يواصلون تظاهراتهم مطالبين بتحرير الأرض التي طالت غيبتها. وهذا ما جعل السادات يمتعض عند سماعه جملة «فرقة مؤهلات عليا يا افندم».

من برد مرسى مطروح شتاءً، جاء توزيعي بعد التخرج برتبة الملازم على الأقصر صيفًا. لكن سيقدر لعلاقتي أن تمتد، وأشهد ما طرأ على مطروح من تحولات وتوسع، بعد أن اخترتها مصيفي المفضل على مدى ما يقرب من ١٥ عامًا حتى ملَّها ابني الصغير وتمرد عليها. جاء توزيعي على وحدة دفاع جوي تتولى حماية مطار الأقصر. في المواقع هناك علاقة من نوع جديد بين الضابط والجندي، غير تلك التي شهدناها في وحدات التعليم من انضباط مبالغ فيه. هنا، أنت في وحدة من جيش يحاول أن يبتعد عما يذكِّر الناس به قبل ١٩٦٧، عندما كان الجندي يبيت في الوحدات الممتدة من أقاصي البلاد إلى أقاصيها، بينما الضابط له سيارة تحضره يوميًّا من بيته وتعيده. ضباط مرفهون وجنود بؤساء. أما الآن، فأنا والجنود نقضي أيامنا ولياليا في مكان واحد لا نغادره إلا في الإجازات، التي ينظمها جدول دوري بحيث لا تزيد نسبة الغياب على ٢٥٪

من القوة. وكانت مبيتات الأفراد لا تختلف كثيرًا عن مبيت الضباط، وكلها تحت مستوى الأرض.

بعد ترقيتي إلى ملازم أول

ليل الأقصر غير نهارها تمامًا، خاصة في هذه البقعة الجبلية. وهكذا كانت حصيلة نومنا لا تزيد على الساعة أو الساعتين يوميًّا. تبدأ جلستنا في باحة الموقع بعد الثامنة مساء، بعد أن تهدأ حرارة النهار، وننعم بنسمة شاردة من حين لآخر. يجلس أفراد الموقع باستثناء الخدمات في دائرة، يتبادلون النكات والقفشات، وأنا معهم. وكان هذا سببًا لتسجيل موقعنا أعلى نسبة سحب من الكانتين، وصار الأمر مثار تندر المواقع الأخرى. نظل هكذا حتى الفجر قبل أن ندخل لملاجئنا لنخطف ما نستطيع من النوم. لكن ما إن تدخل المبيت حتى تصدمك حرارته التي اختزنها طوال النهار، وتحت ضغط الإنهاك ألقي بجسمي

على السرير الحديدي، وأظل أتقلب في عرقي حتى يبدأ عويل محركات الطائرات فوق رأسي استعدادًا للطلعات التدريبية.

كان دوري إجازات الضباط كل أربعين يومًا، والجنود كل خمسين يومًا. وهكذا في اليوم التاسع والثلاثين، وفي لفتة كريمة من قائد الوحدة، سُمح لي بالنزول للتعرف على مدينة الأقصر قبل قيامي بالإجازة. مر عليَّ سائق النوبتجية قرب المغرب، وعندما وصلنا إلى الكورنيش نزلت. ظللت أطوف شوارع المدينة وكل هدفي إيجاد مكان مناسب أستطيع فيه تناول زجاجة بيرة مثلجة. أخذت أدور على المحلات وأنا متردد في السؤال مباشرة، مراعاة للزي العسكري. أخيرًا وجدت بقالًا يبيع الخمور، فاشتريت ربع براندي وأنا لا أعرف كيف سأتناوله وأين. وبعد تفكير وتنقل، عثرت على حديقة واسعة شبه مهجورة وشبه مظلمة. بحرص، كسرت فوهة الزجاجة وشربت محتوياتها بروية حتى لا تدخل شظية من الزجاج إلى فمي. وبعد أن انتهيت منها، خرجت منتشيًا أمشي واثق الخطى. لكن في سيري اهتديت إلى فندق سافوي، بطرازه العريق وذوقه الأوروبي. وبعد زجاجتين إضافيتين من البيرة، غادرت الفندق وساقاي تلتفان حول بعضهما؛ ما أثار ضحكة مكبوتة من سائق النوبتجية الذي جاء لإعادتي للموقع. كان الموقع فوق تبة عالية، وصعوده وأنت ثمل معاناة حقيقية.

أحببت المعيشة في هذه الوحدة، فالعمل قليل والترقب كبير. كان الوقت طويلًا والجو حارًّا، لا يشجع على التنقل حولك. ومع ذلك عرفت هواية جديدة هي جمع الزلط والأحجار، لأن حولنا الصحراء واسعة وفيها أنواع غريبة ومختلفة من الزلط، تكتشفها بالتدقيق فيها. والطريف أن عددًا من الجنود استهواه الأمر، فكنت أجد كل حين أحدهم يدخل عليَّ متهللًا لأنه وجد زلطة مختلفة عن مجموعتي. كل هذا كان تهوينًا من انتظار طال لمعركة محتومة قادمة. وكان كل جندي في الموقع يعرف كيف يؤدي عمله جيدًا، وعلى دراية بكيفية إدارة النيران وتمييز طائرات العدو بالنظر وغير ذلك، بفضل التدريب المستمر. رأيت هناك صورة مختلفة، وانضباطًا أكثر منطقية وإنسانية. فلم نكن ندقق كثيرًا في مسائل الشعر والذقن المعتادة، بل كل التركيز على التدريب وإجادة العمل حين تحين الساعة. كنت أتناول طعامي مع العساكر، ونشرب الشاي معًا، وكانت هناك علاقة إنسانية بيننا جعلتني أعرف كل

صغيرة وكبيرة بدون عصافير (مخبرين). عندما اشتدت أزمة الشاي والسجائر أثناء الحرب أبلغوني أن خلَف (من الوادي الجديد) عاد من الإجازة ومعه كيلو شاي كامل. أرسلت لخلف على الفور وأخبرته أنني أعرف كل شيء، وأننا في حاجة إلى بعض من هذا الشاي. ارتبك خلف وعبر عن استعداده لمنحنا بعض الشاي. لكني قلت له إنني سأشتري بفلوس لأنني أريد كمية كبيرة. وهكذا التأم شمل الموقع كله حول حلة شاي أثارت البهجة في الجميع. لكن تصرفاتي تلك وغيرها أثارت حفيظة قائد السرية وغيرته، وهو ما جعله يشكوني إلى قائد الكتيبة. كان القائد رجلًا يجمع بين الانضباط والحكمة والشهامة. قال لي بهدوء وحزم: «الجيش مفيهوش ديمقراطية يا حضرة الظابط». لكن هذا لم يجعلني أغيِّر طريقة معاملتي للجنود قَطُّ. وعندما تقرر نقلي بعد ذلك للقاهرة لمواصلة علاج حالتي، تهربت من الاحتفال الرسمي الذي أعده الضباط لوداعي. وأقام الجنود «حفل خمس نجوم»، واستعانوا بمغنين وعازفين من سلاح الطيران، كان وداعًا دافئًا. وأتذكر أنني تلقيت رسالة بعد خروجي من الخدمة من حكمدار الموقع، الأومباشي علي، يعاتبني على عدم المراسلة ويذكرني بأن الملح في خبزنا كان كثيرًا، وهو يلمح إلى ليلة أهداني فيها صديق من الأقصر صفيحة ملوحة كلاب وأيقظت كل الموقع حوالي الواحدة صباحًا ليأكلوا جميعًا ملوحة.

في الإجازات كان يُصرف للضباط استمارات سفر بقطار النوم نظرًا لطول الرحلة. وفي ذلك الحين كانت تذكرة قطار النوم أعلى سعرًا من تذكرة الطائرة، فكنا نستبدل بالاستمارة تذكرة على طائرات مصر للطيران. واستمرت الحال كذلك حتى قامت حرب أكتوبر وارتفع سعر النفط، وصار الفارق فوق قدرتنا، فعدنا إلى قطار النوم. قطار النوم يعني ضياع حوالي ١٤ ساعة في الذهاب ومثلها في الإياب من إجازة مدتها تسعة أيام. وكانت تحدث لي حالة غريبة كلما نزلت إجازة، حيث أظل ليومين أنام نومًا قلقًا. كنت فعلًا وعلى الرغم من كل شيء أفتقد سريري الحديدي وتلك الغرفة التحت أرضية القاسية. اعتدت الحياة هناك فعلًا وارتحت إليها. وكنت أفضِّل دائمًا خدمة الوحدات البعيدة على خدمة المناطق المركزية، بكل ما فيها من مزايا، مثل انصرافك حوالي الثالثة وارتداء الملابس المدنية وممارسة حياتك ومبيتك يوميًّا في منزلك. صحيح أن الجو في الأقصر كان حارًّا، لكنه جاف أيضًا، وهذه

فضيلة كبرى.

في إحدى هذه الإجازات، عدت إلى البيت متأخرًا بعد أن تصعلكت مع الأصدقاء. وجدت أبي وأمي متيقظَين على غير العادة، والقلق بادٍ عليهما. بادر أبي وناولني ورقة صفراء صغيرة قائلًا: «جاءك عسكري اليوم وترك لك هذه الورقة». كان استدعاء عاجلًا من الكتيبة، لم أفهم سببه. وكان عليَّ أن أنتظر للغد. توجهت في الغد إلى محطة مصر، التي كانت مزدحمة على غير العادة. لم أجد مكانًا في قطار النوم ولا في القطار المكيف، لا أولى ولا ثانية، وانتهى بي الأمر إلى العودة بقطار الدرجة الأولى العادية. حالة القطار لا تفرق كثيرًا عن الدرجة الثالثة باستثناء تنجيد المقاعد. ظللت واقفًا حتى أسيوط، لأنني رفضت دعوات الجلوس مكان أحدهم، حتى خلا مكان وجلست. لم أستطع النوم على الرغم من الإرهاق لانشغالي بسبب الاستدعاء. كنا في الثالث من أكتوبر ١٩٧٣ تقريبًا، وعلمت عند وصولي الكتيبة أن درجة الاستعداد مرفوعة، وهو ما يحدث كثيرًا، لكنها كانت المرة الأولى التي تُستدعى فيها الإجازات. لم يخطر على بالنا وقتها أن حربًا ستقوم بعد ثلاثة أيام. حتى نحن في الجيش كنا فقدنا الأمل في إعلان الحرب. لاحظنا قبل الحرب بيومين انتقال سرب الطيران الموجود عندنا، وهو من أقوى أسراب «الميج ٢١»، إلى قاعدة المنصورة الجوية. وعلمنا من الأخبار بعد ذلك أن طياريه أبلوا بلاءً حسنًا في الضربة الأولى، لكننا حزنا على استشهاد النقيب صبحي الشيخ، ذلك الأسمر الطيب الهادئ. وعلمنا قصة شجاعته عندما فرغ منه الوقود وهو في طريق العودة من إحدى العمليات وأيقن أن لا نجاة، فقرر أن يقوم بعملية انتحارية، حيث اقتحم دشمة للطائرات ففجرها وفجر نفسه وذهب شهيدًا. عرفت النقيب صبحي من خلال نوبتجيات تنسيق التعاون بين الطيران والدفاع الجوي. ففي غرفة عمليات الطيران كان لا بد أن يكون هناك مندوب عن الدفاع الجوي يتولى تبليغ كتيبته بتحركات الطيران أولًا بأول حتى لا نصيب طائراتنا بالخطأ. أحزننا جميعًا موته، وكان الجنود، وبسبب خدمتهم الطويلة، صاروا يميزون طريقة هبوط كل طيار على الممر، وكان صبحي من أصحاب هذه النزلات المميزة.

تابعنا أخبار الثغرة ومباحثات «الكيلو ١٠١»، والتي سُمح لنا بعدها بالقيام بإجازات. لم ننزل إجازات لمدة ستين يومًا، باستثناء مرة نزلت فيها إلى

مدينة الأقصر لاستشارة طبيب خاص بسبب آلام بيدي. كانت المرة الوحيدة التي أرى فيها الناس أثناء الحرب، وجوه مستبشرة ومتفائلة. عندما لمحني سائق الحنطور أسير في الشارع على قدمَي بزيي العسكري، جاء مسرعًا وأصر أن يوصلني إلى أي مكان مجانًا، على الرغم من أنني أفهمته أكثر من مرة أن المكان قريب. الطبيب الذي ذهبت لاستشارته رفض أن يأخذ مني نقودًا وأعطاني الدواء مجانًا وقال: «كتر ألف خيركم، دا أقل واجب». بكيت من التأثر. روح جديدة سادت بين الناس، إلى درجة أن الجرائم توقفت خلال مدة الحرب. وجاء عيد الفطر ونحن لا نزال في وضع الاستعداد، لكن هذا لم يمنعنا من عمل مأدبة تذكرنا بالعيد في بيوتنا. أرسلت اثنين من الجنود إلى عزبة العماري، وكانت قريبة منا، ليشتريا ٧ بطات، بحيث يحصل كل فرد على ربع بطة. وتطوع الجنود الإسكندرانية بعمل مكرونة بالصلصة. افترشنا وسط الموقع ونحن بكامل ثياب الميدان، وأتينا على المكرونة والبط في جو مرح ملؤه البشر.

مع جنود موقعي أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣

بعد ستين يومًا تقرر نزولي إجازة لمدة خمسة أيام. استقبلني أبي وأمي بشوق شديد، لكن فرحتهما كانت منقوصة. فأخي الأصغر يونس، الملازم

خريج الحربية، كان محاصرًا في الثغرة والأخبار بشأنه مضطربة ومتناقضة. جاء أحد أصدقاء أبي وأخبره أنه في عداد الشهداء. وذهب أبي ليتحقق من الخبر بنفسه: الاسم الثلاثي هو، لكن هناك اختلافًا في الرتبة والسلاح، وهو ما أعاد الأمل إلى أبي. إلى أن جاء يوم أثناء الإجازة، وكنت عائدًا من سهرة مع الأصدقاء، فتحت أمي الباب ولا يبدو أنها كانت نائمة، والأهم أن وجهها كان مشرقًا. قالت: «إنت خدت الجاكيت بتاع أخوك وسأل عليه»، سألتها: «أخويا مين؟». وأبلغتني أن أخي يونس عاد بعد فك الحصار في إجازة. علمت أنه دخل سريره للتو، فذهبت للاطمئنان عليه. كان أشبه بالغريق. هززته لأوقظه.

أخي يونس

استدار ببطء كما لو نام دهرًا. حملق فيَّ لثوانٍ ثم علا صوته فجأة: «أخويا بدر»، واحتضنني وراحت عيناه تدمعان. وأخيرًا أبلغني أنه منهك وأنه سيحكي لي كل شيء في الغد واستأنف النوم.

من الواضح أن فترة الثغرة كانت صعبة على من عايشوها، ولم تكن

الخسائر بالقليلة. كلما سألته عن أحد زملائه ممن أعرف، يقول لي: «تعيش إنت». قال لي: «تفتكر العسكري الذي كان يأتي إليكم لطلب أشياء أو توصيل أشياء؟»، قلت: «نعم، جبريل». من شدة الضرب أصيب جبريل بحالة هلع وحاول الهرب، واضطر أخي إلى سحب أجزاء سلاحه وتهديده بالقتل إن لم يتوقف. هذا هو القانون وقت الحرب، الهروب من الميدان جزاؤه الموت. كان أخي بعد الحرب غيره قبل الحرب. ذهبت تلك الشخصية الحريصة (عندما كنا نأخذ مصروفًا، كنت أنفق مصروفي عن آخره بينما كان يونس يوفر مصروفه)، وحل محلها شخص مسرف لا يعرف للنقود قيمة ولا يعنيه إلا إنفاقها. يبدو أن الحرب وما شهده في الثغرة جعلته يشعر بأن الموت قريب، وأن عليه أن ينهل من كأس الدنيا ما استطاع. لم تكن الحرب هي المرة الأولى التي ينجو فيها أخي يونس من الموت. ونحن صغار، كنا نقف ذات مرة على رصيف الترام ننتظر وصوله. وعند وصوله تدافع الناس وفجأة لم أجد أخي بجانبي، وظللت أبحث عنه من دون جدوى. وبعد أن غادر الترام المحطة، شاهدته وهو ينهض من المسافة بين الرصيف والقضيب. المرة الثانية عندما كان متعلقًا بباب القطار المزدحم في طريقه إلى مدرسته في قليوب. صدمه القطار المقابل صدمة خفيفة أصابت ظهره إصابة بسيطة. أما الثالثة فكانت عندما صحوت على جرس الباب في وقت مبكر، في منزلي بمصر الجديدة، ورأيت آثار الدماء على يده بعد أن انقلبت به السيارة وهو عائد من مأمورية في السويس. نام أثناء القيادة ونبهه فجأة الضابط الذي كان يركب بجواره، فداس على الفرامل بقوة؛ ما جعل السيارة تنقلب على جانب الطريق (تُوفي أخي يونس في ٢١ أغسطس ٢٠١٧ بعد صراع قصير مع سرطان الرئة الذي اكتُشف متأخرًا بعد أن بلغ المرحلة الرابعة).

أنجب أبي أربعة أبناء، اثنين قبل «البعثة» (كما كنا نطلق على السجن)، أنا ويونس، واثنين بعد البعثة هما عماد ووفاء. فأنا بيني وبين عماد حوالي ١٥ سنة، وبيني وبين وفاء حوالي ١٨ سنة. اختار يونس الحياة العسكرية والتحق بالكلية الحربية وتخرج ضابطًا. أما عماد فقد تخرج في النهاية من معهد التربية وصار معلمًا، وانضم للحزب الوطني ونشط في مجال المحليات. وكانت وفاء طالبة نجيبة، تخرجت في كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية وعملت بوزارة التربية والتعليم. وبفضل مجهودها، نجحت في الحصول على

منحة باليابان، كما حصلت على الماجستير من جامعة «كالجاري» الكندية. تزوجت من زميل لها وهاجرا إلى كندا، وأنجبت ثلاثة أولاد. وهي تعمل الآن بتدريس اللغة والثقافة العربية بجامعة «تورنتو»، ويعمل زوجها بإدارة إحدى الجامعات. وكانت وفاء، وما زالت، صديقتي والأقرب إلى قلبي.

أبي وأمي وإخوتي في مصيف رأس البر

بعد قليل من عودتي إلى الأقصر، صدَّقوا أخيرًا على إلحاقي بوحدة بالمنطقة المركزية لمواصلة رحلة علاجي أو خروجي طبيًّا من الجيش. كان معي وأنا داخل الجيش تقرير طبي يفيد بإصابتي بالتهاب الأعصاب الطرفية. لكن نظرًا لاحتياج الجيش إلى ضباط في ذلك الحين، قبلوا الجميع بما في ذلك الحالات المرضية. ورفض القومسيون أكثر من مرة رفدي لأنني ضابط احتياط. عندما بدأ تسريح الدفعات، في أكتوبر ١٩٧٥، كنت قضيت ٤ سنين بالتمام والكمال، وجاء تقرير أمني متأخر ليضعني على رأس قائمة

المسرحين. جاء التقرير بعد استدعائي في إحدى إجازاتي من جانب مباحث شبرا. كان المفروض ألا أذهب باعتباري في الجيش ولا ولاية لهم عليَّ. لكني خشيت من التصعيد والتواصل مع الجيش لاستدعائي رسميًّا. المهم أنني ذهبت وقابلت الضابط الذي سألني عن علاقتي بصديقي رجائي الميرغني وإخوته. أحسست أنه يريد تجنيدي للتعاون معه ونقل أخبارهم، ورفضت بالطبع. بعدها بمدة قصيرة، جاءت الأوامر لوحدتي بالقاهرة بنقلي ووضعي تحت المراقبة. وهكذا انتقلت إلى وحدة أخرى لأكون تحت المراقبة. وعندما جاء وقت تسريح دفعات الاحتياط، كنت في مقدمة المسرحين بفضل هذا التقرير.

وهكذا عدت إلى حياتي المدنية مرة أخرى في أكتوبر ١٩٧٥. ذهبت إلى بنها لاستلام عملي بشركة بنها للإلكترونيات حسب توزيع القوى العاملة. ولأني خريج صحافة، رأوا أن أنسب مجال لتخصصي هو العلاقات العامة. لكن قبل تسكيني رأى المدير العام أن آخذ ما أسماه «طوف»، والمقصود أن آخذ فكرة عن الشركة ككل، مثل ضابط يركب حصانه ويتفقد منطقته (كان هذا المدير ضابطًا سابقًا بالشرطة)، ولهذا عينني أولًا بإدارة الشؤون العامة مسؤولًا عن السُّعاة والفرَّاشين. ولما طال الأمر وبدأت أشعر بالاستياء والإحباط من هذا الوضع، شرعت في حملة سخرية من وضعي. كان كل مَن يقابلني من المديرين ويسألني عن عملي أقول له: «واخد مقاولة كنس ورش». وكانوا يستغربون هذا الوضع. لكن الحملة نجحت واستدعاني مدير عام الإدارة وعاتبني بعد أن جعلته محل انتقاد زملائه من المديرين.

انتقلت أخيرًا إلى العلاقات العامة. كانت فكرتي عن العلاقات العامة مستقاة من أحد زملاء أبي كان يشغل مدير العلاقات العامة بشركة عثمان أحمد عثمان. كنت أذهب إليه في أول العام للحصول على النتائج والأجندات الفاخرة التي يوزعونها بمناسبة العام الجديد. كنت أرى مكانًا نظيفًا منظمًا يعج طوال الوقت بحركة لا تهدأ. أما هنا فالأمر مختلف. العلاقات العامة قسم من شخصين ورئيس، رئيس من قدامى الإخوان المسلمين، زبيبة الصلاة بارزة في وجهه، لكن ينطبق عليه قول أبو النجوم رحمه الله: «كداب ومنافق وحرامي ودماغه مناطق موبوءة». كان العمل مقصورًا على استقبال وتوديع الخبراء الأجانب وإقامة موائد غداء (في برج قويسنا غالبًا) وشراء الهدايا

التذكارية للضيوف. وهو مجال خصب للسرقة والتربح.

أدركت بعد حين أن ذلك العمل بصورته تلك يحتاج إلى شخص حرامي ويتمتع في نفس الوقت بنفسية الخدم. قدمت طلبًا للنقل من هذه الوظيفة، وماطل رئيس مجلس الإدارة وتهرب لأنه كان يريدني في المكان. وانتهزت فرصة قيامه بإجازة فوقعت الطلب من نائبه وانتقلت إلى ما يُسمى بـ«الخدمة الاجتماعية». كان يرأس هذا القسم سيدة سمراء الوجه، أقل ما توصف به أنها قميئة، سوداء الوجه والقلب. كنت متحمسًا وأريد أن أفعل شيئًا. وكانت هناك دار للحضانة لأبناء العاملات، فقررت العمل على تطويرها. وهناك بدأت معركة أكبر، حيث كانت رئيسة القسم المذكورة تهمل عملها ولا تريد أن يعمل أحد حتى لا ينكشف أمرها. شنت عليَّ حملة تشويه شعواء، ومن بين ما روجته أنني أذهب إلى الحضانة للفرجة على العاملات وهن يرضعن أطفالهن!

في تلك الفترة، بلغ نشاطنا السياسي والنقابي في المصنع العنان. كنت قد انضممت لأحد التنظيمات السرية، وكان هناك زميل آخر ذو جماهيرية ساحقة في المصنع عضوًا بالتنظيم. ونجحنا في تكوين خلية هناك من أربعة أشخاص. لم أكن أحضر اجتماعاتهم، ولم يكونوا يعرفون على وجه اليقين أنني معهم (وكان لهذا فائدته التي سأبينها فيما بعد). وقد تمكنا من إنجاح عدد من قائمة مرشحينا في انتخابات النقابة ومجلس الإدارة. وقمت بعمل مجلة حائط، بمساعدة زميل لنا يهوى الرسم، أطلقت عليها، ويا للهول، «المطرقة»! كما تكونت لجنة ثقافية برئاستي، نظمت من خلالها العديد من الرحلات الثقافية إلى مسارح القاهرة، جذبت أعدادًا كبيرة من العمال. لكن وسط هذا الزخم قرر الزملاء في التنظيم سحبي من العمل الجماهيري وسط المعركة، لأتولى «الجهاز الفني». كان الجهاز الفني المزعوم عبارة عن لمبة فلورسنت ومحلول نشادر وورق رسم هندسي. وكانت زوجتي، وهي عضو أيضًا بالتنظيم، تعاونني في هذا العمل اللاإنساني. رائحة النشادر خانقة والنتيجة أوراق باهتة عصية على القراءة، تحوي كلامًا لا يستدعي كل هذه المشقة. أحسست بأني سيزيف الذي حكمت عليه الآلهة بأن يحمل الصخرة على ظهره ويصعد بها الجبل ثم تتدحرج من فوق ظهره لتهبط ويهبط وراءها ليحملها مرة أخرى، بلا هدف أو جدوى. ثم وقعت حادثة كان لها مدلولها في

هذا السياق.

نظرًا لانسحابي من العمل الجماهيري، لم يعد هناك مبرر لبقائي بالشركة وتحمل مشقة الذهاب يوميًّا من القاهرة إلى بنها والعكس. لذلك طلبت نقلي إلى أحد مكاتب الشركة بالقاهرة. وذات مرة ذهبت إلى مقر الشركة لإنهاء بعض الأوراق. وبعد إنهاء المهمة، خرجت من بوابة الشركة قاصدًا الأتوبيس المتجه إلى القاهرة. لكن زميلًا من مجموعة التنظيم طلب مني البقاء والعودة بالمواصلات لأنه يريدني في أمر مهم. ذهبت معه إلى بيته، وهناك قال لي إنه يريد أن يستشيرني في موضوع. كان هذا الشخص لا يعلم بعضويتي بالتنظيم، لكنه يراني قريبًا منهم جدًّا. قال إنه عزم على التوجه إلى مباحث أمن الدولة للتبليغ عن الزملاء لأن هذا التنظيم كافر! وحكى لي أن زميلًا مركزيًّا جاء لتثقيفهم في المادية الجدلية، وسخر أثناء حديثه من القرآن والأنبياء! اضطررت للمبيت ببيته، وظللت أجادله حتى الصباح لأقنعه بخطورة ما سيقوم به والضرر الذي سيلحقه بأشخاص هو مُقر بشرفهم في النهاية. ونجحت أخيرًا في إثنائه عن عزمه. وكان وقع هذا الموقف شديدًا على باقي المجموعة وأدى إلى تشتتها وخروج أعضائها في النهاية.

في القاهرة، انضممت إلى أحد مكاتب الشركة بباب اللوق رئيسًا لقسم يُسمى «الدعاية والإعلان». كنت أنا القسم والرئيس، وكان عملي عبارة عن عمل فاتورتين كل شهر لإعلان يومي عن مراكز صيانة الشركة بجريدتَي «الأهرام» و«الأخبار». تخيل كل عملك هو استخراج فاتورتين في الشهر، ومع ذلك كنت أتأخر وأضم كل شهرين معًا. كنت أتهرب من مشوار إلى بنها، أنا الذي كنت أقوم بهذه الرحلة يوميًّا. شيء ما في العمل الوظيفي معوق، لا أدري إن كان العيب في البشر أم في النظام. كان هذا هو الإيقاع العام ولم أكن استثناءً. كنت أذهب إلى المكتب الثامنة والنصف أو التاسعة، أوقع بالحضور وأتناول الإفطار والشاي وأمازح زملائي، ثم أمضي إلى حال سبيلي، إلى مراتع وسط البلد، أتسكع وألتقي أصدقائي، وأعود مع موعد توقيع الانصراف. لكني سئمت هذا الإيقاع بعد حين. وكان عليَّ أن أتوقف وأسأل نفسي: «هل تنوي استكمال مشوارك الوظيفي وتنهي حياتك بالمعاش؟ هل تستمر في وضع أدنى كثيرًا من قدراتك، ترفضه وتأباه؟».

حوالي عام ١٩٧٨، لم يعد راتبي الشهري يغطي نفقات المعيشة، ولم يعد

استمرار هذا الوضع مقبولًا. فقررت الحصول على إجازة بدون مرتب من عملي الحكومي والبحث عن عمل آخر يتناسب مع قدراتي ويحسن دخلي. كنت أعرف حينها الفنان الراحل عدلي رزق الله، الذي يعمل مديرًا فنيًّا لـ«دار الفتى العربي» لكتب الأطفال، التي كانت في ذلك الحين منارة نشر كتب الأطفال في العالم العربي بحق. كانت دارًا رائدة، شبَّ على كتبها أكثر من جيل من الفتيان والأطفال العرب. اجتذبت الدار أهم فناني رسوم الأطفال حينها، حيث شارك في رسم كتبها فنانون كبار من مختلف البلاد العربية، أسماء كان لها رنينها في ذلك الحين ولا يزال، على الرغم من مفارقة معظمهم دنيانا: محيي اللباد (صاحب الجهد الفني الأساسي في وضع السلاسل الأولى للدار ومديرها الفني في فترة التأسيس، مع المرحوم إسماعيل عبد الحكم)، حجازي، إيهاب شاكر، حلمي التوني، عدلي رزق الله، كمال بُلاطة، نبيل تاج، برهان كركوتلي، بهجت عثمان، محمود فهمي، نذير نبعة، يوسف عبد لكي، بدر حمادة، وغيرهم. كما اجتذبت أقلامًا لها وزنها في دنيا الكتابة: زكريا تامر، صنع الله إبراهيم، حنان الشيخ، فؤاد حداد، والشابان أحمد زحام ويوسف أبو رية، وغيرهم. وكان يمول الدار مجموعة من رجال الأعمال الفلسطينيين، على رأسهم الدكتور نبيل شعث (رئيس مجلس إدارتها الفعلي). وعُينت بالدار بوظيفة سكرتير فني وبراتب شهري مائة جنيه. كانت تجربة جديدة وثرية بالنسبة لي تعلمت منها الكثير، خاصة إذا علمت أن فريق العمل كان يتألف من عبد الفتاح الجمل رئيس التحرير، وعدلي رزق الله المدير الفني، وصلاح عيسى مدير التحرير، إلى جانب السيدة حسناء مكداشي المدير الإداري للدار. وفي هذه الدار تعرفت وارتبطت بعدد من الكبار الذين أثروا كثيرًا في حياتي وصارت بيننا صداقة امتدت بامتداد حياتهم.

عرفت هؤلاء

في تلك الأيام (السبعينيات)، كانت بارات وسط البلد كثيرة وعامرة دومًا بالزبائن، ووعد محتمل بعقد صداقات. فأنت إذا ترددت على البار ثلاث مرات، صرت زبونًا معروفًا للزبائن والجرسونات، ويستقبلك الجميع ببشاشة وود. وعلى الرغم من تعدد الموائد والشِّلل، تشعر بأن البار كله خشبة مسرح واحدة، وببساطة يمكنك أن تأخذ كأسك وتنضم إلى مائدة أخرى، أو يأتي أحدهم ليجالسك لحين حضور شلتك. ذات مرة، وكانت من المرات الأولى التي أتردد فيها على «المستودع» (بار ستيلا على ناصية شارع هدى شعراوي)، دخل شخص مهيب، متجهم الوجه (ذكرني على الفور بمحمود مرسي في دور عيسى الدباغ في فيلم «السمان والخريف»)، حياه الحاضرون باحترام وتودد. جلس (خُيِّل إليَّ أنه خلع طربوشًا، مع أن الطرابيش اختفت منذ زمن)، وسارع الجرسون بإحضار طلبه من دون أن يطلب، فأعطاه بعض التعليمات وصرفه. تبادلنا نظرات غير مريحة، وفكرت للحظة أن أغادر المكان، لكنني كنت أنتظر بعض الأصدقاء. وعندما وصل أصدقائي، سلم بعضهم على الرجل وعرفوني عليه: «مصطفى بك عبد العزيز» (ومن ألقابه أيضًا «سيادة المستشار»)، رئيس نيابة. ولفرط حساسيتي تجاه أي سلطة، كان ترحيبي به فاترًا. لكن بعد أن تداخلت الموائد وفعلت الخمر فعلها، بدأت ألمح شيئًا آخر في هذا الشخص. وبتكرار التردد على المكان، أَلِفته وذهبت التحفظات لتبدأ صداقة استمرت حتى وفاته. عندما تعرف مصطفى على حقيقته، تكتشف أنه لا يمت بصلة لذلك القناع الذي كان يضعه، وربما كان لهذا القناع أيضًا صلته بوظيفته كعضو بالسلطة القضائية. مصطفى الحقيقي شخص بالغ الرقة واللطف، مسالم وطيب، ودمعته قريبة، بل ويسمح لك أن تقمعه إذا ما أحبك. كان يمكن أن ترى دموعه عندما تقع عيناه على صورة لطفل مشرد بلا مأوى، أو رجل فقد أطفاله بسبب الحرب. لا يهمه درجة قرابته بصاحب الواقعة. كان أقرب للهيومانيين، الداعين إلى الأخوة الإنسانية.

المستشار مصطفى عبد العزيز

ينتمي مصطفى إلى عائلة وفدية عريقة. فخال أمه مصطفى النحاس، وقد سُمي على اسمه. لكن مصطفى نفسه كان شيوعيًّا، سبق القبض عليه ودخل السجن. وهو شخص وحيد، بلا إخوة أو أقارب. وقد شغل نفسه كثيرًا بالبحث عن أقاربه. لم يتبقَّ له من أقاربه سوى ابنة خالة كان يودها من حين لآخر. يعيش وحده في شقة يرمح فيها الخيل قريبة جدًّا من محطة مترو حلوان. وهو لا يدخل هذه الشقة إلا آخر الليل. كان مصطفى كفؤًا في عمله ويتمتع بسمعة طيبة بين زملائه، وعندما تُوفي، كان بدرجة نائب وزير. وقد زرته في عمله أكثر من مرة وشاهدت الهيبة والاحترام اللذين يتمتع بهما. وبعد الثانية أو الثالثة، يترك هذا الهيلمان إلى البار الأقرب. كان مصطفى كسولًا، يختار باراته الأساسية حسب قربها من مكان عمله. وفي الفترة التي عرفته فيها كان المستودع مستقره الأساسي، فهو على مسافة ناصيتين من مكان عمله. وعلى الرغم من أن مصطفى كان بطوله، فإنه كان مدينًا دائمًا، وكانت له نوتة عند حماد، صاحب المستودع حينها. وعندما تغيب مصطفى عدة أيام ذات مرة، شعر حماد بالقلق على نقوده. كان حماد يعرف أنه يعمل في ١ ش طلعت حرب، لكنه لا يعلم ماذا يعمل بالضبط. ذهب حماد إلى العنوان وسأل عن مصطفى بك. جلس حماد ينتظر في الصالون الملحق بالمكتب، وكل حين يدخل متهمون ويخرج غيرهم من ذلك الباب الذي يقبع خلفه الرجل الذي

ينتظر مقابلته لمطالبته بالمكسور عليه. بدأ الفأر يلعب في عب حماد. أحس أنه في مأزق: هذا الرجل يمكن أن يضع في يده الكلبشات أو يفعل أي شيء. ولذلك عندما أدخلوه على مصطفى وسأله: «فيه حاجة يا حماد؟». أجاب، ومفاصله سائبة: «أبدًا يا باشا، أنا لقيتك ما جيتش بقالك شوية قلت أطمن عليك». وعلى عجل، انصرف محييًا.

في إحدى المرات التي اختلفت فيها مع زوجتي وتركت المنزل، طلبت من مصطفى استضافتي لبضعة أيام حتى أجد مكانًا آخر. رحب مصطفى، وإن تأثر لما حدث، وبعد انتهاء جولة السُّكر، توجهنا إلى منزله ليلًا. منزل صغير قديم وجميل، تحتل شقته طابقه الأخير ولها اتصال بالسطح. الشقة واسعة، بها حوالي أربع غرف مغلقة، تركها مصطفى فريسة للتراب، وكان يمارس كل أنشطته في حجرة صغيرة ملحق بها ركن صغير، يحتوي على سرير وكنبة متهالكة ويحيط بها تلال من الكتب والمجلات والأسطوانات بترابها. الشقة لم تعرف التنظيف منذ سنين، وسرير النوم الذي يستخدمه متهالك وفرشه لم يتغير منذ زمن. قلت لنفسي: إن مصطفى لا بد أن يتزوج ولا بد أن يكون بجانبه من يرعاه. كان مصطفى قد عاش في شبابه قصة حب رومانسي، كانت الرمز والمثال الذي ظل يبحث عنه بقية حياته. سعينا، أنا والمرحوم نزار سمك (سنفقد نزار بعد ذلك في حادث عبثي عندما احترق مسرح بني سويف لأسباب غير معلومة ومعه خمسون من حضور العرض، في ٥ سبتمبر ٢٠٠٥) وصديقي عبد الكريم (انظر ملحق: شعبي العظيم)، في أمر زواجه. واجتهد عبد الكريم في تدبير لقاء بينه وبين مرشحة من جيرانه. وتم اللقاء في روف فندق أوديون. وبعد إجراء التعارف الجماعي، انسحبت أنا وعبد الكريم وتركنا الاثنين ليستكملا التعارف. وجاء رد مصطفى بالرفض، وقدم لنا تبريرًا هزيلًا وهو يضحك: «حد يتجوز واحدة رموشها زرقاء؟!». كان مصطفى يتهرب. نمَت داخله عقدة الحب الأول على ما يبدو. كنا نريد أن نضمن له من يرعاه، والغريب أن تلك السيدة، وكانت على قدر كبير من الجمال، تُوفيت قبله.

أيضًا كنا نريد وريثًا لمصطفى. فهو بلا أهل، وسيضيع إرثه هدرًا.

في المرة قبل الأخيرة التي زرته فيها في المستشفى الذي انتقل إليه بعد أن تبينت إصابته بالسرطان، أعطاني توكيلًا لاستلام شقتين فوق بعضهما، سبق أن حجزهما في مساكن للقضاة في عين حلوان. قال بجدية: «بافكر إما

أفتحهم على بعض أو أبيعهم وأشتريلي شقة في الدقي أو المهندسين أقضي فيها العشر سنين اللي فاضلين». وذهبت إلى عين حلوان وعاينت واستلمت الشقتين، وأعطوني مع الأوراق عدد ٢ تابلوه كهرباء. وظلت أوراق الشقتين والتابلوهين بحوزتي سنين بعد وفاته، وأنا لا أعلم لمن أسلم هذه الأشياء. وسافرت للعمل في الإمارات لمدة ثمانية شهور وعدت. وبعد ذلك بمدة، اتصل بي المرحوم شوقي فهيم ليخبرني بأنهم وجدوا له أقارب لم يسمع عنهم في عمره ولا يعرف عنهم شيئًا. حتى ابنة خالته التي كانت الوحيدة من أقاربه التي يعرفها ويودها أحيانًا لم تدخل ضمن الورثة. وبالاتفاق مع شوقي، ذهبت إليها وسلمتها متعلقات الشقتين لتسلمها للورثة المجهولين.

في المستشفى، كنت أذهب لزيارة مصطفى والناقد والمفكر الراحل غالي شكري، الذي كان يرقد بغرفة مجاورة. وفي زيارتي الأخيرة، كان مصطفى قد غاص في غيبوبته وأحاطت به الخراطيم واكتسب جسمه لونًا داكنًا جعله أقرب للمومياوات. لم أحضر وفاته، حيث كنت بعيدًا في القصير. قال لي نزار بعد وفاته: «تفتكر إيه آخر طلب طلبه مصطفى لما شفته في آخر زيارة؟ أهربله ساندويتشين مكرونة». وأصل الحكاية أننا كنا يومًا في بار أنجلو وبعد أن انتهينا من الشراب سألني مصطفى ماذا سنأكل. كنت منذ فترة قد اكتشفت ساندويتشات المكرونة، وأخفيت الأمر عن أصدقائي خشية التأنيب والتهكم: «حد ياكل نشا في نشا؟». وهو ما حدث بالضبط عندما اقترحت على مصطفى هذه الساندويتشات. لكنني لم أعطه فرصة التملص من هذه الوجبة التي كنت أقدرها حق قدرها. لم يقاوم مصطفى مذاق الساندويتشات وأدمنها مثلي في الخفاء.

عندما أطلق عليه البعض «مصطفى هوا» من باب المزاح والتهكم، أنا فهمت التعبير بمعنى الخفة، خفة كائن وحيد يكابد حياة لم يخترها. فمصطفى لم يكن شخصًا فارغًا قَطُّ، بل إنسانًا بالغ الرقة والخصوصية.

كانت «دار الفتى العربي» تضم مكتبًا مستقلًّا لشركة «تيم» لبرامج الكمبيوتر وتنظيم معسكرات كمبيوتر صيفية للشباب، ويرأسها أيضًا الدكتور نبيل شعث. كان يشغل هذا المكتب أحمد حجازي رسام الكاريكاتير، الذي كان يتولى إعداد مطبوعات الشركة. كان أول ما لاحظته أن حجازي ينكب على ثلاثة أشياء طوال الوقت: الرسم والتدخين والقهوة. لا يغادر مكتبه إلا إلى المطبخ، ويعود حاملًا بيدٍ فنجان القهوة الذي أعده بنفسه وهو يحفظ توازنه حتى لا تندلق (كانت الدار توفر لنا الشاي والبن والسكر ونقوم نحن بعمل مشروبنا بنفسنا)، وبيده الأخرى مبسم السجائر. منذ التعارف الأول بحجازي شعرت أنني أمام إنسان بسيط، بشوش، هادئ، قليل الكلام، يتعامل بندية وتواضع جم. كلامه مثل رسومه، موجز ومعبر. شغيل، يستيقظ مبكرًا مهما كان وقت نومه. كان يذهب إلى عمله في «صباح الخير» في الثامنة صباحًا تقريبًا، وعندما يبدأ توافد المحررين، ما بين العاشرة والحادية عشرة، يكون قد أنهى عمله وغادر المجلة. سألته ذات مرة عن سر تلك الهمة في العمل، في وقت كانوا يلقنوننا فيه كراهية «العمل البرجوازي»، فحكى لي بطريقته الساخرة أنه كان في مدخل بلدهم (طنطا) خُص يقدم الشاي والمعسل، وكانت هناك فتاة هي التي تتولى خدمة الزبائن. كانت في ذهابها وإيابها تغني أغنية واحدة لا تغيرها: «أبويا قالي يا سعاد، الشغل أحسنلك من القعاد!».

جميل شفيق وحجازي

حجازي من القلائل الذين استوعبوا الشخصية المصرية وعبروا عنها، وما زالت شخصياته أيقونات في تاريخ الكاريكاتير. بعد أن أتم حجازي دراسته الثانوية، غادر طنطا إلى القاهرة ليقدم نفسه كرسام. قام في البداية بعمل الرسوم المصاحبة للقصص والحوادث. وقال لي ذات مرة إن أول من اكتشف موهبة الكاريكاتير عنده ووجَّهه نحوه كان إبراهيم الورداني، الذي تعاون معه في إحدى المجلات في بداية عمله في القاهرة. والغريب أنه على الرغم من ضخامة إنتاجه لم يكن يحتفظ بأصول رسوماته، وما بقي منها هو ما أمكن للصديق محمد بغدادي، جمعه من أكثر من مصدر وضمنه كتابه عنه «حجازي فنان الحارة المصرية»، بالإضافة إلى عدد منها لدى بعض الأصدقاء.

كان يوم الثلاثاء، يوم تجمع الشلة في بيت حجازي، يوم بهجة. يتوافد الأصدقاء واحدًا وراء آخر بدءًا من الثانية عشرة ظهرًا. يأتي الأصدقاء من الرسامين والكتاب لتسليم أعمالهم التي ستُنشر بمجلة «ماجد»، ينصرف البعض منهم ويبقى آخرون انتظارًا لباقي الأصدقاء. ومائدة حجازي عامرة دائمًا بالمأكل والمشرب ولا يبخل على أصدقائه بشيء. لكنه لا يطيق رائحة

الطبيخ في البيت، وعندما كان يأتيه أقاربه من البلد كان يترك لهم البيت، تفاديًا لروائح الطبيخ.

عندما عرفنا بالمصادفة تاريخ ميلاده، قررنا أن نفاجئه باحتفال بسيط. من الصعب أن ترضي ذوق شخص فريد مثل حجازي. أنا أحضرت تورتة (اختيار تقليدي محض) وهناك من أحضر أقلامًا وغير ذلك. إلا أن أكثر هدية احتفى بها كانت لمبة جاز، أحضرها صديقنا الفنان جودة خليفة. لكن حجازي لم يرتح تمامًا لفكرة عيد الميلاد هذه، لذلك في يوم ميلاده في العام التالي اختفى حتى لا نكرر عملتنا. أحيانًا أرى الكثير من تصرفات حجازي على ضوء علاقته بالفلوس. فهو رجل كسيب، لكنه يتصرف مع الفلوس كما لو كان يتخلص منها.

ذات يوم، قبل انتقاله بمدة إلى طنطا، ذهبت لزيارته وفوجئت بأنه ركَّب جهازَي تكييف مرة واحدة، ومع ذلك جلسنا في الحر من دون أن يشغلهما. وعندما أبديت استغرابي، قال: «بص، أنا لازم أبقى مديون عشان أشتغل، وبعدين أنا مش ناوي أسيب حاجة يتخانق عليها حد». وهذا الموقف من الفلوس تراه أيضًا عندما قرر العودة إلى طنطا، ورفض أن يأخذ من صاحب البيت أي تعويض، حسب العرف السائد. ولا أنسى عندما طلبت مني إحدى دور النشر التوسط لديه لعمل غلاف لديوان «المسحراتي» لفؤاد حداد، بعد النجاح الذي حققه غلافه لديوان «الأراجوز». وكانت من المرات النادرة التي طلبني فيها حجازي تلفونيًّا في منزلي ليبلغني أنه انتهى من الغلاف، وعندما ذهبت لاستلام الغلاف سألته عن المبلغ الذي يريده نظير عمله، قال: «لا شيء». وعندما أبديت استغرابي، قال: «ما باخدش فلوس من ميتين»، سألته: «كيف؟»، قال: «لأني عامل الغلاف لفؤاد حداد مش لدار النشر».

وحجازي لا يحملك همه أبدًا ولا يُشعرك بألمه. عندما توفيت أمه لم يخبرنا، مع أنه كان سهران ليلتها مع بعض أصدقائنا حتى الصباح. هكذا هو، ألمه حكر عليه. ذات مرة انقطعت أخباره ولم يرد على تلفونات الأصدقاء، فقلق صديقنا الشاعر فؤاد قاعود وذهب للاطمئنان عليه. فتح الباب وهو يكاد يقع ويتنفس بصعوبة، واضطر فؤاد إلى نقله إلى المستشفى. أنقذه فؤاد في اللحظات الأخيرة. كل هذا لأنه لا يريد أن يثقل على أحد.

كانت معيشته وحده من دون ونيس تؤرقني، خاصة وهو يرفض أن يتزوج

مرة أخرى. وألححت عليه أن يربي كلبًا أو قطّا يؤنس وحدته، لكنه رفض بشدة. لكن الفكرة ظلت تطاردني، ففكرت في شيء آخر. اقترحت عليه أن أحضر له حوض سمك زينة، ووافق بعد إلحاح. أحضرت الحوض بلوازمه ومعي اثنان من أصدقائي الخبراء في هذه الهواية. انتهى الأصدقاء من تركيب الحوض وملئه بالماء وإضافة لوازمه. وجاءت لحظة إنزال السمك في الحوض. مشهد غريب لا أعرف له تفسيرًا منطقيًّا حتى اليوم. ماتت الأسماك، سمكة وراء الأخرى بمجرد نزولها إلى الحوض! وقفنا مشدوهين، وأحس صديقاي بالصدمة والخجل. ما خمنته وقتها أن حجازي لا يحتمل أي كائن حوله وربما كان أكثر سعادة بوحدته المطلقة. مجرد تخمين ميتافيزيقي لا دليل عليه.

حجازي صاحب مقام. نذهب إليه لكنه نادرًا ما زار أحدنا في بيته. عندما ذهبت إليه للمرة الأخيرة في طنطا، وكان هذا بعد انتقاله هناك بقليل، صممت أمي أن تأتي معي من كثرة ما حكيته لها عن هذا الرجل. احتفى حجازي بنا كعادته، وقضينا معه وقتًا ممتعًا. ونحن نغادر قالت له أمي: «والنبي يا أستاذ أحمد لو نزلت مصر تيجي تزورنا». ابتسم حجازي ابتسامته المحايدة الخجولة وقال: «إن شاء الله». ولكي أخلصه من حرج الوعد بشيء لن يفي به، قلت لها: «حجازي يا أمي صاحب مقام، الناس هي اللي بتجيله، هو ما بيروحش لحد». هكذا هو حجازي، صاحب مقام فعلًا ومن طيبي الذكر.

حكى لنا الشاعر فؤاد قاعود رحمه الله أن حجازي طلبه ذات مرة ليقول له إن هناك شيئًا ما في حياته ولا يعلم كيف أخفاه عنه حتى الآن على الرغم من قدم صداقتهما، خاصة أنه شاعر أيضًا. قال حجازي، والعهدة على فؤاد: «أنا لما كنت في ثانوي قررت في يوم أبقى شاعر، واخترت غرضين من أغراض الشعر للكتابة، هما الهجاء والرثاء. واصطفيت أحد مدرسي العربي، توسمت فيه الخير، وكنت كل حين أكتب قصيدة هجاء وأخرى رثاء وأقدمهما له. في المرة الأولى قرأ بعناية ثم قلب الورقة على ظهرها ولم يعلق. وبدأ بعد ذلك يكتفي بمجرد النظر السريع إلى الورقة ثم يقلبها على ظهرها من دون أي تعليق. المهم يا فؤاد في خامس أو سادس مرة، وقبل أن أهم بتقديم إنتاجي قال الرجل بوجه متجهم، ودون أن ينظر إلى الورقة: «يا ابني، لو حد ماتلك روح عزيه، ولو حد ضايقك اشتمه، بس بلاش الحكاية اللي إنت بتعملها دي»».

وحكاية حجازي مع جودة خليفة جديرة بالحكي، فهي تكشف جانبًا من شخصيته. ذهب جودة في وقت مبكر من الصباح كي يلحق حجازي قبل أن ينهي عمله بـ«صباح الخير» ويغادر. وجد جودة الأسانسير معطلًا، فصعد الأدوار السبعة على قدميه، ودخل على حجازي وهو يلهث. على الرغم من حالته، يبدو أن جودة كان على عجلة من أمره لخطورة الموضوع الذي أتى من أجله. عاجله حجازي، وكان يتناول إفطاره، قائلًا: «تفطر يا جودة؟». رد بالإيجاب وقدم له حجازي ساندويتشًا. وبعد أن انتهى من الساندويتش وهمَّ بالحديث، سأله حجازي: «تشرب شاي يا جودة؟». ورد جودة: «آه». وبدأ جودة يتحدث بوجه عابس: «محمد جاد قبضوا عليه يا حجازي، ومش عارف أعمل إيه فقلت أجيلك. أكيد إنت تعرف تتصل بحد من الكبارات وتوصيه عليه». فوجئ حجازي في البداية ثم أغرق في الضحك، وقال له: «طبعًا أنا مش عارف حكاية الكبارات دي جاتلك منين، لكن عمومًا يا جودة كل اللي أقدر أقولهولك سيب التاريخ ياخد مجراه». وجاء الدور على جودة لينفجر ضاحكًا. حجازي لم يكن بينه وبين الكبارات عمار، كما أن الحدث لم يكن بالمأساوية التي تصورها جودة، واكتشفه في النهاية. فكل يوم يقبض على شخص أو آخر ممن يراهم النظام أعداءه.

كانت الأقنعة أشد ما يمقته حجازي. وكان يعبر عن رأيه بواقعة لافتة بالنسبة له. ذهب ذات مرة لزيارة أحد أصدقائه. وأثناء صعوده سلم منزل صديقه، سمع حوارًا بين زوجة صديقه والبواب. كانت الزوجة غاضبة للغاية ونبرات صوتها تشي بشراسة منقطعة النظير. لكنها عندما لمحت حجازي استحالت وفي لحظة حملًا وديعًا رقيقًا، تعلو وجهها ابتسامة عريضة، وينساب حديثها عذبًا، سلسبيلًا. كان يتساءل ببراءة طفل: «ليه؟ وإزاي بيعرفوا يعملوا كده؟ إزاي هما كده؟ كيف يغيرون الأقنعة بهذه السرعة؟ تجد الرجل يخصص قناعًا لزوجته وآخر لأولاده وثالثًا لزملاء العمل ورابعًا لأصدقائه، إلخ».

عندما مات صلاح جاهين رفض الحلول محله في «الأهرام»، لأن سطوة الإدارة أشد من سطوة التحرير، على عكس الحال في «روز اليوسف». ففي «روز اليوسف» كان هناك نموذج نادر للمدير الناجح، الحاجة سعاد رضا، العضو المنتدب للمؤسسة. فهي من أبناء المؤسسة، بدأت السلم من أوله وهي في السابعة عشرة من عمرها، واكتسبت الخبرة، في بدايتها، على يد

السيدة فاطمة اليوسف. وكانت صديقة لكل العاملين بالدار، تساعدهم وتذلل العقبات التي تواجههم. كنت أطلق عليها «أرجل راجل في «روز اليوسف»». كما رفض حجازي جائزة «مصطفى وعلي أمين»، لأنه كان يرى أن تاريخهما مشين، وعملاء للأمريكان.

* * *

قبل وفاته بقليل، ذهب عدد من الأصدقاء لزيارته لكنهم لم يروه. كان نور حجرته مطفأ، وعندما دخل عليه أحد الأصدقاء وأضاء النور، نهره وطلب منه على الفور إطفاءه. كان قد توقف عن حلاقة ذقنه، وامتنع عن الطعام والدواء. كان قد سئم الحياة وقرر أن ينهيها بطريقة تناسب طبعه، وحيدًا وفي هدوء.

طيبو الذكر من أصحابي الذين عرفتهم عن طريق «دار الفتى» كثيرون، وكتابتي عنهم عنوانها العريض: «هؤلاء علموني». علموني من دون ادعاء أو قصد «وهما سايبين إيديهم».

بعد قليل من وجودي بالدار، هلَّ عليَّ ذات يوم الأستاذ علاء الديب. لم نتعثر في التعارف. هذا إنسان يتسلل إلى داخلك بسلاسة منقطعة النظير، ابتسامته هادئة تمنحك الأمان. يومها خرجنا من الدار أربعة: أنا وعلاء وعدلي رزق الله ورابع لا أتذكره الآن. ما حدث هو أننا انقسمنا مجموعتين؛ عدلي والشخص الآخر، وأنا وعلاء. وسار الثنائيان من جاردن سيتي وحتى وسط البلد. طوال هذه المسافة لم ينقطع الحديث بيني وبين علاء. كان كلام علاء له مذاق جديد؛ حوار سلس بعيد عن القوالب الأيديولوجية السائدة. لو أردت أن ألخص ما جرى يومها في كلمة لقلت: «التبني». أحسست حينها أن علاء تبناني إنسانيًّا. أصبح أخي الكبير الذي لم تلده أمي، وصديقي الذي يأخذ بيدَي في الحياة من دون تسلط أو فرض. هو الذي لاحظ خجلي وشجعني على مزيد من الاقتراب منه.

أشعر بأن كتابتي عن علاء هي الأصعب على الإطلاق لأنه كان الأقرب إليَّ والأكثر تأثيرًا في تكويني الإنساني. علاء يكبرني بتسع سنوات. ولد في ١٩٣٩، وكان فخورًا بأنه العام الذي غنت فيه أم كلثوم أغنية «اذكريني»، والتي كان يعتبرها قمة رومانسية السنباطي. مع علاء، انتقلت من الأيديولوجيا إلى الحياة. ولم تنقطع علاقتنا يومًا منذ ذلك اللقاء بـ«دار الفتى»، وحتى الأيام الأخيرة من حياته بمستشفى القوات المسلحة. ومعًا، سافرنا إلى السويس والغردقة والعريش ومرسى مطروح، وطبعًا الإسكندرية التي يعرف أماكنها الحميمة حق المعرفة، وغيرها من مناطق مصر. هو من عرفني على الإسكندرية. أما القاهرة فكان يملك مفاتيحها. كانت من غزواتنا المعتادة، بعد أن تنتهي سهرتنا في منزل حجازي أو محمد قناوي (السكرتير الأسبق لمجلة «صباح الخير») مع ساعات الصباح الأولى، التوجه نحو منطقة الفجالة وكلوت بك، نقطع شوارعها وحاراتها الخالية في ذلك الوقت المبكر من الصباح، ويحدثني عن ذكرياته ومعالم حميمة في تلك المنطقة كنت أجهلها. وكان ينتهي بنا السير والتجوال في جروبي عدلي لتنتهي ليلتنا بالإفطار هناك. هذا

غير جولاتنا في القاهرة القديمة ومقابر الغفير ومجموعة السلطان برقوق. علاء يستوقفه ما لا يستوقفك. أتذكر أن أكثر ما علق بذاكرته في هذه المنطقة رجل يمتلك خُصًّا متواضعًا في سور ممتد بشارع فسيح، كنا نتردد عليه لتناول الشاي وتدخين المعسل. رجل لم نرَ له مثيلًا في النظافة والذوق والمودة، وأين؟ وسط المقابر. رأى فيه علاء نموذجًا لإتقان العمل وظل يتذكره بالخير كلما جاء ذكر هذه الجولات على الرغم من مرور السنين.

علاقته هذه ببسطاء الناس لافتة. عندما كنا ننزل الإسكندرية في الثمانينيات والتسعينيات، كانت لوكاندة مصر، القريبة من ميدان الرمل، اختياره المفضل. كانت في ذلك الحين، مكانًا بسيطًا متقشفًا؛ يقدم أسرَّة نظيفة ولا شيء غير ذلك. لكن كانت هناك أم محمد. سيدة في الأربعينيات تقريبًا، مطلقة بعد زيجة تعِسة من رجل كان يستولي على أجرها. كانت مهمتها تنظيف المكان وتغيير فرش الأسرَّة. لكنها كانت تتطوع بصفة استثنائية ولأجل خاطره لإحضار الفطور واللبن كل صباح لنا. وبعد حين أصبحت العلاقة عائلية وصارت صديقة أيضًا لزوجته. فهي تتصل من حين لآخر للاطمئنان عليهم، حتى بعد أن تركت اللوكاندة. وعندما علم علاء بأن الله وفقها بزوج جديد، طلب مني البحث عنها لتقديم النقوط. لم نكن نعرف لها مكانًا أو رقم تلفون، كل ما يعرفه علاء هو أنها تعمل في شركة مقاولات بميدان المنشية. قلبت ميدان المنشية كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لكني لم أعثر عليها. هكذا هو علاء، قلب نابض بالمحبة لكل البشر، وخاصة البسطاء الذين لم يصابوا بالادعاء.

جيلي فرَّقته السياسة على «دكاكين» العمل السري، وانقطعت عنه العلاقات الإنسانية. فكان جيل علاء هو ملاذي. ضمَّني علاء إلى جيله، متمثلًا في شلة «صباح الخير» بامتداداتها، قبلوني على ضمانته، فعرفت محيي اللباد وحجازي وبهجت عثمان وجميل شفيق ومحمد قناوي وعزيز المصري ورشدي أبو الحسن ونبيل تاج ومصطفى الحسيني وإبراهيم منصور، وغيرهم. وبالتدريج صرت فردًا من أسرته، بل صار بيته هو البيت الذي أرتاح فيه أكثر من بيتي. كان بيت علاء مرتعًا آخر للشلة. بيت دافئ، ومصدر دفئه الأساسي زوجة محبة، راضية، وفية ومضحية. كانت ترعاه، وترعانا معه، بكل الود والترحاب. كان إذا أصيب أحد من أصدقائه القريبين بالبرد، ألحت عليه في المجيء ليرتاح عندهم وتغريه بشوربة ساخنة. كنت أمازح علاء أحيانًا وأقول

له في حضورها وفي غيابها: «ربنا خد منك كل شيء وأعطاك عصمت». وكان يضحك مؤمِّنًا على قولي. فهو يقر في دخيلة نفسه بدورها وبما قدمت يداها له ولكل من حوله. «أخدته بصحابه». كانت أختنا وصديقتنا. عندما كنا نذهب لزيارة علاء بربطة المعلم، كان الصغير أحمد أو «حموكشة» (الذي سيصبح المخرج السينمائي أحمد علاء) يستقبلنا مهللًا ويسرع ليبلغ أهل البيت أن «الفريق القومي» وصل. ومن وقتها صار اسمنا «الفريق القومي». إلى جانب هذا، كانت عصمت، أو «الست أم أحمد»، كما كان يناديها، هي قارئه الأول وأول من يطمئنه على ما يكتب. وكانت ملاحظاتها تحظى بكل اهتمامه. ولا أنسى لهذه السيدة صلابتها وقوتها النفسية في فترة مرضه الأخير، فهي التي كانت تبث فينا الأمل في أنه سيُشفى ويتجاوز محنته ليعود إلينا من جديد. وحتى الآن لم تنقطع زيارتي لها والتواصل معها. وما زالت حتى اليوم تجمع أصدقاءه كل عام في ذكرى وفاته (١٨ فبراير) ببيته العامر بفضلها والذي ظل كما هو بكل تفاصيله. فأنت عندما تدخل مكتبه سيخيل إليك أن علاء جالس مكانه كما كان في حياته.

مع علاء والست أم أحمد بمنزلهما العامر

ما يلفت أيضًا في علاء علاقته بالأجيال الأصغر، أي الشباب؛ لم تخلُ مناسبة

في بيته من هؤلاء الشباب، حتى أصدقاء أبنائه سرعان ما يتحولون إلى أصدقاء له. وعرفت في بيته عددًا من شباب ثورة يناير التي آمن بها وبهم.

مع علاء تعرف المعنى الحقيقي للكرم. ليس الكرم أن تعطي، بل أن تنسى ما أعطيت مهما كبر قدره، وأن تتذكر جيدًا ما أخذت مهما قل قدره. هو لم يقل هذا، بل قاله سلوكه وتصرفه. لم يكنز علاء مالًا، بل كان ينفق ما يأتيه بسخاء. وعندما سألته عن سبب تلك العلاقة الغريبة بالنقود، قال ربما لأنهم كانوا يوفرون له كل شيء وهو صغير من دون أن يعطوه نقودًا في يده، فلم يتعلم إدارة النقود. الملمح الآخر في شخصية علاء كما خبرتها سطوع فكرة الضمير في قلبه. كان بحكم مسؤوليته عن باب «عصير الكتب»، يصله كل أسبوع عدد كبير من الكتب لمبدعين جدد وقدامى، وكان يترك كل هذا أحيانًا ليشتري كتابًا من جيبه ليعرضه. وكان إذا عثر على موهبة، احتضنها وتحول إلى بوق يبشر بمولدها. والأسماء في هذا المجال كثيرة. كما كان علاء عف اللسان. وكانت أكبر شتيمة عنده «ينعل أبو خاشك». وهو تعبير أقرب إلى المزاح منه إلى السب.

علاء كسول، يتحدث كثيرًا عن مشقة المسافة بين الكنبة والمكتب، وهما في غرفته قريبان للغاية. وهو ما اضطر الأستاذ لويس جريس رئيس تحرير «صباح الخير»، ومن بعده رؤوف توفيق، إلى انتهاج سياسة التوريط معه. فبعد أن ينتهي علاء من كتابة ثلاث حلقات من الرواية، يبدأ النشر ويصبح ملزمًا بتقديم الحلقات في موعدها. وعلى الرغم من ذلك عندما تقرأ الرواية كاملة لا تشعر أبدًا بأنها كُتبت على حلقات.

قضى علاء حياته يبحث عن يقين، عن مطلق، يعلم تمام العلم أنه محض محال. وكان يقلق ممن يتحدثون بيقين عن أي شيء. وهناك قضيتان شغلتا تفكيره طوال حياته، وأسلمتاه إلى الاكتئاب والإحباط: انتماؤه للطبقة الوسطى، وإدراكه لتخلفنا. وقد نذر كثيرًا من كتاباته للقضيتين. والمشكلة عنده ليس مجرد الانتماء لهذه الطبقة، وإنما إدراك هذا الانتماء. يقول في كتابه الفريد «وقفة قبل المنحدر»: «إدراك الانتماء للطبقة الوسطى ليس كمجرد الانتماء إليها. إنه يقضي على الاستمتاع بلذائذها، وكسلها، ولا جدواها». وفي بيت علاء، تتضافر دومًا موسيقى فاجنر وشوبان وموزار وغيرهم مع صوت الشيخ مصطفى إسماعيل في تناغم روحي نادر، تضفي على بيته

سكينة وطمأنينة. وكانت روحه السمحة هذه وتدينه الصوفي عائدَين، في جانب كبير منهما، إلى ذلك الأب الورع الذي كان يلازمه في قراءاته الليلية للقرآن. كان «حب الله» والده، مهندسًا زراعيًّا، وأبلغني علاء ذات مرة أنه كان المسؤول عن تزيين حديقة الحيوان بذلك الزلط الملون البديع الذي كان يجمل طرقاتها. الأب «حب الله» والأم «حياة النفوس» مصادفة دالة.

شخصيتان أثرتا في رأيي في علاء وصاحَبتاه في مراحل حياته المختلفة: الكاتب الكوبي إدموندو ديزنوس وروايته العظيمة «ذكريات التخلف»، التي كان يستدعيها كثيرًا في أحاديثنا وأشار إليها في كتابه «وقفة قبل المنحدر». والثاني الرسام الهولندي، من القرن السادس عشر، بيتر بروجل الأب، الذي وقع في عشق أعماله، وما زالت لوحته «ألعاب الأطفال»، تتصدر جدار غرفة مكتبه حتى بعد وفاته. قال لي ذات مرة إن كاتب المسرح الألماني، برتولد بريخت، عندما شرع في إخراج مسرحيته «دائرة الطباشير القوقازية»، نصح مهندس الديكور بالاطلاع على أعمال بروجل قبل تصميم ديكور المسرحية. وكانت إحدى أمانيه التي ظلت تلح عليه طوال حياته ترجمة سيناريو فيلم لبرجمان بعنوان «الناي السحري»، الذي كان يراه قطعة أدبية نادرة والنموذج لكتابة السيناريو.

عندما تُوفي أبي، وكان علاء بجانبي، لم أشعر باليتم، لكني عرفت النقصان برحيله.

خلال عملي بـ«دار الفتى»، اقتربت كثيرًا من عبد الفتاح الجمل. والجمل، لمن لا يعرفه، هو الراعي الرسمي والأب الروحي لمعظم كتَّاب جيل الستينيات الذين تصدروا وظلوا يتصدرون المشهد الأدبي حتى وقت قريب. كان يشرف على الملحق الأدبي لجريدة «المساء»، ومن خلال هذه النافذة أطل هذا الجيل على قرائه. إنتاج عبد الفتاح نفسه قليل، ربما لا يتجاوز الخمسة كتب، لكن جهده الأهم كان تلك الرعاية التي قدمها لهذا الجيل. كنا كثيرًا ما نخرج معًا بعد انتهاء العمل. فعبد الفتاح كان جاري أيضًا في السكن؛ أنا في روكسي وهو في ميدان الجامع، قبل أن ينتقل إلى مدينة نصر. وقبل أن يشتري عبد الفتاح سيارته الهوندا، كنا نقطع المسافة من شارع قصر العيني وحتى نقابة الصحفيين سيرًا على الأقدام. كان عبد الفتاح يكبرني كثيرًا، لكنه كان دائمًا يغذُّ السير بهمة ونشاط، حاملًا على كتفه دائمًا شنطته المليئة بما لذ وطاب من إنتاج الأدباء الشبان من قصص وأشعار. المسافة طويلة، وعبد الفتاح يسير بلا كلل، نتحدث في كل شيء ونناقش كل شيء. وبعد أن نتناول الغداء في النقابة، نتحرك نحو موقف سيارات مصر الجديدة القريب من التوفيقية.

تعلم عبد الفتاح قيادة السيارة في سن كبيرة، لذلك كنت أبدي الكثير من الملاحظات على طريقة قيادته. ولما بالغت في ملاحظاتي ذات مرة، سألني: «إنت بتعرف تسوق؟». قلت: «لا». فسكت مغتاظًا ولم يعلق. لكن بعدها بأيام كتب في عموده الأسبوعي عن الناس الأراذل الذين لا يفقهون شيئًا في قيادة السيارات ومع ذلك لا يكفون عن توجيه النقد لمن يقودون. وذات مرة يبدو أنني أسرفت في الحديث عن الموت والحوادث وهو يقود السيارة، ففوجئت به يوقف السيارة وقد امتقع وجهه غضبًا، وعندما سألته عن سر هذا الغضب المفاجئ، صرخ في وجهي: «إنت فاكرني إيه؟ حرام عليك. أنا مليان ميتافيزيقا». خجلت من نفسي، وكان هذا درسًا جديدًا. وبعدها بيومين، وجدت عبد الفتاح يدخل عليَّ وهو مبلل بعرقه. جلس يجفف عرقه ويلتقط أنفاسه، ثم قال: «اسمع، هاعرض عليك عرض ما يترفضش. وأنا جاي عجلة العربية نامت وأنا ممعييش كوريك. هنخلص الشغل ونروح نشتري كوريك ونغير العجلة ونرجع مصر الجديدة، وأغديك عند مطعم العائلات (بمصر الجديدة).

قلت إيه؟».

كان العرض مغريًا. وهكذا خرجنا بعد انتهاء العمل، واشترينا الكوريك. قال عبد الفتاح إنه ترك السيارة بشارع مجرى العيون، لكننا فتشنا الشارع حتى آخره ولم نجد للسيارة أي أثر. سألته: «مفيش علامة أو حاجة في المكان اللي سبتها فيه؟». قال: «كان فيه عربية قلل واقفة»! وبعد أن أنهكنا التعب تذكر فجأة أنه ربما ترك السيارة في شارع المبرة الموازي، وفعلًا وجدنا السيارة وعربية القلل. وهكذا انتقلنا إلى الجزء المغري من الرحلة، إلى مصر الجديدة ومطعم العائلات.

عبد الفتاح الجمل

أعطاني الجمل الدرس الأول في الترجمة. كنت قد اتفقت مع «دار الفتى» على ترجمة رواية للفتية تدور أحداثها في الغابة. وبعد أن انتهيت من الترجمة، ذهبت إلى مقهى أسترا بميدان التحرير لمعرفة ملاحظات عبد الفتاح بعد أن

قرأ الترجمة. أجلسني في مواجهته وأخرج النص من حقيبته التي لا تفارقه، وبدأ الدرس. أحسست فجأة بأنني تلميذ في حضرة شيخ الكتَّاب ممسكًا بعصاه. كانت ملاحظاته كثيرة على أولى تجاربي في الترجمة، وكان قاسيًا في توجيهها. كانت ملاحظاته في معظمها صحيحة، لكنه بطريقته داس على الأنا على ما يبدو إلى درجة أنني كرهته لحظتها. وتزامن مع ذلك أننا تركنا الدار، وهكذا انقطعت لقاءاتنا على ما يشبه الخصام، ولكن إلى حين. بعدها، استغرقت أنا في ترجمة كتابي الأول: «ضباط الجيش في السياسة والمجتمع العربي». وعلى الرغم مما حدث، ظلت ملاحظات عبد الفتاح شاخصة أمامي طوال عملي في الكتاب. وكان الصديق بهجت عثمان قد علمني درسًا آخر عندما قرأ النص نفسه الذي قرأه عبد الفتاح، عندما لاحظ التزامي الدقة في تفاصيل مربكة، وخاصة أن الكتاب موجه لقارئ في سن المراهقة. قال لي بظرفه الأصيل: «المترجم عميل القارئ، القارئ هو هدفك، زبونك». كان يريد أن يرشدني إلى تلافي ما يسميه البعض «كرفة الترجمة». فالقارئ يجب أن ينسى بعد حين أنه يقرأ ترجمة بل نصًّا مؤَلَّفًا.

عندما صدر كتاب «ضباط الجيش»، فوجئت بعبد الفتاح يتصل بي في المنزل. وظل يحدثني طويلًا ويشيد بالترجمة. جاءت المكالمة بردًا وسلامًا على نفسي ومحت ذلك الأثر السيئ الذي تركته الجلسة الأولى. لكني أعترف بعد كل هذه السنين أنه كان درسًا مفيدًا وفي محله (حاولت رد جميل عبد الفتاح في مترجمة مبتدئة بعد إلحاح أحد الأصدقاء وكان رد الفعل هو هو تقريبًا! حيث اختفت الشابة بعد أن رأت التصحيحات التي أجريتها على ترجمتها على الرغم من أنني لم أكن قاسيًا مثل عبد الفتاح، ربما كانت طبيعة بشرية). وعادت المياه إلى مجاريها، وعاد التواصل. نلتقي هذه المرة في مقهاه المختار، فينكس، بشارع عماد الدين، أو في الأمفيتريون بمصر الجديدة، أو أحد مقاهي ميدان الجامع مع الأديب الراحل مجيد طوبيا، وأحيانًا ببيته الجديد بمدينة نصر. ذات مرة طلب مني أن أساعده في تعلم استخدام كاميرا «زينيت»، أهداه إياها أحد أصدقائه. أعطاني عبد الفتاح الانطباع بأنه يمسك الكاميرا للمرة الأولى. لكني اكتشفت بعد ذلك، عندما ذهبنا لتأبينه في رأس البر وقريته «محب»، أنه كان مصورًا رائعًا في بداية حياته ورأينا بعضًا من صوره تلك (علمت فيما بعد أنه أقام معرضًا للتصوير الفوتوغرافي في

أسيوط عام ١٩٥٣).

عندما عزمت إحدى المجلات الثقافية على عمل ملف خاص عنه، اتصل بي وطلب مني أن ألتقط له عددًا من الصور لتُنشر مع الموضوع. واتفقنا على أن نلتقي في نادي هليوبوليس، حيث كنت عضوًا به. جاءت معي ابنتي الصغيرة

الفنان بهجت عثمان (بهجاتوس)

هناء، وكان عبد الفتاح يبدي إعجابه برسوماتها كلما زارنا. جاء عبد الفتاح وهو يضع كاسكيت فوق رأسه، وهو ما أثار ضحكات هناء البريئة وجرى عبد الفتاح وراءها. كان فيه شيء ما يجذب الأطفال، على الرغم من أنه لم يتزوج ولم ينجب أطفالًا. انتهيت من التصوير وسلمته بعد ذلك الصور في منزله، وربما كانت تلك المرة الأخيرة التي رأيت فيها عبد الفتاح. لا أعلم سبب وفاته تحديدًا، لكن ما أعرفه هو أنه كان مريضًا بالسكر، وكان يعالجه بالنظام الغذائي المنضبط. عندما زارني صبيحة يوم العيد مع أحد أصدقائه، قدمت لهما كعك العيد. فقام عبد الفتاح باقتسام واحدة مع صديقه. وكان يقول لي دائمًا: «أنا لا أحرم نفسي من شيء، عندي كل شيء في الثلاجة، حتى الشوكولاتة، لكني آخد زيء».

كان تأبين عبد الفتاح (تُوفي في ١٨ فبراير ١٩٩٤) رحلة مبهجة، على الرغم من الحزن على رحيله، قطعها تلاميذه وأحباؤه من القاهرة إلى رأس البر. صبيحة ذلك اليوم، هاتفني الفنان إيهاب شاكر وقال لي إن معه سيارة وإن هناك مكانًا لي. كان معنا بالسيارة زوجته، السيدة سميرة شفيق، وعطيات الأبنودي. وعندما وصلنا رأس البر، وجدنا حشدًا من أصدقائنا، أتذكر منهم محمود الورداني، يوسف أبو رية، جمال الغيطاني، إبراهيم أصلان، محمد

البساطي، محمد كامل القليوبي، وكثيرين غيرهم لا أتذكرهم الآن، إلى جانب عدد من أقاربه وأصدقاء طفولته. وكانت أسرته قد رتبت لمبيتنا بالفندق الذي اعتاد عبد الفتاح وأصدقاؤه قضاء سهراتهم فيه، واسمه «الهوم». وبعد انتهاء كلمات التأبين قدم أحد أصدقائه، وهو عازف عود، الأغنية التي ألفتها ولحنتها الشلة عن هذا الفندق، ويقول مطلعها: «الهوم الهوم الهوم، لوكاندة أكل ونوم». قضينا الليل في ذلك الفندق الذي كان من مراتع شبابه وصبيحة اليوم التالي، قمنا بزيارة «محب»، قريته التي خلدها بإطلاق اسمها على روايته الأخيرة.

مع يوسف أبو رية وإبراهيم أصلان في تأبين عبد الفتاح الجمل

محمد كامل القليوبي ومحمد البساطي في تأبين عبد الفتاح الجمل

في ٢٧ أغسطس ١٩٨٣، جاءت وفاة أبي، بعد صراع مع السرطان، لتنهي معاناته الإنسانية التي عاشها بعد خروجه من السجن محبطًا مهزومًا. لكن الحياة وضعته مرة أخرى، وقبل قليل من مرضه في محنة، جعلته يشعر كل صباح بأنه ذاهب إلى الجحيم وليس العمل. فبعد أن عمل لفترة بدار الأوبرا، كما سبق وأشرت، تقرر نقله للعمل في جراج هيئة الإذاعة المصرية. ثم انتقل بعد ذلك للعمل بشركة للمياه الجوفية بمنطقة الأميرية. بحكم مسؤوليته عن الحملة، كان مسؤولًا عن تموين السيارات بالبنزين ويحتفظ بكوبوناته. وثبت ذات يوم وجود تلاعب في الكوبونات وأحيل الأمر للنيابة العامة. قضى أيامًا في الجحيم. وها هو الرجل الشريف الذي ضحى بعمره دفاعًا عن قضية نبيلة يتورط في قضية مخلة بالشرف. ولولا تعاطف وكيل النيابة معه وثبوت التزوير وهروب الفاعلين الأصليين إلى ليبيا لثبتت عليه التهمة وانتهت حياته نهاية مخزية.

كانت الوفاة صدمة جديدة لي، حيث اختلط هذا الموت ودلالاته بأزمتي الوجودية التي كانت في طور التساؤلات الأولى. طوال فترة مرضه، كنت أنا المسؤول عن متابعة حالة أبي بمساعدة زوجتي الطبيبة، وظللت وحدي أخفي حقيقة مرضه عن أمي وإخوتي مدة طويلة. عندما كان التشخيص في مرحلة الشك، تكرم الدكتور شكري عازر، وهو من زملائه القدامى في العمل السياسي ومدير مستشفى الصدر في ذلك الحين، بحجزه في المستشفى وإجراء التحاليل المطلوبة هناك بدلًا من إرساله مباشرة إلى معهد الأورام، وهو ما سيؤثر ولا بد على حالته النفسية. وعندما تأكدت إصابته بالسرطان، نقلناه إلى المعهد لتلقي العلاج. وفي معهد الأورام، كنت أزور ثلاثة مرضى. ففي نفس الفترة، كان يرقد في غرفة مجاورة الشاعر الكبير أمل دنقل وابن صديقنا الشاعر محمد سيف: كريم، ذو الخمس سنوات وقتها. وهنا، أود أن أتوجه بالامتنان لرجلين لم تكن صلتي بهما قوية، قدما لي عونًا كبيرًا في رحلة علاج أبي: الدكتور مصطفى سويف الذي تفضل بالتوصية على أبي عند الدكتور حسين عواض، الذي كان مسؤولًا وقتها عن العلاج الإشعاعي بالمعهد. كان أستاذًا مهيبًا، يتمتع بحب واحترام طاقمه. تبنى أبي كما لو كان أخاه (علمت من حكاياته مع أبي أنه كان ذات يوم عضوًا بأحد التنظيمات

الشيوعية، وتركه سريعًا بعد أن تبين عدم ملاءمة هذا النوع من النشاط لطبيعته).

في يوم وفاة أبي، ذهبت إلى المنيل لإحضار الدكتورة التي كانت تتابعه في المستشفى في زيارة منزلية، وفعلت هذا إكرامًا للدكتور حسين، لأنها لم تكن تقوم بزيارات منزلية. وعندما نزلت معها لإعادتها إلى المنيل بتاكسي لأنها لم تكن تملك سيارة، قلت لها ونحن في الطريق إنني لا يهمني أن يعيش أبي أو يموت، المهم ألا أراه يتعذب. تلكأت بعض الشيء في طريق العودة، وعندما وصلت المنزل كان كل شيء قد انتهى. رحل في هدوء، ولم أستطع دخول حجرته وهو ميت. حتى عندما طلبت أمي مني قلب شريط القرآن في الغرفة التي يرقد فيها رفضت من دون إبداء أسباب. كما أنني ظللت متماسكًا وعم شحاتة هارون (المحامي اليهودي المصري، وأحد كوادر الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) يبكي على صدري ونحن في المقابر. وفي مسجد عمر مكرم، وقفت أتلقى العزاء متماسكًا. وبعد انتهاء العزاء، وفي محاولة للتخفيف عني، ألح أصدقائي علاء الديب وإسماعيل العادلي وسيد البحراوي أن نجلس في كازينو على النيل. لكن عندما خلوت إلى نفسي بعد ذلك، بدأت المواجهة مع الغول.

تداخلت صدمة وفاة أبي مع أزمتي الشخصية وأخذت الشكوك في صحة الطريق الذي اخترته، والذي اختاره أبي قبلي، تتزايد. وتداخل معها ما يشبه اليقين بأنني مصاب بالسرطان مثل أبي. بدأت أفكر في الأزمة بشكل تقليدي في البداية. قلت لنفسي: إن المشكلة في العمل الجماهيري، ثم قلت لنفسي: «لا، بل في العمل التنظيمي، بل هو العمل الدعائي». تفكير كلاسيكي وفق القواعد. إلا أن هذا التفكير لم يقُدني إلى شيء وتوصلت في النهاية إلى أن المشكلة أكبر من كل هذا وأنها فوق قدرتي. سيل من التساؤلات يحط على رأسي ولا إجابة. وانتهى بي الأمر في عيادات الأطباء النفسيين. الأمر فاق قدرتي على التحمل، خاصة بعد أن بدأت أشكو من أعراض جسمانية، كالدوار وتسارع دقات القلب، واضطرابات القولون والعرق الغزير، وغيرها. وذهبت إلى أطباء في كل التخصصات وكلهم أكدوا أنني سليم جسمانيًّا. عندما ذهبت إلى اختبار الأذن الداخلية، وضعوني على قرص مستدير. وعندما أدار الرجل القرص، شعرت بدوار شديد وألم، لكن

الأجهزة لم تسجل شيئًا مما أشكو منه ورأتني سليمًا. الشك يلتهم كل شيء، حتى البديهيات المستقرة. قادني تفكيري في هذه الأزمة إلى أن الأيديولوجيا دين؛ في كل منهما أوامر ونواهٍ لا نقاش فيها. بدأت تنتابني مشاعر من ارتد وكفر، وهو عذاب لو تعلمون عظيم. إلى جانب مشاعر الخيانة؛ ألست تخون نفسك وزملاءك وأباك وكل ما ناضل وضحى من أجله؟ ودخلت في طور جديد عندما بدأت فكرة الموت تتسلط عليَّ. كلما فتحت عينَي أرى الموت قادمًا. كنت أراه مئات المرات كل يوم. كنت لا أستقر في مكان. أترك أصحابي فجأة لأمشي، كما لو أن الموت لن يأتي إلا وأنا جالس. حتى إن علاء الديب أطلق عليَّ وقتها «الطير» لأنني لا أحط في مكان طويلًا. أتحاشى الغرف المغلقة والأسانسير والأماكن المرتفعة. أقضي الساعات مكومًا على الكنبة في صالة منزلي، أحاول النوم لإبعاد الموت. لم يكن الموت يأتي قَطُّ وأنا نائم، ولم تكن أشباح الموت تطاردني في نومي.

في بداية رحلة بحثي عن علاج، توجهت مع زوجتي إلى أستاذها في كلية الطب، د. جمال محروس، أستاذ الباطنة بعيادته بباب اللوق، وهو ذو سمعة طيبة ومحل للثقة. بعد أن انتهى الرجل من فحصي والاستماع إلى شكواي، قال بثقته وهدوئه الأبوي المعتاد إنني أعاني من مشكلتين: قولون عصبي وقلق نفسي، وإن ما سيقتلني هو الثاني. كانت هناك قوة لا أسيطر عليها هي التي تحركني، وهي التي حالت دون أن أعي كلمات هذا الرجل وأصدقها. وهذا ما جعلني أستبدل أكثر من طبيب في وقت قصير. كنت أبحث حينها عن واحد من تلاميذ الدكتور زيوار، الأستاذ الأهم لمدرسة التحليل النفسي في مصر. كنت أريد من يسمعني، كانت داخلي كهوف مظلمة ومتاهات. كما أنني لا أحب الأدوية والأطباء وأتحاشاهما قدر الإمكان. لكنهم كلهم أعطوني أدوية، وازدادت حالتي سوءًا، حتى إنني وصلت إلى مرحلة كنت أضيء فيها المصابيح نهارًا وأتحاشى الخروج قدر استطاعتي، لأن الموت ينتظرني في مكان ما. ذات مرة عجزت عن الذهاب لشراء تورتة عيد ميلاد ابنتي؛ عدت بعد أن نزلت إلى الشارع ولم أستطع المضي قدمًا. وهي أشياء كانت تشعرني بالعجز وتزيد حالتي سوءًا. إلى أن بلغت مرحلة كنت أمتنع فيها عن حلاقة ذقني خشية أن أنتحر بالموسى! لم أكن أريد الانتحار، بل كنت خائفًا من أن تسيطر عليَّ تلك القوة المجنونة التي تتحكم فيَّ وتدفعني إلى

الانتحار. كنت أسير مسافات طويلة على غير هدى، أسير خشية الوقوف فيخطفني ملاك الموت.

كانت أمنيتي وأنا في هذه الحالة العثور على عمل يستوعبني لمدة سبع ساعات، عمل يحتويني ويسيطر على تفكيري، عمل يشغلني ويخرجني من ذلك النفق المظلم المتربع داخلي. «كل شيء يحدث في داخلي، أما وجهي فكما هو»، كما يقول علاء الديب في «وقفة قبل المنحدر». كل من حولي لا يشعرون بالألم الكبير الذي سكن روحي. كنت أغيب عنهم، وأشعر بالغربة بينهم. كنت أراهم من عالَم آخر، باقٍ، أما أنا فمن عالَم راحل، أو على حافة الرحيل. كل جلساتي مع أصدقائي كنت أراها وداعات. بالنسبة لي، فقدت اللقاءات حميميتها المعتادة. انسحبت من الحياة بالفعل. لم أعد لطيفًا ومسليًا. لم أقل شيئًا وهم لم يقولوا شيئًا. أنا عاجز عن التعبير عما بداخلي، حتى بالإشارة.

كان لي في ذلك الحين أكثر من صديق طبيب نفسي، من زملاء زوجتي، لكني كنت أريد شخصًا لا يعرفني ولا تربطني به صلة. ونصحني بعض أصدقائي بزيارة طبيبة شابة. كانت الدكتورة هناء سليمان في بداياتها الأولى لكنها كانت ماهرة بشهادة من يعرفونها. وصفت لي دواء وحيدًا بسيطًا، لكنها تحدثت معي كثيرًا. قالت: «أنت خارج السياق». وعندما سألتها عن معنى هذا، قالت: «أنت لا تريد شيئًا ولا تسعى إلى شيء ولا تنافس على شيء». وبدأت تنبهني إلى ما اعتبرته إنجازاتي. وبعد عدد من الزيارات والانتظام على الدواء الذي وصفته لي، بدأت أشعر بتحسن طفيف؛ بمعنى أن القوة التي كانت تسيطر على رأسي خففت من قبضتها بعض الشيء. أنا عادة لا أحلم، وإذا حلمت نادرًا ما أتذكر حلمي. لكني في هذه الفترة حلمت حلمًا واحدًا واضحًا وتذكرته جيدًا. حلم بالغ الكلاسيكية، واضح الرمز، ومبتذل. في الحلم كنت أصوب ببندقية على شاخص للتدريب على ضرب النار عليه صورتي. كانت المسألة واضحة: أنا كاره لنفسي، وغير راضٍ عنها. كانت نقطة انتقال إلى مرحلة جديدة من المرض. قلت لنفسي: إنها رسالة، وتسلطت عليَّ قوة تسوقني في طريق إعادة النظر في مجمل حياتي؛ في إيماني؛ وأفكاري؛ وبديهياتي. إعادة ترتيب هذه الحياة وما استقررت عليه لسنوات. صرت أبحث عن نقطة نور وسط النفق المظلم الذي نما داخلي. إشارة تؤكد لي المطلوب

مني. الشيء الوحيد الذي كنت متيقنًا منه هو خطأ الطريق الذي سلكته حتى الآن.

في آخر اجتماعاتي التنظيمية في الثمانينيات، بشرني المسؤول، وكان الاجتماع ببيته، بمستقبل حزبي عظيم. وأبلغنا بفخر أن الشاعر أحمد فؤاد نجم يريد الانضمام لتنظيمنا لكننا نرفض بسبب تعاطيه الحشيش. وعندما طلبت دخول الحمام، فوجئت به عَبِقًا برائحة الحشيش! وفي نهاية الاجتماع خرجنا على موعد آخر وعندما ذهبت لم يأتِ المسؤول. وانقطعت الاتصالات تمامًا. كنت على أي حال قد اتخذت قراري بالخروج والكف عن مواصلة ما اعتبرته عبثًا. قلت لنفسي: «كلنا مجرمون وكلنا ضحايا»، مثلما قال ضابط أمن الدولة في رواية «الكرنك» لنجيب محفوظ. كنت أريد أن أريح نفسي وأبتعد عن أي جدال لا يجدي. بعد ذلك بقليل، انفجرت كل التنظيمات في توقيت واحد تقريبًا، وأصبح هناك صراع داخلي حاد، شمل منشورات ومنشورات مضادة واتهامات متنوعة. حمدت الله أنني عجلت بالخروج قبل أن يصيبني الرذاذ، وعمومًا لم يكن موقعي التنظيمي كبيرًا ولم أكن طرفًا في أي شيء.

* * *

عندما بدأت حالتي تتحسن ذلك التحسن الطفيف وأتخفف قليلًا من تلك القوة الخفية التي تسيطر على رأسي، قررت أن آخذ الأمر بيدَي. أنا أكره الاعتماد على شيء أو شخص، وبالذات الأدوية والأطباء. قلت لنفسي: الأطباء يراهنون على الزمن، فلماذا لا أراهن أنا وأعتمد على نفسي وأقاوم؟ المرض النفسي لا يُشفى تمامًا، هو يتراجع ببطء لكنه لا يغادرك تمامًا، يبقى بدرجات وأشكال، وصراعك معه أبدي. طوال الوقت كنت أحس، وعلى الرغم من شدة ما أعانيه، بأن خَبَثًا يحترق وجوهرًا يتبلور، نقيًّا أحيانًا وغائمًا في أحيان أخرى. أشعر وكأني أخرج من جلدي بالتدريج وببطء. وكان صيد السمك من الأشياء التي ساعدتني في هذه المواجهة. وكان هذا سببًا في إقامة علاقة موازية، بعيدًا عن الشلة، مع جميل شفيق. كان جميل شغوفًا بالصيد، وشجعني على العودة إلى الصيد، الذي يبدو أنه إحدى غرائزي.

في الصيد، أنت تضع كل تركيزك في السمكة القادمة، وتحلم بها، وتعيش معها في مخيلتك، وأنت تنتظر اهتزاز صنارتك، سيناريو يبدأ من تناول السمكة

الطّعم وحتى إخراجها من الماء. والصياد مثل المقامر، يراهن دائمًا على الدور القادم. وقد صرفني هذا التركيز ولو مؤقتًا عن الحلقة الجهنمية التي تتطاحن داخل نفسي، وأعطى عقلي هدنة. في الصيد، تتعرف على أماكن جديدة وأنماط بشرية من كل الفئات، وتسمع قصصًا عن الصيد في زمن سخي ولى، ومغامرات وصراعات مع سمك كبير الحجم. الصياد هو أكبر الحالمين على وجه هذه الأرض. ومخزون الحلم هذا هو الذي يجعله يصبر بالساعات، وربما بالأيام، انتظارًا لسمكة ما. والسمك عند الصياد اسمه «الرزق». فعندما كنا نمر على الكورنيش ونرى صيادًا عائدًا من صيده، نسأله بصوت عالٍ: «معاك رزق؟». فإن كان مجبورًا اقترب من الشاطئ لنشتري منه رزقه (انظر ملحق: صيد الأسماك).

* * *

في أبريل ١٩٨١، توفي شاعر القصة القصيرة يحيى الطاهر عبد الله. وجاء موته مفاجئًا، في الثالثة والأربعين من عمره، في حادث سيارة عبثي على طريق الواحات. وكان يحيى يصدر بمعاونة بعض الأصدقاء إحدى مجلات الماستر التي ظهرت في الثمانينيات باسم «خطوة». وكان هناك، إلى جانب «خطوة»، أكثر من مجلة ماستر أخرى، منها «إضاءة»، «مصرية»، «النديم»، «الجراد»، وغيرها. وقد اتفق مجلس تحرير المجلة، بعد وفاة يحيى، على توسيع هيئة التحرير، حيث تألفت من سيد البحراوي وأمينة رشيد وعز الدين نجيب ونصر أبو زيد وإسماعيل العادلي وأنا. كنا حينها مجموعة من الشباب نبحث، شأن غيرنا، عن سبيل مستقل. كنا نلتقي دوريًّا عند واحد منا. نتحدث في أمور المجلة على عجل لنتفرغ بعد ذلك للطعام والشراب والنقاش الثقافي والفكري العام. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد لعدم انتظام صدور المجلة. فقد كان حال كل المجلات الأخرى كحالنا ولم ينتظم صدور أي منها. فلم يكن لمجلتنا موارد مالية غير مساهماتنا. والمنتج النهائي لهذه النشرات بالغ التواضع ومشتت الصدور، وتأثيره أشد تواضعًا. ولربما كان المنجز الحقيقي الذي تحقق هو هذه الصحبة الإنسانية التي جمعت بين هؤلاء الشباب. وقد فشلت محاولات لتوحيد هذه النشرات ومحاولة الوصول إلى مطبوعة واحدة للمثقفين تتكاتف فيها جهود الجميع، لتثبت أن تجربة «جاليري ٦٨» ربما كانت الاستثناء الجاد الوحيد لشق طريق ثقافي مستقل. فعلًا، كانت

«جاليري ٦٨» تجربة فريدة من نوعها في تاريخ مساعي المثقف المصري للاستقلال. لكن يبدو أن الروح الانفصالية أصيلة في الجماعة الثقافية المصرية. وكانت «الكتابة الأخرى» تجربة أخرى، غير جماعية، تمكنت من الاستمرار بفضل دأب محررها الصديق هشام قشطة.

كانت لقاءاتنا أسرية غالبًا وكانت النقاشات ثرية. كان إسماعيل العادلي يكتب القصة والرواية والمسرحية؛ وعز الدين نجيب يرسم ويمارس النقد ويكتب القصة القصيرة؛ وسيد البحراوي عنده مشروع كبير عنوانه «المحتوى القومي للشكل»، حسبما أذكر؛ وأمينة رشيد أستاذة الأدب الفرنسي؛ وكان نصر في بداياته الأولى، يضع خطوط مشروعه الذي سيقيم الدنيا ولن يقعدها. كان نصر جادًّا ومنجزًا، تلمح فيه منذ ذلك الزمن المبكر بذرة العالِم. وكان نصر محكومًا بعقدة موت أبيه، الذي رحل عن الدنيا في سن الأربعين. كان يتسلط عليه هاجس أنه سيموت في نفس السن وأن أمامه الكثير الذي عليه أن ينجزه قبل أن يترك الدنيا. وبرحيل أبيه في هذه السن، انتقلت مسؤولية الأسرة إلى نصر، الذي اكتفى حينها بدبلوم الصنايع واتجه إلى العمل كعامل لاسلكي. وبعد أن تخفف بعض الشيء من مسؤولياته، انتسب لكلية الآداب وحصل على الليسانس والماجستير والدكتوراه. ومسيرة نصر ومعاركه بعد ذلك معروفة. وعندما قررت المحكمة التفريق بينه وبين زوجته، الدكتورة ابتهال يونس، لم تشغلني المعركة وما أحاط بها بقدر قلقي وقتها على حياته الشخصية، وكنت أود أن يغادر مصر بأسرع ما يمكن. وكان آخر ما فعله، كتابة توكيل لي لصرف مستحقاته لدى إحدى دور النشر، وعندما سافر ماطلت تلك الناشرة ولم أصرف مستحقاته.

فاجأنا نصر ذات يوم بشراء سيارة ماركة «فيورا» على ما أتذكر. وعندما ركبت معه، في طريق عودتنا من الإسكندرية، لم تعجبني طريقة قيادته للسيارة. كان يزاحم السيارات ويسابقها، وعندما يتجاوزها يلتزم بيمين الطريق ويسير متمهلًا وكأنه يلهث؛ كما لو كان يجر السيارة. وكان يعبر عن ضيقه من السيارات عمومًا؛ ما جعلني أسأله: ولماذا اشتريتها؟ فأجاب بأنها كانت أمنية لأمه رحمها الله؛ أن تراه يقود سيارة. وبالفعل، لم يحتفظ بالسيارة طويلًا، لكنه كان قد حقق أمنية أمه حتى ولو بعد موتها.

نصر مع ابنتي هناء أمام مسجد العوام بمطروح

في الفترة الأولى لاستقراره في هولندا، وفي إحدى الرسائل الإلكترونية التي تبادلناها، سألته سؤالًا اعتبره مبتذلًا ومعتادًا: «عامل إيه في الغربة يا نصر؟». في رده، استنكر نصر سؤالي، وتساءل: «عن أي غربة تحدثني؟ أنا هنا أستاذ بجامعة «ليدن»، وما أدراك ما «ليدن»! أنا هنا في جامعة عريقة وألقى كل تكريم. ثم عن أي وطن تتحدث؟». وقال لي إنه أوصى الدكتورة ابتهال أثناء رحلتهما إلى إسبانيا قبل الذهاب إلى هولندا بأن تدفنه في أي مكان يموت فيه. لكن الأقدار رتبت أن يكون مرضه الأخير ووفاته بمصر، وأن يُدفن فيها، في مصر التي خرج منها مطاردًا. ما جرى له في بلده لم يفلَّ عزيمته ولم يعقه عن مواصلة مشروعه حتى مماته. فقد ترك نصر ذخيرة

مجيدة للأجيال وكتيبة من الباحثين الذين تتلمذوا على أفكاره، تبعث الحياة على الدوام في تراثه، وأجيالًا من حملة أفكاره.

لم تستمر «خطوة» طويلًا، ربما تسعة أعداد فقط، أهمها العدد الخاص عن يحيى الطاهر، والوحيد الذي كان مطبوعًا في مطبعة عادية وليس بالماستر. كما أصدرت مجموعة قصصية لإسماعيل العادلي وديوان «حزن العنب» للشاعر رجب الصاوي.

* * *

قبل قيام ثورة ٢٥ يناير المغدورة، لم يكن أحد يتوقع حدثًا بهذه الضخامة. عن نفسي كنت أتطلع لأي تغيير يعطينا فرصة لالتقاط الأنفاس. ولهذا رحبت بشائعات مجيء عمر سليمان أو عمرو موسى، أو حتى جمال مبارك. كانت أقصى أمانيِّ مهلة شهور، يستغرقها أي رئيس جديد في إظهار جانبه الطيب والحديث عن المصالحة و«عفة اليد واللسان» ووعود طيبة. مهلة للتنفس لا أكثر. وكنت دائمًا أقول: إننا بحاجة لمن يخرج خارج السقف وينظر في حالنا، لأننا بسبب الاعتياد لم نعد قادرين على التمييز. تمامًا مثلما كانت لبيوتنا روائح قبل دخول الصرف الصحي، اعتدناها ولم نعد نلتفت إليها حتى يأتي غريب لينبهنا. اعتدنا الفساد وصرنا نراه أمرًا طبيعيًّا حتى تحول إلى نظام اجتماعي، مثل الرأسمالية والاشتراكية، ينتظر من ينظِّر له. حتى إن باحثًا كنديًّا من أصل مصري أعد دراسة توصل فيها إلى أن الرشوة في مصر آلية لإعادة توزيع الدخل! وكان البرادعي هو ذلك الغريب الذي خرج ليلفت الأنظار إلى شيء غاب عنا وانمحى من ذاكرتنا الجمعية: «التغيير». كانت الكلمة قد اختفت من ذاكرتنا منذ زمن. كيف يفكر شعب سقف أمانيه لقمة العيش في التغيير أو المستقبل! كان لظهور البرادعي وحديثه عن التغيير تأثير السحر.

قبل الثورة، كنت قد وصلت إلى حالة من العبثية واللامبالاة، بل وصرت من المروجين للاستسلام للوضع. فالاستسلام مريح، المهم أن تقتنع بالفكرة. ما الذي يمكن أن تجنيه من معاندة أوضاع يصعب عليك تغييرها. لكني وسط كل هذا، وعلى الرغم من كل هذا، كنت أرى النظام وهو يترنح. فالنظام السياسي عندي مثل الكائن الحي، ويصيبه في الكبَر ما يصيب الكائن الحي. فتراه وقد ضعف بصره وتعثر في مشيته وارتبكت تصرفاته وارتعشت يداه. وكنت في أحاديثي مع ابنتي وأصدقائي الشباب أراهن في التغيير على جيل التسعينيات،

جيل ابني الأصغر. كنت أقول لابنتي هناء إنني أراهن على جيل سامي، لأن جيلها متصل بأجيالنا لم ينفصل عنا ولا يزال مشتبكًا مع قضايانا وتاريخنا، بل وتحزباتنا. أما جيل التسعينيات فهو مختلف نوعيًّا. أهم ما يميزه أنه جيل منبت الصلة نسبيًّا بالأجيال السابقة، وليس له تراث يعوقه عن الحركة (انظر ملحق: أوان السمع). كما كنت أرى أن هذا الجيل ينعم بإمكانات ومعارف لم تتوفر لنا وأن جهله المزعوم هو جهل بعوالمنا نحن لا أكثر. جيل ربما لا يعرف طه حسين وتوفيق الحكيم، كما تندرت عليه بعض الصحف، لكنه يعرف جيدًا زوكربيرج وهوكينج.

إن هذا الجيل جاء في وقت أصيبت فيه المؤسستان المنوط بهما التعليم والتربية بالوهن: الأسرة والمدرسة. وهو جيل بلا أساتذة أو معلمين، ولا أيديولوجيا بشكل عام. وهذا الجيل هو الذي عطَّر جو مصر على مدى الـ١٨ يومًا الأولى من الثورة، قبل أن يتآمر الإخوان والمجلس العسكري على الثورة. كنت أحس خلال هذه الـ١٨ يومًا من الثورة أن للبلد رائحة جديدة، تحيطها غلالة رحبة من الأمل.

لم أشارك في الثورة ولم أنزل ميدان التحرير، بسبب عاهتي المستديمة الناتجة عن التهاب الأعصاب وضمور العضلات. فأنا لكي أسير أستخدم جبيرة بلاستيكية لكل قدم وبدونهما أتعطل ولا أقدر على المشي. وتملكني هاجس احتمال كسر إحداهما أو كلتيهما، فأصبح عاجزًا عن السير وعبئًا على مَن حولي. لكنني التصقت على مدار الساعة بالتلفزيون والإنترنت (قبل وبعد توقف خدمته). وليتني ذهبت إلى الميدان وليكن ما يكون، فهذا كان أفضل من المتابعة القلقة بعيدًا عن الحدث. كنت أموت وأصحو مئات المرات. وما ضاعف من هول مشاعري وتضخم مخاوفي هو أن ابني الصغير كان هناك. في إحدى هذه الليالي السوداء، وبعد دخول الجِمال وظهور القناصة فوق أسطح المنازل القريبة، أخبرتني جارتي أن إحدى صفحات الفيسبوك ورد بها خبر القبض على ابني سامي. اتصلت به ووجدت هاتفه مغلقًا وظللت طوال الليل أتصل بأصدقائه من دون جدوى. في الصباح وبعد ليلة مضنية هاتفني ومن الواضح أنني من شدة الهلع نسيت أنه سبق وأخبرني بأنه متعب وسينام. لم يتحدث ابني فيما فعل هو وزملاؤه قَطُّ. صارت هناك منطقة حرجة داخله. لا أدري كيف تحمل هذا الجيل كل هذا الهول وكيف استوعبه. هذا الجيل أتاح

فرصة العمر لأجيال وبلد، ودفع الثمن غاليًا من دمه وشهدائه ومعذَّبيه في ظلمات الزنازين. لم أرَ جيلًا تعرض للتشويه مثل هذا الجيل. لكني على يقين بأن هذا لن يذهب هدرًا، وأن ثورة ٢٥ يناير، وعلى الرغم من كل المؤامرات التي حيكت وتحاك ضدها حتى اليوم، كانت سببًا في تفجر طاقات كبيرة وغيرت الكثير من المفاهيم والأداءات، وأن مبادئها لا بد وأن تنتصر يومًا ما.

كان تدخل الإخوان وركوبهم الموجة أحد الأسباب الهامة في هزيمة الثورة. ورفضي المبدئي للإخوان يرجع إلى أربعة أسباب: الأول أنهم ماضويون ليس لديهم مشروع أو تصور لمستقبل هذا البلد، والثاني أنهم جزء من النظام القديم، مثلهم مثل التجمع والوفد وكل الأشكال التي سمحت لها السلطة بلعب دور المعارضة. صحيح أنهم كانوا معارضين للنظام، لكنهم ليسوا نقيضه أو بديله (يقول لينين إن البرجوازية تفرز معارضة على شاكلتها). والثالث أنهم أداة يستميت الغرب من أجل فرضهم على ساحتنا السياسية كي يكونوا «حصان طروادة» لعرقلة أي مسيرة وفرض أجندات أجنبية علينا. أضف إلى هذا تاريخهم الدموي.

* * *

في ٩ سبتمبر ٢٠١٥، لحقت أمي بأبي بعد صراع قصير مع مرض الزهايمر. لكنها لم تمت بسبب الزهايمر، بل الالتهاب الرئوي، بعد أن نقلناها إلى قسم رعاية المسنين بمستشفى فلسطين. عاشت ٨٥ عامًا وتزوجت في السابعة عشرة وأنجبتني وهي في سن الثامنة عشرة. أخرجها أبوها من المدرسة من السنة الرابعة لتساعد أمها في أعمال المنزل. التحقت بسوق العمل منذ سن مبكرة، وتنقلت بين مصانع النسيج في شبرا الخيمة. والتحقت منذ وقت مبكر بنضال الطبقة العاملة، وكان هذا سبب لقائها بأبي.

لم تعرف أمي في حياتها معنى السكينة أو هدوء البال. وحكمتها دائمًا فكرة المؤامرة، التي تضخمت مع الزهايمر. وكانت دائمًا تحتاط للأسوأ. وكانت ترى دائمًا أن الحياة ظالمة. فبعد أن خرجت من سجن أمها وتعسفها واضطهادها، دخلت سجن الحياة الأوسع وهي لم تتجاوز سن المراهقة بعد. وكانت تعبر دومًا عن حنقها من أمها. كانت ترى جدتي سيدة أنانية، تهتم بزينتها ومظهرها أكثر من عنايتها ببيتها، وكان شعارها في الحياة «خراب يا دنيا عمار يا راسي» (عندما أبلغتها حفيدتها بموت ابنتها الوسطى، أمرتها بأن تؤجل إعلان الخبر

حتى ينتهيا من فطورهما وبعدها تصوِّت). وكانت أمي تكره اسمها، لأن عمها الذي تكرهه هو الذي أسماها على اسم جدتها التي تكرهها. ولهذا السبب إلى جانب طبيعة العمل السري ستُعرف أمي بأكثر من اسم في حياتها: «خيرة»، «خيرية»، وأخيرًا «فايزة» الذي أطلقته عليها أختي الصغيرة وأحبته وتمسكت به بقية حياتها.

أمي

كانت شجاعة وقوية وعنيدة في مواجهة الدنيا، وكذلك في مواجهة البوليس السياسي. فقد اعتاد مداهمة بيتنا في طفولتي اثنان من أكبر ضباط «مكافحة الشيوعية» حينها: عشوب والمنياوي، من الجيل السابق على حسن مصيلحي وفتحي قتة، لمن يتذكر الاسمين. وكان للاسمين صيت مروع في تلك الفترة. ذات ليلة وفي أثناء تفتيش منزلنا، كسر أحدهما زجاج لمبة الجاز. لم تفوت أمي الفرصة ودخلت معهما في عراك حاد، ألهاهما عن التفتيش، وصممت على أن يدفعا ثمن زجاج اللمبة الذي كسراه. وقد كان. كما نجحت أمي أكثر

من مرة في تهريب أبي عند الجيران، بفضل شبكة علاقات كانت مدربة على إقامتها وبسرعة في محيط السكن الذي كان يتغير من حين إلى آخر.

لم تهنأ بالحياة يومًا. فإلى جانب ذلك تحملت عبء ثلاثة أطفال من دون معين. وصممت على الرغم من كل شيء أن نكمل أنا وأخي تعليمنا على الرغم من قسوة الظروف. وكان الظلم هو الوجه الوحيد الذي رأته من هذه الحياة. عندما انتهت محنة أبي المرضية بالوفاة، ظنت أن مشاكلها في الحياة قد انتهت وأن الأوان قد آن لتهنأ بما تبقى من عمرها. لكن ذلك لم يدم، ودخلت في محن جديدة. فبعد هدنة قصيرة مع الحياة، ذهبت لإجراء عملية مياه بيضاء بالعين، فأصيبت بالحَوَل في إحدى عينيها بسبب خطأ طبي. وقضت فترة من عمرها تعاني من عمليات تصحيح الخطأ. تحملت ولم تشكُ. لم أرَ أمي في حياتي تشكو من شيء أو ترفض نصيبها. لكن هذا لم يلغِ قَطُّ شعورها بالظلم. تحملت الكثير بوصفه قدرها الذي لا فكاك منه. كانت فيها قوة عجيبة وتبصُّر في مواجهة ما نعتبره نحن أزمات. كانت عندما تراني لا مباليًا بمتابعة الأحداث العامة، تسألني باستنكار: «إنت فلِّست ولا إيه؟!». عندما تُوفي أبي، طالبتنا بتأجيل إعلان الخبر لأن ابنة الجيران كانت تستعد لزفافها ولم تُرد أن تعكر صفو الليلة. وهو جميل ظلت جارتنا تحمله لأمي وتذكرها به كلما التقيا.

لم تتوقف محنة أمي عند الحَوَل. ففي أحد الأيام، اتصلت تستنجد بنا بعد أن أصابها دوار مفاجئ وسقطت على الأرض، وعندما نقلناها إلى المستشفى تبين إصابتها بكسر في الحوض. ومرة أخرى تتكرر أخطاء الأطباء وتخضع لعملية أخرى لتصحيح الخطأ. بعدها لم تغادر البيت إلا نادرًا ولم يفارقها العكاز بعدها بقية حياتها (وخاصة أنها كانت تسكن في الدور الخامس بدون أسانسير).

على الرغم من هذا، لم تقبل أمي يومًا بأن يساعدها أحد أو يشعرها بالضعف. حتى في محنتها الأخيرة مع مرض الزهايمر رفضت أن تعيش مع أحد منا أو يعيش معها أحد منا. ظلت حتى الأيام الأخيرة، وعلى الرغم من اضطراب ذاكرتها ومعاناتها، تصر على خدمة نفسها. كانت تعاني من أصوات تناديها ليلًا وتهددها. وحتى عندما كنت أبيت عندها، كانت تقوم من حين لآخر للتأكد من إحكام إغلاق الأبواب. وازدادت شكوكها حتى فينا نحن أولادها

وتزايد شعورها بأننا نتآمر عليها.

تذكرني أمي دائمًا بهدى سلطان في دورَي أم حسن النعماني في مسلسل «أرابيسك»، وفاطمة تعلبة في مسلسل «الوتد»، تلك الأم القائد التي تدير وتدبر كل شيء، مراعية أبسط التفاصيل. وكانت ماهرة دائمًا في إعطاء كل واحد منا، أنا وإخوتي، الانطباع بأنه الأقرب إليها.

تعذبت كثيرًا، وجاء الموت ليضع حدًّا لعذاباتها. وبموتها شعرت باليتم الحقيقي. وتذكرت محيي اللباد وهو يبكي أمه بحرقة مثل طفل في جنازتها على الرغم من سنه الكبيرة. قال لي وقتها إن اليتم الحقيقي هو يتم الأم. والآن أنا أصدقه.

رحم الله أمي وكل الأمهات.

* * *

في أواخر الثمانينيات، عانيت ضائقة مالية كبيرة. ولأول مرة أفكر في العمل خارج مصر. وحصلت على عقد عمل بمجلة «زهرة الخليج». لكن عملي هناك لم يدم طويلًا. فبعد ثمانية شهور فوجئت بخطاب تفنيش، أي إنهاء علاقتي بالمجلة. حتى ذلك الحين، كانت صورتي عن نفسي أنني رجل طيب لا يؤذي أحدًا وبالتالي ليس له أعداء. لكني عرفت بعد ذلك أن ما حدث بتدبير من مصري يعمل بالأرشيف، وليس بيني وبينه أي صلة عمل! لم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة لي، فأنا سمعت الكثير من مثل هذه القصص بين المصريين في بلاد الخليج بالذات. بل إن الأمر لا يقتصر على الخليج، يمكنك أن تراه في علاقات العمل في مؤسساتنا وشركاتنا (بعد عودتي من الإمارات بفترة، هاتفني أحد أبناء جيلي ليقترح عليَّ الانضمام له وبعض الأصدقاء لإنشاء حزب لجيل السبعينيات. فاجأني الموضوع، لكنني أبلغته بردي بكل وضوح. قلت له: لو متوفر لكم تمويل فالأفضل أن تفكروا في تأسيس مركز أبحاث يحاول دراسة سلوك المصريين ويفسر لنا: لماذا يتصرف المصريون بهذه الكراهية فيما بينهم؟ ولماذا يكون اللَّوَع واللف والدوران أهم سمات الشخصية المصرية؟ ما الذي أصاب الشخصية المصرية بسبب عقود من الاستبداد؟ لماذا يختار كثير من المصريين دور المخبر والبلطجي (المواطنون الشرفاء)؟ ولماذا يفشلون في أي عمل جماعي مستقل؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى أبحاث ودراسات. وقلت له: إن أي أحزاب وأي حياة سياسية لن يقدر لها

النجاح من دون تكوين فكرة حقيقية عن الشخصية المصرية. فوجئ الصديق بردي واعتقد أنني أسخر منه، ولم يعاود الاتصال ثانية).

راقت لي الحياة في أبو ظبي وتمنيت لو عشت فيها طويلًا. زرت كل الإمارات تقريبًا. الحياة في الإمارات منظمة والقانون محترم، وكذلك حريتك الشخصية مكفولة ما دمت لم تخالف القواعد. نصحني زميل ممن تقرر إنهاء خدمتهم بالبقاء والبحث عن عمل، لكنني فضلت الوفاء بوعدي لابني وابنتي بالذهاب للمصيف. سارعت ببيع الأثاث الذي اشتريته منذ ثمانية شهور بنصف ثمنه الأصلي. وهنا يجب أن أذكر الرجل السوداني الطيب عم محمد عثمان والذي ساعدني في سرعة بيع الأثاث. كان عم محمد هو كبير السودانيين هناك، وقد خصص صندوقًا حيث يدفع كل سوداني خمسة دراهم أول كل شهر. وكان الصندوق مخصصًا لمساعدة القادمين من السودان حتى يجدوا عملًا وإرسال مساعدات لبعض المحتاجين في بلادهم. كما أنني لم أرَ سودانيًّا يفطر وحده في رمضان. ناس طيبون، يعرفون بالفطرة معنى التكافل والتضامن.

عدت إلى مصر، تاركًا مستحقاتي في أبو ظبي. ولما كانت ماكينات الصرافة حديثة عهد، فقد تكبدت مشقة كبيرة وعراكًا مع خدمة العملاء لأن الماكينة تحجز مبالغ كبيرة وتخصمها من حسابي. المهم أنني تمكنت أخيرًا من الحصول على مستحقاتي وسددت ديوني وعدت إلى عملي في مجلة «كل الناس». وآن الأوان لنجد حلًّا لمشكلة السكن، وكذلك فض الاشتباك بيني وبين زوجتي.

كبر الولد والبنت وأصبح كل منهما في حاجة إلى غرفة خاصة به، والشقة عبارة عن غرفتين وريسبشن. حاولنا إيجاد حلول عن طريق انتزاع جزء وتحويله إلى غرفة ثالثة، لكن فشلت الفكرة على الرغم من الاستعانة بأصحاب الخبرة. ولم يكن أمامنا سوى أن تبيت زوجتي في عيادتها بالدور الأرضي وأن أبحث أنا عن سكن مستقل. حاولت أن أجد مسكنًا قريبًا من البيت، لكن ما تبقى معي من نقود الإمارات لم يسعفني للحصول على سكن في مصر الجديدة. وبعد أكثر من عملية نصب (في إحدى المرات، كنت على وشك الموافقة على السكن في حجرة بواب بإحدى العمارات لولا تدخل صديقي داود عبد السيد الذي عاين المكان معي)، قررت التنازل عن سكنى

مصر الجديدة والبحث عن وجهة تناسب قدراتي المادية. ولم أجد أمامي إلا الانتقال إلى السادس من أكتوبر.

وللمرة الثالثة أُنتزع من المكان. المرة الأولى حينما انتُزعت من القرية بعد أن عشت فيها عامًا شكل نظرتي للحياة كما ينبغي أن تكون والتي ما زالت تحكمني حتى الآن. الثانية عندما تركت شبرا لأسكن مع زوجتي في مصر الجديدة. ثم جاء الانتزاع الثالث إلى السادس من أكتوبر ثم الشيخ زايد.

علاقتنا بالمكان تتبلور بالزمن وتشكلنا. وكلما كبرنا ازداد تمسكنا بالمكان الذي اعتدناه. ففي شبابنا لا تشغلنا هذه العلاقة، لكن للزمن أفاعيله.

عمومًا لم تدم إقامتي في أكتوبر طويلًا والحمد لله. فذات يوم ونحن نصطاد، أنا والمرحوم الفنان، ورفيق الصيد، جميل شفيق، اقترح عليَّ أن أنتقل إلى شقة يملكها في الشيخ زايد على أن يحضر أدواته ويعمل هناك. تحمست للفكرة وتهيأت للونس القادم. فجميل من ألطف الكائنات التي يجود بها الزمن. وانتقلت إلى الشيخ زايد، لكن جميل لم يحضر قَطُّ.

لم تختلف الحال كثيرًا عن أكتوبر، فمعظم الأحياء خالية باستثناء حيَّين أو ثلاثة. والخدمات منعدمة والمواصلات شحيحة. ومرة أخرى سكنت وحدي في عمارة تضم ٢٠ شقة في الحي ١١، وحين جاء الساكن الثاني سرق شقتي (عرفت هذا فيما بعد عندما ضُبط متلبسًا بسرقة الشقة المجاورة لشقتي). وكان عليَّ أن أمشي مشوارًا طويلًا حتى أصل إلى قسم الشرطة لتقديم بلاغ. في الطريق هاتفت أخي، وهو ضابط جيش سابق وله أصدقاء في أمن الدولة.

المهم أنني سكنت في أكتوبر بشقة واسعة بالدور الأرضي في عمارة تضم ٢٠ شقة، أنا ساكنها الوحيد. الحي كله عمارات كبيرة ولا بشر. ولا يوجد في الحي سوى كشك خشبي يقدم الشاي والفول وأرز ولوبيا بيضاء مطبوخة، للعمال والصنايعية الذين يبنون باقي الحي. كان هذا وضع كل أحياء أكتوبر باستثناء حي أو اثنين. كنت إذا أردت شراء شيء أو إجراء مكالمة تلفونية من كابينة «ميناتل» (كان الموبايل حديثًا وأسعار المكالمات مرتفعة للغاية)، توجهت من الحي الثالث إلى الحي السابع. وهو ما يعني السير حوالي ٢ كيلو ثم ركوب سيارة بوكس معدلة بها دكك يجلس عليها الركاب، وسيلة النقل الوحيدة المتاحة وقتها.

سألني ضابط المباحث عن المسروقات، فقلت: «جهاز تلفزيون صغير وجهاز تسجيل وكمبيوتر لابتوب». سألني باستهجان: «كمبيوتر! بتعمل إيه بالكمبيوتر»، قلت: «باشتغل عليه». في هذه اللحظة، رن تلفونه، ورد عليه وبعدها تغيرت معاملته ولهجته معي (من الواضح أن أخي أجرى اتصالاته)، وأرسل معي ضابطًا شابًّا لمعاينة الشقة. لم يدخل حضرة الضابط الشقة. وقف أمام الباب واضعًا يده في وسطه وألقى نظرة ثم انصرف من دون أن ينبس ببنت شفة. وانتهى الموضوع عند هذا الحد.

بعد حين، تعرفت على اثنين من سكان العمارات القريبة، وتعرفنا بعد ذلك على ناظر خط الأتوبيس الوحيد، وكنا نقضي وقتنا عنده في الموقف. لكني وجدت الهدوء الذي كنت أشتاق إليه ولم أجده في مصر الجديدة. هنا يمكنك أن تسمع صوت الصمت. وبعد مدة سمعت عن كمباوند يتبع المشروع القومي للشباب، عبارة عن مجموعة شاليهات. لم يكن كمباوند في الأصل، لكن الطبقة الوسطى حولته إلى كمباوند بقدرة قادر. مساحة الشاليه لا تستوعب أسرة متوسطة. فهو عبارة عن ٣٥ مترًا في الأسفل، عبارة عن مطبخ وريسبشن وباب يفتح على حديقة ٢٠ مترًا. والدور الأعلى ٣٥ مترًا أيضًا مقسمة على حجرتَي نوم صغيرتين وحمَّام ضيق.

كان الحي الجديد، والذي ما زلت أسكنه، يعتبر آخر أحياء الشيخ زايد ولا يصله الأتوبيس، فكانت مشقة في الذهاب إلى العمل في المهندسين والعودة، حيث كنت أعمل حينها بجريدة «الشروق». وعندما ظهر أول تاكسي، استبشرت خيرًا. لكن مشواري الأول بالتاكسي كان مغامرة حقيقية. كنت عائدًا من العمل متأخرًا، في ليلة شتوية غزيرة المطر، ومنطقة مدخل زايد مظلمة تمامًا (لم يكن هايبر قد ظهر بعد). لم أجد أمامي سوى سيارة التاكسي الوحيدة. اتفقت على الأجرة مع السائق وبدأ يتحرك. أعمدة النور على الجانبين مطفأة والمطر ينهمر بشدة والسائق يقود بسرعة. واكتشفت بعد قليل أن السيارة ليس بها أنوار ولا مسَّاحات. وفجأة ظهرت أمامنا سيارة بلا أضواء أيضًا، لكن من الواضح أن السائق لا يراها. نبهته بسرعة لكن الأوان كان قد فات، فاصطدم بمؤخرة السيارة من جهة اليمين، لتنقلب سيارتنا أكثر من مرة وتصعد الرصيف ومنه إلى قطعة أرض فضاء. الحمد لله لم يُصب أحد بسوء. الطريف أنني علمت بعد ذلك أن السائق هو سائق سيارة إسعاف

المستشفى العام وأن نظره ضعيف فعلًا.

أعيش في الشيخ زايد منذ أكثر من عشرين عامًا. وحتى الآن لم أستسغ العيش فيها قَطُّ. صحيح أنها مدينة منظمة ونظيفة وجميلة إلى حد كبير، لكني أشعر دائمًا بأنها ماكيت، تفتقر إلى الروح. المسافات داخلها طويلة وتحتاج إلى سيارة، وهو ما لا يتوفر لي. وهو ما ساعد على العزلة والوحدة التي أعانيها، خاصة بعد أن أصبحت بلا عمل منتظم. ويضاعف من ذلك تشكيلة من الأمراض البدنية والنفسية تؤثر على حركتي. ليس لي في زايد صديق، حتى الجيران يتغيرون كثيرًا؛ ما يجعل من إقامة علاقة طويلة معهم أمرًا صعبًا. لم يعد لي أصحاب بعد أن رحل أصحاب العمر ومعظمهم يكبرني بجيل. أصبحت أسير عدد محدود من العادات التي تحيل حياتي إلى سجن، فالعادة سجن بل لعنة تضيق الأفق من حولك، وتحول بينك وبين أي جديد. يوميًّا، أظل أفكر في صديق أتواصل معه تلفونيًّا فلا أجد. أقلب كل يوم في دفاتري القديمة من دون جدوى. العالم يضيق. أغوص داخلي، أجتر من بئر أسود عميق. يلازمني دائمًا شعور بالغثيان، وصرت أكره الطعام وأعتبره همًّا ثقيلًا، حتى لو كان الطعام شهيًّا، مع شعور دائم بالجوع. أقضي يومي متنقلًا بين التلفزيون والفيسبوك بحثًا عن ونس، بعد أن فقدت الرغبة في القراءة. لم أعد أستمتع بأي شيء. فقدت القدرة على الاستمتاع. حتى الحشيش لم يعد مصدرًا للسلوى كما كان، بل عادة تنضم إلى بقية العادات المملة، فتوقفت عن تدخينه. لم أعد أستمتع بالغناء والطرب ولا أكمل فيلمًا أو عملًا دراميًّا. أتفرج ولا أتفرج. أسمع ولا أسمع. حتى الليل الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر لم يعد مريحًا. أقف أمام المرآة ولا أنتبه لصورتي. كل هذا ووجهي كما هو، لا يعكس داخلي بحال من الأحوال، ولا يشعر من حولي بما أعاني. «عينيا بتضحك وقلبي بيبكي».

لكن وسط هذا كله، عليَّ أن أتوقف لأحدثكم عن ملاكي الحارس، زوجتي، علياء. امرأة بسيطة ومتواضعة. تقرأ في الثقافة بشكل عام وتتذوقها لكنها لا تتحدث فيها. امرأة معطاءة بشكل عام، يشمل عطاؤها كل محتاج بغض النظر عن المعرفة أو القرابة. وعلى الرغم من أعبائها وطبيعة عملها، لم تقصر يومًا في تلبية احتياجاتي. يبدأ يومها في السادسة صباحًا ولا تعود إلى المنزل قبل الخامسة، لتبدأ مهامها المنزلية. محبوبة من جمهور المتعاملين

معها، وكانت الموظفة المثالية أكثر من مرة. وهي ماهرة بصورة لافتة في كل أعمال المنزل. كما أنها تتمتع بمشاعر أمومة تفيض لتطال أي طفل بغض النظر عن درجة قرابته منها. وهي تعطي العِشرة حقها وتقدر قيمتها. الحب نسبي وقد لا يدوم بنفس حرارته، أما العِشرة فهي التي تنضج الحب وتنقله إلى منطقة اليقين النسبي. ابتسامتها حاضرة دومًا، ابتسامة ملؤها الرضا بالحال، أيًّا كانت هذه الحال. لم نختلف يومًا، وتمازحني أحيانًا وتسألني: «إحنا إمتى هنتخانق!».

* * *

طوال رحلتي في الحياة، لم يبارحني حلم «الدائرة المغلقة» التي عشتها في قريتي زمن الطفولة. ولاحت فرصة تحقيق هذا الحلم عندما زرت، مع مجموعة من الشباب الباحثين عن مجتمع بديل أقرب إلى تلك الدائرة، واحة سيوة. وكان من بين هؤلاء الشباب ابني سامي، الذي أنهى دراسته بكلية الحقوق (القسم الفرنسي)، وسافر بعدها إلى الهند، حيث شارك في مشروع زراعي كبير تابع للأمم المتحدة، تعلم من خلاله الكثير من أسرار الزراعة وعاد متحمسًا لتطبيق ما تعلمه. أَسرنا المكان وناسه. هم ليسوا فلاحين وليسوا بدوًا، وإن كان كثير من المصريين يعتبرونهم كذلك. هم أمازيغ، تمتد قبائلهم حتى بلاد المغرب، ويتحدثون الأمازيغية. وهم ذوو تاريخ عظيم، ومنهم «شيشنق»، فرعون مصر العظيم، الذي حكم مصر (٩٤٣-٩٢٢ قبل الميلاد). يبلغ عدد سكان الواحة حسب تعداد ٢٠١٠ حوالي ٣٥ ألف نسمة.

وأهل سيوة ودودون ويتحلون بالاستقامة، لا تشعر بالغربة بينهم، بل بالأمان. وإن كانت مظاهر الحداثة بدأت تتبدى آثارها. وهو ما يظهر واضحًا في بناء منازلهم بالطوب والإسمنت بدلًا من الكرشيف، وهو خليط من الرمل والملح. وهو ما ترتب عليه أيضًا دخول أجهزة التكييف. فبيوت الكرشيف تكون جدرانها سميكة، تقي من برد الشتاء وحر الصيف. وحين تكرر ترددي على المكان وتجوالي فيه، لاحظت أمرًا لافتًا. فقد هالني عدد البيوت المهدمة. وعندما سألت عن السبب، قيل لي إن هذه البيوت هجرها أهلها منذ زمن، وإن البيوت المبنية بالكرشيف تتماسك بالرطوبة الصادرة عن أنفاس قاطنيها والتي تنقطع بغيابهم عنها، فتيبس وتتداعى.

تواتر ترددنا لفترة على سيوة، وصار لنا أصدقاء من أهل الواحة، وقررنا في

النهاية أن يكون لنا موطئ قدم ثابت هناك. وتجمع عدد ممن استهواهم هؤلاء الناس وهذا المكان وقررنا شراء خمسين فدانًا. كان سعر الأرض حينها مغريًا. كان الفدان بخمسة آلاف جنيه. وكان قد توفر لي مبلغ من المال من ميراث أمي رحمها الله. وهو ما سمح لي بشراء خمسة أفدنة مناصفة بين ابني وابنتي، وتوفير مبلغ لحصتنا في حفر البئر وتجهيز الأرض وزراعة عدد لا بأس به من أشجار الزيتون والنخيل. وفي خلال حوالي خمس سنوات، أصبح هناك واقع جديد. أرض مزروعة بمحاصيل أخرى غير النخيل والزيتون، وحمير وماعز ودواجن، إلى جانب عدد من البيوت الصغيرة، بعضها مبني بالكرشيف، ونظام للطاقة الشمسية. وهو ما بدأ يجذب أعدادًا من الضيوف ممن يستهويهم هذا النوع من الحياة البعيدة عن ضوضاء وتعقيدات المدن.

لكن بعد عدد من الإقامات الطويلة نسبيًّا، تتجاوز المرة العشرة أيام، اكتشفت أن الحلم الذي سعيت وراءه طويلًا جاء متأخرًا وفي غير موعده. واكتشفت أن الحلم إن جاء في غير موعده فقد معناه. فالأحلام أيضًا لها تاريخ صلاحية. اكتشفت أن حلم الحياة البسيطة والعزلة لم يعد حلمي بعد ما عانيت من تلك العزلة والوحدة، خاصة في السنوات الأخيرة. اعتدت أشياء قليلة لكني لم أعد قادرًا على الاستغناء عنها؛ مكاني على الرغم من عزلته ووحدته؛ المفردات القليلة التي تحاصرني وأمقتها ولا أستغني عنها، والتي تحتجزني وتحول بيني وبين مغادرة المكان. اكتشفت أيضًا أن إمكانياتي الجسمانية لم تعد تلائم المكان. فأنا لا يمكنني السير بشكل طبيعي بعد تدهور حالة قدمَي بسبب ضمور العضلات الناتج عن التهاب أعصاب الأطراف. أضف إلى هذا إصابة ثلاث من فقرات الظهر وما تسببه لي من ألم مع الحركة.

وهكذا كُتب عليَّ أن أهجر الحلم القديم وأن أتقبل الواقع المفروض عليَّ. ما ذهب لا يعود، ولا يُستعاد. أو على رأي «الست»: «عايزنا نرجع زي زمان، قول للزمان ارجع يا زمان».

ملاحق

نشرت هذه النصوص في جريدة «القاهرة» بتشجيع ودعم صديقي سيد محمود عندما كان رئيسًا لتحريرها، وهو الذي حفزني على كتابة هذه الأوراق التي لا أعرف ماذا أسميها. وقد أدخلت عليها تعديلات طفيفة.

## عم فرج العنتري(١)

حوالي عام ١٩٦١، خرج أبي من السجن بعد أن قضى فيه سبع سنوات بسبب نشاطه الشيوعي. وبعد معاناة مع الأجهزة، عينته الحكومة موظفًا بدار الأوبرا بمرتب شهري ١٤ جنيهًا. كنت آنذاك تلميذًا بالمرحلة الإعدادية، وما إن استقر أبي في عمله حتى استخرج لي كارنيهًا بدار الكتب، يسمح لي بدخول الدار بباب الخلق والاطلاع واستعارة ما أريد من الكتب. وقد استعار لي أول كتاب، وكان بعنوان «نابليون» لإميل لودفيج ومن ترجمة عادل زعيتر. قال لي أبي وهو يقدم لي الكتاب: «جيلكم محظوظ، وأنا في سنك كنت ما أزال أقرأ أرسين لوبين»!

المهم أنني انتظمت تلك الفترة في التردد على دار الكتب، خاصة في الإجازة الصيفية الممتدة. كنت أركب ترام رقم ٧ المتجه من شبرا إلى السيدة زينب وأنزل في باب الخلق. قرأت في تلك السن المبكرة في الفلسفة السياسية وبالذات اليونانية، كما بدأت التعرف أيضًا على المسرح اليوناني. كما تنوعت قراءاتي في مجالات كثيرة.

وبحكم قرب المسافة بين دار الكتب ودار الأوبرا، كنت بعد انتهائي من القراءة أتوجه إلى عمل أبي أقضي بعض الوقت حتى ينتهي دوامه لنعود معًا إلى المنزل. تعرفت على كل زملاء أبي، من الإداريين والفنيين. كان للأوبرا بابان: الباب الرئيسي المطل على ميدان الأوبرا وفي مواجهته تمثال إبراهيم باشا (أبو إصبع)، وهو لا يُفتح إلا أيام العروض، أما الباب الآخر فكان خلف الدار في مواجهة البواكي التي كانت تضم قهوة متاتيا وبار السبعة باب وفرع شركة صوت القاهرة وغيرها، ورجل يصنع الطعمية في إحدى زوايا البواكي، لا يخف الزحام حوله طوال أوقات العمل. هذا هو باب دخول الإداريين والفنيين وكذلك أعضاء الفرق التي تأتي سنويًّا من أوروبا لتقديم عروضها الموسيقية والأوبرالية والباليه. وعند هذا الباب يجلس عم نور ببشرته السمراء وجلابيته البيضاء الزاهية وشال عِمته الأبيض الضخم، بياضه ناصع لا مثيل له. عم نور نوبي وهو المسؤول عن دخول من له حق الدخول، وهو يعرف الجميع والجميع يعرفونه ويحبونه. رجل يشع من سمار بشرته طاقة نور وسكينة قلما تصادفها في إنسان.

كنت أترك أبي لعمله وأتنقل بين المكاتب وأقسام الأوبرا المختلفة. وكان

يصادفني من حين لآخر الأستاذ شكري راغب مدير الأوبرا في ذلك الحين، رجل أعزب يعمل بلا كلل. نحلة دؤوب، لا تكل ولا تمل، يصادفك في أي مكان وفي أي لحظة. وكان بالأوبرا مخزن كبير يضم ملابس وإكسسوارات الأوبرات التي عرضت منذ افتتاحها وحتى ذلك الحين (التهم حريق ٢٨ أكتوبر ١٩٧١ محتوياته)، قضيت في رحابه أوقاتًا طويلة أتأمل محتوياته.

كان عم فرج العنتري، بعد أن ترك الموسيقات العسكرية، عازفًا بأوركسترا القاهرة السيمفوني الذي تأسس في عام ١٩٥٩، على آله الإكسليفون، ومشرفًا في ذات الوقت على مكتبة الأوبرا الموسيقية. وجمعت بينه وبين أبي زمالة قوية، وود واحترام متبادلان. وفي هذا المكان المتواضع صغير المساحة، استمعت مع عم فرج إلى فيفالدي وتشايكوفسكي وخاتشاتوريان وغيرهم من كبار الموسيقيين العالميين. كان فارق السن بيني وبين عم فرج كبيرًا، كان أصغر من أبي قليلًا، لكن ذلك لم يمنعه من معاملتي كنِد. كنت أجلس أمامه منصتًا وهو يشرح لي ما غمض وأناقشه، والرجل لا يمل ويجيب عن تساؤلاتي بصبر واستمتاع حقيقي. كانت أهم صفاته تلك القدرة على التبسيط، ولم يقتصر ما قدمه لي على الموسيقى الكلاسيكية، بل كانت جلساتنا تجول في مناطق جديدة كل مرة. ذات مرة قرر أن يحدثني عن بهية وياسين، وراح يؤدي الحكاية بصوته ويلون صوته حسب المقام، ويتجلى صوته ويعلو بصفة خاصة عندما يصل إلى المقطع الذي يقول: «احكم يا قاضي النيابة يا أبوي قدامك مظاليم». وشرح لي أن مقطع «يا بهية وخبريني ع اللي قتل ياسين»، ليس تعاطفًا مع بهية وإنما «معايرة» لها لأنها اشتركت مع اللواء صالح حرب، الذي كان مسؤولًا عن تأمين طريق الفاشر، في قتل ياسين. وهو ما كان مفاجأة بالنسبة لي، وجعلني أنزع عن بهية ذلك البهاء الرومانسي الذي كانت عليه في مخيلتي.

المؤرخ الموسيقي الكبير فرج العنتري

في أحد هذه اللقاءات بالمكتبة، عرفني عم فرج بمطربة السوبرانو عفاف راضي (قبل أن تتحول إلى الغناء على يد سيد حجاب وحسن نشأت في البداية. قدمت لها الإذاعة من عملهما أغنيتين: «يا هوى يا سيسي»، و«سينا زهرة في البرية»). كانت مشاركة وقتها في أوبرا «لابوهيم»، وحين جاء موعد العرض، قام عم فرج وقال: «نسيبك بقى عشان نروح نرقَّص الشعب».

أهداني عم فرج كتابه الأول «هذه هي الموسيقى» (صدر ١٩٥٩) وعليه إهداء خاص. مما أذكر الآن أن الكتاب كان يحوي نقدًا لاذعًا لما آلت إليه الموسيقى الشرقية، بل وحمل على الموسيقار محمد عبد الوهاب (في فصل أسماه «المذهب الوهابي»)، ونبه إلى عدم اتساق ألحانه مع كلمات أغانيه، وضرب مثلًا لذلك بأغنية «أخي جاوز الظالمون المدى». الأغنية، كما يرى عم فرج، تبدأ بمقدمة حماسية بآلات نحاسية «تقطر دمًا»، إلى أن يصل إلى «فتألم وتكلم وتعلم كيف تغضب»، هنا يتراخى اللحن ويصبح أقرب إلى

«جوافة حلوان يا عسل!» وكان يوضح رأيه على هذا النحو: علي محمود طه، مؤلف الأغنية، كان مفروضًا أن يقول «يا أخي» لكنه حذف الياء «للحث والتحضيض»، فنحن أمام كارثة شعب سُلبت أرضه ويطلق صرخة استغاثة. لكن اللحن جاء ليعكس، حسب رأي عم فرج، صورة لأناس أقاموا وليمة فتة وسط الصحراء، خاصة عندما يصل إلى جملة «أخي أيها العربي الأبي نرى اليوم موعدنا لا الغد». أما «التخنيث في اللحن» فهو يدلل عليه بأغنية «من سحر عيونك ياه» التي لحنها عبد الوهاب للمطربة صباح.

كان عم فرج هو معلمي وموجهي في تلك الفترة. وعلى الرغم من أن أبي ترك العمل بدار الأوبرا، استمرت علاقتي به بعد ذلك، لكن الفواصل الزمنية اتسعت بحكم المشاغل. في إحدى هذه المرات ذهبت إليه بالمسرح العائم، وكان مقرًّا لوحدة الاتحاد الاشتراكي بمؤسسة المسرح. كانت هناك أزمة تلك الأيام بسبب عزم مؤسسة المسرح تقديم مسرحية للدكتور رشاد رشدي باسم «بلدي يا بلدي»، ورأى عم فرج وآخرون أن العمل يحمل روحًا انهزامية ويبث اليأس.

كانت المرة الأخيرة التي قابلت فيها عم فرج في الثمانينيات، عندما ذهبت إليه بمعهد الموسيقى العربية حيث يلقي محاضراته في الصولفيج. وقتها أهداني كتابه الجديد (لا أذكر اسمه الآن) وعليه إهداء مطول معظمه موجه إلى أبي من خلالي. بعد ذلك باعدت الدنيا بيننا ولم أرَ عم فرج حتى وفاته في ٢٠١٢، مخلفًا وراءه تراثًا في تأصيل الموسيقى العربية والدفاع عنها، وكان واحدًا من أبرز مؤرخي الموسيقى العربية في النصف الثاني من القرن العشرين. لكن أثره عليَّ في فترة التكوين باقٍ، وعندما تسألني عن السمة الأبرز في هذا الرجل فهي صفة «المعلم»، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. معلم يعني علاقة بين طرفين، يقوم المعلم فيها بإيصال شحنة تعين العقل على الفهم وتفتح أمامه آفاقًا جديدة. لم يكن ما يحاول إيصاله إليَّ يتصل بالموسيقى فقط، بل كان يبث في حديثه ودون تعمد قيمًا وأخلاقًا. وعلى الرغم من مرور أكثر من خمسين عامًا، فإن أثر تلك الحوارات لا يزال باقيًا في نفسي حتى الآن، وكأنها وقعت بالأمس القريب.

ألف رحمة ونور على روحك يا عم فرج.

تعود علاقتي بصيد السمك إلى طفولتي المبكرة. في تلك الفترة، في سن الرابعة أو الخامسة، كان جدي لأمي يعمل خفيرًا على عدد من قطع الأسطول البريطاني المكهنة، اشتراها مقاول مصري لتفكيكها وبيعها. وكانت هذه القطع راسية في شبرا البلد قريبًا من الهويس الذي يتحكم في مياه الترعة الحلوة (التي شُقت عند حفر قناة السويس لتوصيل ماء النيل العذب إلى الإسماعيلية)، وشركة الكراكات المصرية. وبدلًا من السكن في إحدى سفن الأسطول، بنى جدي حجرتين في أعلى جزء من المكان حتى لا تطاله المياه وقت الفيضان.

قضيت فترة طويلة من طفولتي مع جدي وجدتي في هذا المكان. كنت أتبع جدي كظله في كل تنقلاته تقريبًا، حتى عندما قرر، أثناء العدوان الثلاثي في ١٩٥٦، أن يجلس وحده مكشوفًا عند مقدمة وابور البحر، بدلًا من أن يحتمي بحجرة الطوب بعد سماعه صفارة الإنذار التي تنذر بالخطر. كان هناك بالقرب منا أشهر مدفع في تلك الحرب وفي طفولتي: «مدفع إمبابة». جلس جدي ينتظر متوقعًا حدوث شيء، وأنا ملتصق به. وعندما انطلق صوت المدفع، اهتز الوابور بشدة، وانتفض جدي زاعقًا: «يا واد يا بتاع إمبابة»، صرخة ربما أراد بها إخفاء فزعه وطمأنتي.

في مغارب الصيف، كنت أعد الطُّعم، وهو عبارة عن قطعة عجين صنعتها من الدقيق والماء، وأحمل صنارتي وأنزل المنحدر الموجود أمام الغرفة التي بناها جدي. كانت صنارتي عبارة عن عود من البوص، قطعته من غابة البوص المنتشرة على ضفاف النهر، مربوط فيه خيط غزل من ذلك الذي يستخدمه جدي لرتق الشباك (لم تكن الخيوط النايلون أو الماكينات قد ظهرت بعد)، في آخره السن ومزود بغماز من سيقان الثوم الخفيفة. ألقي بصنارتي وأراقب الغماز وعندما يغوص في الماء أسحبها وتخرج السمكة وهي تتراقص، فأخلصها من السن وأعيد طُعم السن وألقيه في الماء، وهكذا. كنت أظل هناك حتى المغرب وبدايات الظلام عندما تناديني جدتي لتناول العشاء فأصعد حاملًا كنزي المتواضع من الأسماك الصغيرة، معظمها من البسارية وأبو ريالة. مشهد خروج السمكة من الماء له بهجته مهما كان حجمها. في تلك الفترة، حاول جدي أكثر من مرة أن يعلمني العوم بالقرعة المجففة (ثمرة قرع

عسلي كانوا يجففونها وتُربط بجسم الشخص فتجعله يطفو، بديل الطوافات البلاستيكية حاليًّا)، لكنه لم ينجح وحتى الآن لم أتعلم العوم.

كان هذا منتصف الخمسينيات. لكن الحياة والمدرسة أخذتاني بعيدًا بعد ذلك عن حياة الصيد. كما أن جدي كان قد غادر المكان وسكن بالمساكن الشعبية بعد أن استغنى عنه المقاول. لكني عدت مرة أخرى أوائل الثمانينيات، في ملعب جديد ومختلف هذه المرة. كانت العودة في البحر الأحمر، وفي الغردقة تحديدًا، بعد أن استضافني أخي، الذي كان يتولى عملًا مهمًّا هناك كضابط بالقوات المسلحة. كانت الغردقة في ذلك الحين مساحة شاسعة خالية من البشر والعمران، باستثناء عدد قليل من البيوت وفندق شيراتون، وقرية مجاويش في بداياتها الأولى. كنت أسير على الشاطئ من متحف الأحياء المائية في أول البلد وحتى الميناء في آخرها ولا أرى إنسيًّا أو عائقًا (وبمناسبة متحف الأحياء أنوه بأن مُنشئه هو عالِم البحار الشهير حامد جوهر، الذي كان يمتعنا ببرنامجه «عالَم البحار» بالتلفزيون المصري، وقد تولى إدارة المتحف فترة وكان شخصية محبوبة للغاية بين صيادي الغردقة). وهناك، تعرفت على أداة جديدة للصيد، أي الحدَّاف. لم يكن الصيادون هناك يستخدمون الماكينات التي كانت قد بدأت تظهر حينها، بل يخرجون أضخم الأسماك بهذا الحداف، مجرد قطعة من الخشب أو علبة مشروبات غازية ملفوف عليها الخيط النايلون في آخره يربط السن ويزود بثقل من الرصاص لكي يصل السن قريبًا من القاع.

مع أخي يونس في الغردقة في الثمانينيات

اعتدت في تلك الفترة زيارة الغردقة عدة مرات في السنة، ومارست الصيد في مختلف المواسم بصحبة صيادي الغردقة المحنكين؛ معوض وزكي وعبد العزيز، وكان عبد العزيز هو الأصغر والأذكى (كان يقول لي، وعلى عكس كل الصيادين الذين عرفتهم، إن الصيد لا يعرف الحظ. أنت تعرف مكان السمكة، وترمي لها الطُّعم فتبتلعه، ولا عليك إلا سحبها وإخراجها). كنا نبيت في البحر أحيانًا بالقرب من جزيرة الجفتون أو أبو منقار أو رمادة أو شدوان، نرسو قريبًا منها لنصطاد ما لذ وطاب من أسماك الكوشر أو الشعور أو البونجز أو المرجان أو البياض السليخ أو الناجل، وغيرها من الأنواع المعروفة في البحر الأحمر. وهناك عرفت ما يعنيه تعبير «رياضة» الصيد، حيث السمكة عنيدة وعنيفة ولا تنفع معها المسايسة كما في النيل، ويحتاج الأمر إلى القوة. الصيد بصحبة هؤلاء الصيادين المميزين متعة، والأكثر متعة حكاياتهم التي لا تنتهي مع البحر والسمك. حكوا لي عن رحلتهم الشتوية إلى وادي الجمال (قبالة قنا)، التي كانت تستغرق أربعة أيام بالقوارب ومثلها في العودة، ويمكثون هناك أربعة أيام أخرى حيث يلقون بخيوطهم مسافة ٨٠ مترًا تحت الماء ليصطادوا إحدى سمكتين، إما قرش أو فارس. سمعت منهم أيضًا

حكاية الخواجة الذي قدم إلى هذه المنطقة النائية والمهجورة لينشئ مركزًا لإجراء دراسات عن سمك القرش. لكن الرجل أخطأ في تقدير قوة المد في المنطقة، والذي أطاح بالشراك التي نصبها لاصطياد القروش. وتحول المركز إلى محطة لتزويد الصيادين بالثلج. حكوا لي أيضًا عن إبحارهم للصيد في المياه السعودية حتى يُقبض عليهم ويدخلون السجن فيقضون بعض الوقت فيه، ويعودون ومع كل منهم مبلغ من المال بفضل الإعانات الشهرية التي تدفعها السلطات السعودية للمسجونين.

أثاروا دهشتي بحكاياتهم ومعرفتهم. كانوا يعرفون مكان السمكة ونوعها، ويحددون وجهتهم في البحر بعلامات على البر وبنجوم في السماء. يقولون: «سنرسي على عرق مرجان»، فتلقي بخيوطك فلا تخرج إلا أسماك المرجان. كنت في البداية أعتقد أنهم يقولون أي كلام، لكن تقديرهم لم يخطئ أمامي مرة واحدة. في ذلك الحين، كنت ترى الفصول الأربعة في يوم واحد، وربما في ساعة واحدة. ومع ذلك، كانوا يبيتون في البحر في عز طوبة بقمصان نصف كُم. ومن عجائب هؤلاء الصيادين أننا كنا نصطاد ذات يوم بالقرب من جزيرة شدوان، وفجأة هبت ريح قوية ونحن في وسط البحر. وظل اللنش يتأرجح بنا بلا هوادة. عندها، صاح معوض: «يلّا نتدارى»، «نتدارى؟!»، أين في هذا البحر المكشوف والممتد بلا نهاية؟ رفع زكي الهلب، وتحرك اللنش حتى صرنا أمام الجبل البعيد على الشط. هناك، في حمى الجبل البعيد، كانت المياه، ويا للغرابة، هادئة وبلا أمواج؛ ما جعل ثقتي في معرفة وحكمة هؤلاء الصيادين البسطاء تتأكد، وتتأكد قناعتي بقدرتهم. وصرت تلميذًا مطيعًا لهم.

كما اصطدت في فترة تالية في وادي الريان بصحبة الفنان الجميل عبد العزيز مخيون. كان عبد العزيز هاويًا في الأصل لصيد الطيور، ثم ضم إلى هوايته صيد الأسماك. وكان يمتلك بيتًا جميلًا بالقرب من البحيرة، في قرية تونس. قضينا الليلة هناك، وصحونا مبكرًا لنلحق بالوقت المناسب للصيد. وعلى الرغم من أن المسافة بين البيت والبحيرة حوالي ٧ كيلومترات، فإن الرحلة إليها استغرقت حوالي الساعة بسيارته ماركة «نيفا»، عبر طرق غير ممهدة ومدقات. وهي طرق خطرة يمكن أن نتوه فيها، لكنه كان خبيرًا بها. قمنا في البداية بصيد عدد من الأسماك الصغيرة لاستخدامها كطُعم حي. كان الصيد وفيرًا، اصطاد عبد العزيز سمكتين قشر بياض زنة ١٠ كيلو و٦ كيلو

بينما اصطدت أنا واحدة من نفس النوع ٦ كيلوجرامات. لكن بعد ساعتين لم نصطد شيئًا بعد أن تغير اتجاه الريح، وهي خبرة جديدة علمني إياها. كما علمني أيضًا عدم الاقتراب من فضلات الجِمال لأن غالبًا ما يكون تحتها عقرب، آوى طلبًا للرطوبة.

وكان لي زيارات شتوية لصيد السبيط من محطة كهرباء أبو سلطان. وهو صيد مختلف عن الصيد العادي من حيث العدة والتكنيك. لكن علاقتي بالصيد أصبحت أكثر انتظامًا بعودة أحد أصدقاء العمر إلى الصيد، هو الفنان التشكيلي جميل شفيق، عليه رحمة الله. في تلك الفترة، بدأت الخمر تتملك من أفراد شلتنا، وكذلك البوكر. كنت على شفا إدمان. رفضت الخمر بعقلي لكني عانيت لكي أتخلص منها، ما زاد من مرضي النفسي. وكان الصيد خير معين للتخفف من آلام المرض والتخلص نهائيًّا من الخمر والبوكر معًا. المدهش أنني عندما دققت فيما فعل الصيد توصلت إلى نتيجة غريبة. فقد تبين لي أن الصيد مثل الخمر، إدمان. والصياد مثل لاعب البوكر، يراهن دائمًا على الدور القادم منتظرًا «فول آس».

جميل عاشق للبحر وللصيد، والسمكة موتيفة مهمة في أعماله (أقام أول معارضه وهو في الخمسين من عمره)، بل إنه أقام أكثر من معرض لأعماله من طرح البحر. وهو أيضًا أكثر من قابلت حبًّا للحياة وإقبالًا عليها، وأكثرهم قدرة على استخدام يديه في كل شيء، من الرسم وحتى الطبخ، مرورًا بأعمال النجارة والسباكة والنقاشة وغيرها. وهو شخص يفتح النفس. فهو طاهٍ ماهر، أكلت من يده أشهى الطعام. عندما كنت آكل مع جميل كنت ألاحظ أنني آكل دائمًا ضعف المعتاد. ومعه، وبفضل سيارته «اللادا»، «جُبنا الآفاق»، كما يقولون. ذهبنا للصيد في رشيد وبوغاز الجميل وفي أكثر من مكان في الإسكندرية. لكن كان النيل هو مسرح عملياتنا الأثير، مهما شرَّقنا أو غربنا نعود إليه دائمًا.

جميل شفيق في افتتاح معرضه الأول: من اليمين بدر الرفاعي، المخرج توفيق صالح، نجيب محفوظ، جميل شفيق، منى زلط، نبيل فؤاد، والجلوس إبراهيم منصور وبهجت عثمان

وللصيد في النيل طقوسه وطرقه وإيقاعه المختلف عن البحر. في النيل الصيد غالبًا من البر وبالماكينة. وأنواع الطعوم مختلفة، وكثيرًا ما تندر ويرتفع ثمنها حسب الموسم (سعر الكيلو من دود الأرض يفوق الآن سعر كيلو اللحم). وغير العَلق (دود الأرض) هناك الريم (الطحالب) والعجين والغلة والعنب والسمك الحي. ويحتاج الصيد في النيل إلى الصبر، فالسمك قليل (يقال إن النيل كان يحوي ٤٧ نوعًا من السمك لم يبقَ منها أكثر من خمسة لسبعة أنواع تقريبًا) وسمكة النيل مراوِغة. وحين تعلق السمكة ويظهر من انحناء البوصة أنها كبيرة، يلتهب المشهد: يسحب الصيادون المجاورون خيوطهم بسرعة حتى لا تتشابك الخيوط، ويقف الباقون يعطونك إرشادات متناقضة ويقدمون لك الفتاوى العاجلة، وهو ما قد يكون سببًا لضياع السمكة. لكن، وحتى تضمن خروج سمكتك بأمان، عليك بهذه القاعدة الذهبية التي توصلت إليها مع أسماك النيل: «لا تقسُ عليها، ولا ترخِ لها، وأبقِ خيطك

مشدودًا دومًا».

بعد ترحال شمال وجنوب النيل بحثًا عن «الأدوار»، استقر بنا المقام، أنا وجميل، في نادٍ للقوات المسلحة مواجه لقصر محمد علي بشبرا (كلية الزراعة جامعة عين شمس حاليًّا). كنا نذهب عصرًا ونظل هناك حتى قبل الفجر بقليل، قد نُرزق وقد نعود بلا شيء، لكننا في كل الأحوال كنا نقضي وقتًا ممتعًا ونتعرف إلى رفاق جدد ينتمون إلى طائفتنا. أحيانًا كنا ننطلق بعد تلك السهرة إلى ميدان رمسيس، قاصدين الحاج أمين، واحد من أقدم محلات الكشري في المحروسة. وعلى الرغم من أن الوقت يكون مبكرًا فإنك تجد المحل مزدحمًا بالزبائن والأبخرة تتصاعد من أواني الكشري.

في ديسمبر ٢٠١٦، تركني جميل ورحل عن عالمنا. قبلها بشهر، قضينا أسبوعًا معًا في فيلته بقرية الصحفيين بالساحل الشمالي. استعدنا شريط حياتنا معًا. كأنه كان وداعًا. وذكرني بتلك الليلة التي كادت تطير فيها رقبته في لحظة غضب. كان يعمل في بغداد خبيرًا فنيًّا بـ«المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم». وذات ليلة، عاد إلى المنزل مع صديقه السوداني بعد أن أفرطا في الشراب. في مدخل البناية التي يقطنونها صورة ضخمة للزعيم صدام حسين. استفزته الصورة وقام بتمزيقها. أفاق في اللحظة التالية مباشرة وأدرك فداحة ما فعل. قضى ليلة مرعبة، وفي الصباح عجت المنطقة بالشرطة ورجال التحريات ومسؤولين من حزب البعث. ولحسن حظه، انتهى الأمر بمعاقبة مسؤول الحزب في المنطقة بالتقصير، ونجا لكن مشاعر الرعب ظلت تلازمه لمدة.

على الرغم من توقفي عن الصيد منذ مدة، بسبب مشاغل الحياة وسكني في مكان ناءٍ وعدم وجود سيارة وبعض مشاكل في اليد والقدمين، ما زلت حتى الآن أحتفظ بمعدات الصيد ويراودني الأمل، المرة بعد المرة، بالعودة إلى ممارسة تلك الهواية الأثيرة التي لم ينقطع تفكيري فيها قَطُّ. وحتى الآن، كثيرًا ما تأتيني أحلام يقظة أصارع فيها أسماكًا كبيرة، أو يعاودني الندم على أسماك حقيقية ضاعت مني. وهذا يؤكد لك اعتقادي بأن الصيد غريزة، غريزة تتكون داخلك مع أول سمكة تخرجها من الماء.

على ضوء ملاحظتي وتأملي على مر السنين، توصلت إلى بعض الحكم البسيطة، من بينها حكمة مؤداها أن السمع له أوانه. ما أقصده هو أننا في حياتنا تُعرض علينا أفكار وآراء وتجارب، كثير منها لا يلقى التفاتنا في حينه. ثم تأتي علينا لحظة في حياتنا تجعلنا نتوقف عند فكرة قديمة ونندهش ونسأل أنفسنا: «كيف لم نلتفت لهذا في حينه؟». وسأوضح لك الأمر بأهم مثال في حياتي.

عندما كنت طالبًا بالسنة الثانية قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٦٨)، كانت مادة «التربية القومية» تتضمن كتابين، واحدًا بعنوان «ثورة ١٩١٩» تأليف الدكتور محمد أنيس، والآخر بعنوان «ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢» تأليف الدكتور السيد رجب حراز، الذي كان يدرِّسنا الكتابين. والحقيقة أن شيئًا ما في كتاب الدكتور أنيس جعلني أفضله على الكتاب الآخر وأراه أكثر إمتاعًا وفائدة، ربما كانت ميولي اليسارية هي السبب.

والدكتور محمد أنيس (٢١ أغسطس ١٩٢١-٢٨ سبتمبر ١٩٨٦)، لمن لا يعرفه، عالم ومؤرخ من أهم مؤرخي وأساتذة التاريخ المصريين في القرن الماضي. قدم العديد من الكتب في التاريخ المصري، منها: «تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢» و«مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني» و«حريق القاهرة» و«٤ فبراير ١٩٤٢ في تاريخ مصر السياسي» و«التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث»، إلى جانب المئات من المقالات والدراسات. وعلى يديه درس وتخرج الآلاف من الطلاب، كما أشرف على عشرات الرسائل الجامعية. وإلى جانب التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة، قام بالتدريس في كليتَي الآداب بجامعتي بغداد وعدن.

ولم تقف جهود الدكتور أنيس عند تخريج أجيال جديدة من الباحثين والمؤرخين، فقد تمكن من استصدار قوانين تمنع تسرب الوثائق المصرية إلى الخارج، إضافة إلى تأسيسه «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر»، بهدف تجميع وثائق التاريخ من داخل المركز وخارجه لإفادة أبنائه من الباحثين في سياق إعدادهم لدراساتهم. وقد تمكن المركز، خلال إشراف الدكتور محمد أنيس عليه في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٥، من جمع شتات العديد من الوثائق التي تؤرخ لسيرة مصر وزعمائها وحركاتها الثورية والشعبية.

هذا قليل مما عرفته عن الرجل الذي كان ملء السمع والبصر في حياته وكاد يصبح نسيًا منسيًّا. أنا لم أرَ الرجل في حياتي، وحتى حين أردت أن أعثر على صورة له لم أجد سوى صورة واحدة قديمة باهتة على إحدى المدونات. المهم، وعلى الرغم من أني لم أسمع عن طالب رسب في هذه المادة، فقد رسبت ولأسباب لم أعلمها لا في حينه أو الآن. لكن أهم ما في الأمر أن كتاب الدكتور كان يضم جملة يتردد صداها في عقلي حتى الآن، جملة لم تستوقفني في حينها لكنها ظلت تنهض أمامي، وفي كل مرة تأتي ظواهر تضيف جديدًا إلى معناها. قال ما معناه: «لقد قامت الطبقة الوسطى بهذا الدور الرائع في ثورة ١٩١٩ لأنها كانت طبقة جديدة، ليس لها تراث يعوقها عن الحركة».

جملة بسيطة وتبدو بريئة. تلك الجملة جعلتني أقف المرة بعد الأخرى أمام التراث وأتأمل علاقتنا به، وأدرك بالتدريج أن علاقتنا المريضة بالتراث كارثة بكل المقاييس، كارثة تراها في كل شيء حولك، تلخصها عبارة قبيحة ومبتذلة: «الزمن الجميل». الكل يريد العودة إلى الزمن الجميل، وهو عند البعض مجتمع المسلمين الأوائل، وعند البعض الآخر دولة الخلافة، وعند البعض الثالث أيام الملك، وهناك من يرى في الستينيات ذلك الزمن الجميل. المهم أنها كلها تطلعات للماضي تغلق الباب أمام أي توجه للمستقبل. كل حدث يقع تجد من يقول لك: «لم نرَ مثل هذا من قبل»، كما لو أن كل الأحداث لا بد أن تكون لها سابقة أو سند من الماضي، وكأن التاريخ يعيد نفسه. لا نتحدث عن المستقبل أبدًا، وإن تحدثنا جاء حديثنا إنشائيًّا، غامضًا. كلمة «المستقبل» نفسها تكاد تنقرض من قاموسنا، ويغيب معناها في إدراكنا. كل جديد تقريبًا مرفوض. حالة هروب جماعي للوراء. حالة تأبيد للماضي وتزيينه بكل أشكال النوستالجيا والأسطورية. من ذا الذي أحكم إغلاق حلقات هذا الماضي حول رقابنا؟ هل نحن أمام مؤامرة لإلهائنا عن دورنا في عمار الدنيا؟ لماذا هذا الجب المظلم الذي صنعناه بأيدينا ونرى العالم من داخله؟

هل كُتب علينا، أو كتبنا على أنفسنا، أن نعيش معارك الماضي حتى الآن؟ لماذا ما زال علينا أن نحسم الخلاف بين علي ومعاوية؟ لماذا تحول مهندسون وأطباء إلى دعاة، يفتون في أمور الدين، بينما تحول المشايخ إلى أطباء ومعالجين؟ لماذا لا يزال تلاميذ المدارس عندنا يدرسون عنترة بن شداد؟ ما

كل هذه الغيبية والشعوذة والتواكل التي نراها حولنا؟ ترتيبنا بين الدول تراجع بقدر مهين ولم نتوقف لنتأمل، بل لم يعد الأمر يعنينا أو يطرح نفسه علينا! حتى التساؤل الذي طرحه محمد عمر في أوائل القرن العشرين عن سر تأخر المصريين (في كتابه «حاضر المصريين أو سر تأخرهم») نسينا السؤال أصلًا ولم نعد نفكر فيه. لماذا صارت الماضوية قدرًا لا ينبغي مخالفته أو الخروج عليه؟

منذ أن أغلقنا باب الاجتهاد، صرنا نشرح المشروح على مدى قرون ولا نقدم جديدًا. تزاوج الدين مع الماضي وصار كل جديد منكرًا وحرامًا ومحل ريبة. وترتيبًا على إغلاق باب الاجتهاد في الدين، أغلق المجتمع كله باب الاجتهاد بالضبة والمفتاح في كل المجالات، حتى الشيوعيون فعلوا هذا، عندما جلبوا الماركسية اللينينية (بعلبتها). فالمفروض أن الماركسية هي النظرية المرشدة، أما اللينينية فهي الخطة التنفيذية للنظرية على الواقع الروسي. وكان ينبغي أن يكون هناك اجتهاد مصري خاص يتوصل إلى برنامج لتنفيذ النظرية على الواقع المصري، مثلما كانت الماوية في الصين واجتهادات كاسترو في كوبا أو تيتو في يوغوسلافيا.

لم نعد نسمع عن «إعمال العقل». حتى ما يُدعى بـ«التنوير» عندنا لا يزال واقفًا عند محمد عبده لا يتجاوزه. وهذه مصيبة. لماذا محمد عبده بالذات وهناك من تجاوزوه؟! كلنا أصوليون. وليس هذا تقليلًا من دور محمد عبده التاريخي بحال. والموقف الذي صرنا إليه الآن لم تعد تصلح معه الدعوات إلى الإسلام الوسطي أو تنقية الدين وغير ذلك من الدعوات التوفيقية، بل نحن بحاجة لإصلاح ديني جذري حقيقي كذاك الذي انتشل أوروبا من سباتها ووضعها على أعتاب الثورة الصناعية الكبرى.

بالمقابل، انظر لما حدث في الصين. منذ حوالي أربعين عامًا توصل قطاع في القيادة الصينية إلى استنتاج مؤداه أن طريق الشيوعية لم يعد الاختيار الصحيح، وأن ترتيب الصين في العالم تدهور بسبب هذا النهج. واتفقوا هناك في النهاية على ضرورة العودة إلى اقتصاد السوق. ووقف الحزب الشيوعي نفسه يشرف على الانتقال. وهي مفارقة عظيمة. وبعد أقل من أربعين عامًا احتلت الصين المرتبة الثانية بين دول العالم بعد أن أزاحت اليابان من هذه المرتبة. وقف قادة الحزب الشيوعي الصيني ضد عقيدتهم الراسخة (دينهم)

عندما أدركوا أنها صارت عائقًا أمام تقدم مجتمعهم، ليرسوا بذلك مبدأ جديدًا شجاعًا وصادمًا، يليق بعظمة الصين وعراقة تاريخها: المصلحة فوق العقيدة.

على الرغم من تحفظاتي الكثيرة على ثورة يوليو ومنجزها، فإنني أجد نفسي مدفوعًا للكتابة مذكرًا بتلك المفارقة الغريبة: على الرغم مما شهدته الستينيات من قمع وتضييق على الحريات، فقد شهدت الحياة الثقافية والأدبية نهضة كبيرة، وهي مفارقة ما زالت تشغل بال البعض. وأصبح جيل الستينيات علامة مميزة للإبداع، سواء في الرواية والقصة القصيرة والشعر أو المسرح (وإن لجأت أعمال كثيرة منها إلى التاريخ أو الرمز للإفلات من الرقابة). في سماء الرواية والقصة، ظهرت أسماء مثل علاء الديب، يحيى الطاهر عبد الله، خيري شلبي، عبد الحكيم قاسم، صنع الله إبراهيم، جمال الغيطاني، صبري موسى، أحمد هاشم الشريف، إبراهيم أصلان، محمد البساطي، محمد المنسي قنديل، ومحمد مستجاب، سعيد الكفراوي، سليمان فياض، وغيرهم. أما ساحة الشعر فقد شهدت مجد قصيدة العامية. كان هناك فؤاد حداد، صلاح جاهين، نجيب سرور، عبد الرحمن الأبنودي، أحمد فؤاد نجم، سيد حجاب، عبد الرحيم منصور، وغيرهم.

لكني سأركز حديثي هنا على المسرح، وهو ما أثاره ذلك الاحتفال البيروقراطي الهزيل بإعادة افتتاح المسرح القومي بعد ترميمه. وكان هذا المسرح أيام مجده من المنارات المضيئة لزمن الستينيات بعروضه المتميزة. قدم هذا المسرح، وغيره من مسارح الدولة، في تلك الأيام أعمال عتاولة كتَّاب المسرح آنذاك؛ نعمان عاشور («الناس اللي تحت»، «الناس اللي فوق»، «عيلة الدوغري»، «وابور الطحين»، وغيرها). وسعد الدين وهبة («سكة السلامة»، «السبنسة»، «كوبري الناموس»، «يا سلام سلم، الحيطة بتتكلم»، «كفر البطيخ»). وألفريد فرج («حلاق بغداد»، «سليمان الحلبي»، «عسكر وحرامية»، «علي جناح التبريزي وتابعه قفة»، وغيرها). ومحمود دياب («ليالي الحصاد»، «باب الفتوح»، «الهلافيت»، «رسول من قرية تميرة»، وغيرها). وعبد الرحمن الشرقاوي («الفتى مهران»، «الحسين شهيدًا»، «وطني عكا»، وغيرها). ويوسف إدريس («الفرافير»، «المخططين»، «الجنس الثالث»، وغيرها). ونجيب سرور («ياسين وبهية»، «يا بهية وخبريني»، وغيرهما). وصلاح عبد الصبور («مأساة الحلاج»، «ليلى والمجنون»، وغيرهما). ورشاد رشدي («بلدي يا بلدي»، «عيون بهية»).

وميخائيل رومان («الدخان»، «ليلة مصرع جيفارا»، «العرضحالجي»). وتوفيق الحكيم («شهرزاد»، «عودة الروح»). ولطفي الخولي («القضية ٦٨»). وعلي سالم («أغنية على الممر»، «عفاريت مصر الجديدة»، «بكالوريوس في حكم الشعوب»). وهذا ليس على سبيل الحصر، وإنما ذكر لما لا يزال عالقًا بالذاكرة، أردت به التذكير بجيل يكاد يُنسى.

كما شهدت تلك الفترة بروز عدد من مخرجي المسرح، مثل فتوح نشاطي وسعد أردش ونبيل الألفي وكرم مطاوع وسمير العصفوري وأحمد زكي. وأذكر أنني شاهدت على المسرح القومي عروضًا لأعمال من المسرح اليوناني القديم مثل: «أوديب ملكًا» و«أنتيجون» لسوفوكليس. وكانت هناك مجلة للمسرح تصدر كل شهر بانتظام وتغطي، إلى جانب أنشطة المسرح المحلي، أنشطة المسرح في عواصم العالم. كان مع كل عددٍ مسرحية جديدة مترجمة. وعرفنا من خلالها ترجمات لعمالقة المسرح آنذاك: يوجين يونيسكو، يوجين أونيل، آرثر ميلر، جان أنوي، إبسن، دورينمات، ألبير كامو، جون أوزبورن، برتولد بريخت، أنطون تشيكوف، وغيرهم.

كان الدكتور رشاد رشدي يرأس تحرير مجلة «المسرح» وتولى سكرتارية تحريرها فاروق عبد الوهاب ثم فاروق عبد القادر. وكانت تباع بخمسة قروش، وإذا دفعت اشتراكًا سنويًّا (ستون قرشًا) يصلك عدد جديد كل شهر على عنوان منزلك، وتحصل على كارنيه نادي المسرح الذي يعطيك الحق في حضور عروض مسرح الدولة بتخفيض ٥٠٪، والمشاركة في الندوات التي يعقدها النادي لمناقشة العروض. أضف إلى هذا سلسلة مسرح تصدر شهريًّا قدمت ترجمات لروائع المسرح على مر العصور ومختلف المدارس. وعن أسعار تذاكر المسرح حينها، لك أن تعلم أن الأوبرا بجلالة قدرها كان بها كرسي أعلى التياترو بعشرة قروش. وكانت هناك دائمًا دعوات مجانية، والحقيقة أن جيلنا نادرًا ما دفع نقودًا ليدخل المسرح. فيكفي أن يكون لك صديق بين العاملين بالمسرح ليتيح لك الدخول مجانًا.

وتكاثرت فرق المسرح في الستينيات، فظهر مسرح الطليعة والجيب، وفرق التلفزيون الكثيرة على تنوعها. كذلك انتعشت فرق الجامعة والمسرح العمالي، تلك الفرق التي خرج منها نجوم المستقبل. وكان هناك مسابقة سنوية بين تلك الفرق، يتولى التحكيم فيها كبار المحررين الفنيين في ذلك

العصر. كما ازدهر المسرح في الأقاليم بفضل الثقافة الجماهيرية.

كذلك ظهرت فرقتان عظيمتان للرقص الشعبي، هما فرقة رضا والفرقة القومية للفنون الشعبية، وكان يشرف على الأخيرة مدربون من الاتحاد السوفيتي. كذلك ازدهرت في تلك المرحلة فرقة الموسيقى العربية بقيادة عبد الحليم نويرة، وأصبح لها جمهور كبير، له تقاليده في الاستماع (جدران الصالة بمسرح سيد درويش بالهرم كانت عليها أكثر من لافتة كُتب عليها: «ممنوع المقاطعة بالاستحسان أو التصفيق»). وعندما ظهرت الأسطوانة الأولى للفرقة، وكانت تضم عددًا من الموشحات الأندلسية والأدوار، لاقت إقبالًا شديدًا، إلى درجة أنني اشتريت هذه الأسطوانة وأنا لا أملك جهاز «بيك أب»، فكنت أحملها وأذهب لأحد أصدقائي ممن يملكون هذا الجهاز، نستمع إليها معًا ثم آخذها معي عند انصرافي. ناهيك عن المكتبة الموسيقية التي كانت موجودة بشارع شامبليون بالقرب من ميدان التحرير، والتي كانت تضم أكثر من قاعة استماع وتحوي عددًا كبيرًا من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية.

وقد ظل هذا الصرح الشامخ على ازدهاره حتى أصاب البلد ككل ما أصابه من تدهور، وكانت أولى علامات هذا التدهور في حينه ظهور «فرقة حسني العطار المسرحية»، التي قدمت محاكاة مبتذلة لمسرح العشرينيات والثلاثينيات، كانت أشهر عروضها مسرحية بعنوان «المدام مكسوفة». كانت ظاهرة لافتة، دعت مذيعة من نجوم ذلك الزمن اللامع مثل أماني ناشد إلى استضافة «الفنان» حسني العطار، في برنامجها «تحت الشمس» من إعداد مفيد فوزي. أنت أمام رجل جاهل ومدَّعٍ، ولا يعلم شيئًا عن المسرح وجاءت إجاباته مسخرة بكل معنى الكلمة. وأمام ذلك لم تجد المذيعة بدًّا من إنهاء البرنامج بسؤال معبر: «المدام مكسوفة من إيه؟». بعدها بقليل، اختفت فرقة حسني العطار مثلما ظهرت، لكن المسرح المصري بصورته في الستينيات لم يعد قَطُّ إلى ما كان عليه.

كان من تداعيات الأزمة الوجودية التي عشتها، والتي بلغت ذروتها أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، اهتزاز ثقتي في كل شيء، وقادني الصراع الطويل مع النفس إلى مراجعة الثوابت والبديهيات، بما فيها قناعاتي الفكرية (الماركسية). وهو أمر بالغ الصعوبة لأن المراجعة تجعلك تقف متحديًا بعض مكونات هويتك الذاتية، مناطق استقرت داخلك طويلًا وصارت لها منزلة البديهية. فكرت في أشياء كثيرة. وكان تاريخنا الحديث بالذات على رأس الأشياء المهمة التي رصدتها للمراجعة. وهذا قادني، أول ما قادني، إلى الوقوف عند ثورة يوليو ١٩٥٢ (من ناصر فصاعدًا). نهضت أمامي فجأة سنوات الثورة كشبح بلا ملامح في عقل مشوش. واستتبع الأمر أيضًا أن أقف أمام النقيض وأن أفكر في نظرتي الموروثة للاستعمار والملك والنظام القديم ككل. وقلت لنفسي: إنهما تجربتان اكتملتا وهكذا يصبح الحكم بالنتائج، بعيدًا عن أي أيديولوجيا أو نوايا خفية أو ظاهرة أو استنتاجات أو تبريرات.

لا أخفي عليكم أن هذا الخاطر هزني أنا شخصيًّا، فقد عشت عمري وكل من حولي يتحدث عن الإنجازات الكبيرة للثورة، حتى الهزائم كانت تقدَّم كانتصارات. كما أن أبي، على الرغم من أنه شيوعي وطاله ما طال الشيوعيين من سجن وتشريد، كان، مثل كثير من الشيوعيين، يحب عبد الناصر حبًّا غير مشروط (أذكر أنني جرؤت ذات مرة على توجيه النقد للزعيم في حضرة أبي وهو ما أثار استياءه واتهمني بأنني «ساداتي»، وهي تهمة لو تعلمون عظيمة في بيتنا، تهمة هي إلى الخيانة العظمى أقرب). لكن استطلاعًا أجرته إحدى الفضائيات العربية الإخبارية الشهيرة حول سؤال: «أيهما أكثر رحمة بالشعوب العربية: ١- حكامها. ٢- الاستعمار؟». وقد جاءت النتيجة لصالح الاستعمار بنسبة كبيرة ٦٨٪؛ ما جعلني أشعر بأنني لست وحدي، وعزز شرعية التساؤل.

كنت أدرك أن الموضوع شائك وصادم. ولأخفف من الصدمة عرضت الموضوع من باب المزاح. وهي طريقة شائعة بين المصريين. وهكذا، بين الجد والهزل، أعلنت لأصدقائي بعزمي تأسيس جمعية هدفها رد الاعتبار للاستعمار، وقوبلت الفكرة باعتبارها إيفيه، وإن صادفت هوى أيضًا في نفوس البعض. كنت أعرف أن الصدمة نابعة من أن الفكرة تتعلق بمكون من

مكونات هويتنا هو العداء الراسخ للاستعمار. وبلورت بيني وبين نفسي ما يشبه البيان التأسيسي الشفاهي لهذه الجمعية، ينطلق من محاولة إعمال المنطق والتخفف من الأيديولوجيا قدر الإمكان. خلاصة ما توصلت إليه هو أن ثورة يوليو أطاحت بعقد اجتماعي، عليه تحفظات، خاصة بتوزيع الثروة، لكن له شرعيته المستقرة، واستبدلت به «لا عقد اجتماعي» على رأسه العسكريون وأهل الثقة، وأصبح الولاء للنظام في أي مستوى هو معيار الاختيار. وهو ما كانت له تداعياته السيئة على كل المستويات.

وقبل أن أستطرد، أقرر أنني لا أشكك في صدق نوايا جمال عبد الناصر أو إخلاصه أو وطنيته. وقد كنت من بين الملايين التي خرجت يوم تنحيه تطالبه بالبقاء، ويوم رحيله تودعه. لكن الطريق إلى الجحيم، كما نعرف، مفروش بالنوايا الحسنة. كما أن حكم الشعوب لا مكان فيه للنوايا من أي نوع، والعبرة بالنتائج الملموسة على الأرض. وعلى العموم، لم يكن ناصر وحده في هذا، فكل الأنظمة الوطنية في مرحلة ما بعد الاستقلال كان مآلها التعثر بعد أن فشلت في إنجاز تنمية حقيقية.

عندما تتأمل أهداف الثورة التي أعلنتها آنذاك ستجد أن هذه الأهداف (القضاء على الإقطاع والاستعمار وسيطرة رأس المال على الحكم، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة وجيش وطني قوي وعدالة اجتماعية) لم تتحقق غالبًا، وتحقق عكسها في أوقات كثيرة، وما زالت بحاجة إلى ثورة جديدة لإنجازها. وعدت الثورة، من بين ما وعدت به، بإقامة حياة ديمقراطية سليمة، ودشنتها بإعدام خميس والبقري. لم نشهد سوى حكم الفرد والقمع المستمر حتى اليوم. بالمقابل، لم نسمع أيام الملك والاحتلال عن أشخاص ماتوا في السجون تحت التعذيب، وأكبر جريمتين أخذناهما على الاستعمار الإنجليزي كانتا حادثة دنشواي حيث حكم على ثمانية بالإعدام، وحادثة فتح كوبري عباس على الطلبة التي أسفرت عن إصابة ٨٩ من الطلبة و١٥ من الشرطة واستشهاد طالب واحد. لكننا سمعنا عن تعذيب شهدي عطية وفريد حداد وفرج الله الحلو وغيرهم حتى الموت في سجون عبد الناصر، وما زلنا نسمع حتى الآن عمن يذهبون ضحية التعذيب في أقسام الشرطة (أخبرتني أمي أن حكومات قبل الثورة كانت تصرف حوالي سبعة جنيهات شهريًّا إعانة لأسر السجناء السياسيين، خُفضت إلى أربعة جنيهات بعد تولي وزارة إبراهيم عبد

الهادي، وطبعًا ألغيت بعد الثورة ولقيت تلك الأسر كل تعنت واضطهاد).

كما أعلنت الثورة عزمها القضاء على الرشوة والمحسوبية، لكن ما حدث هو العكس، بعد أن أصبحت الرشوة والمحسوبية، بالتدريج، نظامًا اجتماعيًّا (لم يجد، للأسف، من يُنظِّر له). وبعد أن كان الفساد الذي انتوت الثورة القضاء عليه محصورًا في الملك وبعض أفراد الحاشية، صار هذا الفساد سمة مجتمع بأكمله. هذا الملك الفاسد ترك الحكم والجنيه المصري بقيمة الجنيه الإسترليني وكلاهما أعلى قيمة من الجنيه الذهب، وعندما رحل كانت إنجلترا مدينة لنا، ونسبة بطالة لا تزيد على ٣٪، وكان هناك مجتمع كوزموبوليتاني تتعايش فيه العديد من الجنسيات تعمل من أجل تقدم البلد وخيره، وثروة معمارية تشيع الجمال في كل مكان. صحيح كانت هناك فئات محرومة، بل وحفاء، لكننا في ظل الحكومات الوطنية المتعاقبة وصلنا لما هو أسوأ من الحفاء. لكن وضع مصر العام كان في حال أفضل ومكانتها أعظم. كانت مصر أقرب إلى دول النفط الآن، تفد العمالة عليها من كل صوب وحدب، فتجد جرسونات من اليونانيين وبقالين طليان وميكانيكية وكهربائية من الأرمن، وغير ذلك، ومسلمين ومسيحيين ويهودًا وماسون، كل يعبد ربه بطريقته في حال من التعايش السلمي. كانت مصر رائدة في كل المجالات، وشهد هذا العصر نهضة تعليمية وفكرية وثقافية مزدهرة. وأنجبت جيلًا ما زلنا ننعم بما قدمت قريحته لم نتجاوزه. جيل قاد التنوير وقدم أهم الاجتهادات الفكرية، ذلك الجيل الذي يبدأ بأحمد لطفي السيد وينتهي بلويس عوض، وكل ما جاء بعده ضرب من إعادة الإنتاج، بل إن إعادة الإنتاج نفسها توقفت ليحل محلها الكثير من الأيديولوجيات والقليل من الأفكار.

وأعلنت الثورة عزمها تحويل مصر من بلد زراعي إلى بلد صناعي، يقوم بالتصنيع «من الإبرة للصاروخ». وتصدى القطاع العام لقيادة الصناعة والتنمية في مصر، لكن أداءه جاء مزريًا وحقق على المدى الطويل خسائر فادحة، إضافة إلى ما ساده من فساد، وانتهى الأمر ببيع الكثير من وحداته بالخسارة وتشريد عماله. كما أفرز هذا النظام أسوأ حركة نقابية، حيث كان يشترط موافقة الأمن على الترشح، وأعتقد أن هذا الأسلوب هو الذي أنتج نموذج «المواطنين الشرفاء». كان ولا يزال للأمن الكلمة الأخيرة في كل شيء في البلد، من أول اختيار أساتذة الجامعة وحتى التعيين في مرفق النظافة. ولم

نعد بلدًا زراعيًّا ولا صرنا بلدًا صناعيًّا. واتسعت بالتدريج رقعة الفقر والتفاوت الطبقي، وردت الدولة على هذا بالغناء للفقراء، وظهر شعراء كبار يمجدون الفقراء، وأصبح الفقير في الأعمال الفنية هو مرجع الفضيلة ورأس الحكمة (وإن الفقر مش عيب) وهو الذي تنتصر قيمه في النهاية.

ودشنت الثورة نظام الحزب الواحد (هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي وأخيرًا الحزب الوطني) المستمد من تجربة الدكتاتور البرتغالي سالازار. وقد أصاب الناس اليأس من نظام انتخابي معلومة نتائجه مسبقًا واستفتاءات تصل نتائجها إلى ٩٩.٩٩٩٪، وانصرفوا عن ذلك الديكور الديمقراطي المجدب.

على أن أخطر ما فعله نظام يوليو في رأيي، هو مصادرة روح المبادرة الفردية والتغول على فضاء الفرد لصالح الدولة/النظام. أعلنت الثورة أنها ستتولى كل شيء، هي التي ستوفر التعليم، وتؤمن الوظائف بعد التخرج، وهي التي ستوفر السكن والرعاية الصحية والثقافة والفن، إلخ. لم تترك الدولة مكانًا إلا وفرضت هيمنتها عليه بحيث لم يعد للفرد مكان. وتوسعت فعلًا في البداية في تقديم هذه الخدمات واستقرت بمرور الوقت كحقوق لا يمكن التفريط فيها. لكن مع تزايد الأعداد وتناقص الموارد، بعد نفاد الخميرة التي تركها الملك والاستعمار، وعدد من الحروب ومغامرات مثل الصاروخين القاهر والظافر، واتساع رقعة المستحقين في ظل غياب تنمية حقيقية (كانت الخطة الخمسية الأولى (١٩٦٠-١٩٦٥) الوحيدة التي اكتملت)، بدأت جودة هذه الخدمات تقل وانصب الاهتمام على الكم والتوسع في بناء المدارس والمستشفيات الجديدة، واستيعاب المزيد من الأعداد من دون تعليم أو علاج حقيقيَّين (تضخم الخدمات). وكلنا على علم بإحصائيات الأمراض في مصر، أما التعليم فيكفي أننا نحتل مراكز مخزية في سلم التعليم والبحث العلمي، ونضخ أعدادًا متزايدة من الجهلاء وبتكلفة باهظة كل عام، لينضموا إلى جيش العاطلين. هذا غير البطالة المقنَّعة التي ربما فاقت البطالة العادية (قدرت دراسة ظهرت في التسعينيات متوسط عمل الموظف المصري في اليوم بـ١٧ دقيقة).

وأمام هذا العبث التخطيطي والاهتمام النسبي بالمدينة على حساب الريف، توافد على المدن، ويتوافد كل يوم، الملايين من الفلاحين الباحثين عن فرص

الرزق التي لم يجدوها في قراهم. وهذا ما أدى في النهاية إلى ما يطلق عليه «ترييف المدينة»، وظهور العشوائيات بشكل سرطاني، وانتقال العشوائية شيئًا فشيئًا إلى كل جوانب الحياة.

* * *

كانت إشاعة تأسيس هذه الجمعية مجرد حيلة أردت منها التنبيه إلى أهمية وضرورة المراجعة والوقوف أمام البديهيات والثوابت وتأملها وإعادة النظر فيها. فهناك أشياء كثيرة في تاريخنا وحياتنا بحاجة إلى رد الاعتبار، ليس على رأسها الاستعمار الإنجليزي بالطبع. كما أن العهد الملكي لم يكن نعيمًا كله، لكن كان عشمنا كبيرًا في الثورة الوطنية.

عندما أتذكر عبد الكريم الآن يصعب عليَّ تصنيفه ووضعه في خانة بعينها. عرفته بالمصادفة. ذهبت لصديقي كمال عارف فلم أجده، وأخبرتني زوجته أنه «غضبان وقاعد عند عبد الكريم»، وأخبرتني أنها كانت تنوي الذهاب إليه لأنه نسي الشبشب الزنوبة. ذهبت معها لأرى عبده للمرة الأولى، بمنزله بمساكن شجرة مريم. شاب أسمر، ضخم البنية إلى حد ما وله وجه طفل شقي، علمت بعد ذلك أنه من السباعية مركز أسوان ويعمل محاسبًا مع كمال في شركة مقاولات (عبده حاصل على دبلوم تجارة، لكنه أجاد أعمال محاسبة المقاولات).

توطدت علاقتنا حتى صرنا نلتقي يوميًّا تقريبًا، سواء منفردين أو في إطار «عِب النعام»، الذي كان يضم كلًّا من كمال عارف والدكتور حسنين كشك والشاعر محمود الطويل، وكان ينضم إليه من حين لآخر أصدقاء من دائرة مصر الجديدة الأوسع، الرسام الرائع الراحل جودة خليفة وصديقنا عزيز المصري، الذي كان مسؤولًا عن التجهيزات في «روز اليوسف». كان عبد الكريم شخصًا ظريفًا وكانت ضحكته حاضرة دائمًا مهما كانت الظروف، كانت فيه بساطة وله خيال جذاب في الحكي ودائمًا له السيناريو الخاص به لكل حكاية أو موقف يرويه.

مع تطور علاقتنا، اتفق الأصدقاء على تقسيم للأدوار بيني وبينه، فصار هو «شعبي العظيم» وأنا زعيمه، ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن بعضهم كان يناديه: «يا شعب». لم يكن لي فضل في هذه الزعامة، فقد عرفت بعد ذلك أن عبد الكريم لا يعيش أبدًا بدون زعيم وأنه يختار زعماءه، يصطفيهم. حكى لي كثيرًا بعد ذلك عن زعيمه الفلسطيني عندما ذهب للعمل في ليبيا، تلك الرحلة التي بدد جزءًا كبيرًا مما جناه خلالها على اختراع جديد لم تكن مصر قد عرفته بعد: «السِّفن أب». حكى لي عندما دخل عليه هذا الزعيم ذات مرة غاضبًا وأبلغه أن الفيتناميين تكبدوا خسائر كبيرة في الرجال وناشرين إعلانًا يطلبون فيه من شرفاء العالم التطوع للذهاب إلى هناك. ليس مطلوبًا منهم أكثر من أن ينجبوا لتعويض النقص. تأثر شعبي العظيم لحال الشعب الفيتنامي وعندما سأل عن طريقة التطوع، أبلغه الزعيم أن القذافي سامح بسفارة لأمريكا ورافض السماح بسفارة لفيتنام وأن عليه التوجه للسفارة

الروسية.

من اليمين: كمال عارف مستلقيًا وشعبي العظيم وأنا

لم يكذب عبده خبرًا. اتخذ إجراءات التأمين اللازمة واجتاز أكثر من شارع، على سبيل التمويه، قبل أن يصل إلى مقر السفارة الروسية. وعندما ضغط زر الجرس، خرج له رجل أربعيني يتحدث بلكنة المستشرقين، وعندما أبلغه عبد الكريم بالغرض من زيارته بانت الدهشة على وجه الرجل. وبعد أخذ ورد انتصب الرجل واقفًا وأعلن أمامه بصوت رسمي فاض به الكيل: «هنا السفارة الروسية». وأعطاه وهو خارج مجموعة من كتيبات الدعاية.

غادر عبده مبنى السفارة محبطًا، ومضى يتصبب عرقًا تحت شمس الظهيرة طلبًا للمواساة. وصل إلى البيت ووجد الزعيم يتوسط مجموعة من الأصدقاء والزملاء. وعندما هَم بالحديث وهو يلهث، انفجر الحضور في الضحك، وصاح الزعيم موجهًا الكلام لعبده: «عايز تشتغل طلوقة يا زلمة؟». وانفرط شعبي في موجة من الضحك الهستيري بعد أن أدرك المقلب الذي دبره له زعيمه.

عشنا شعبًا وزعيمه وأضفى الأصدقاء الشرعية على هذه العلاقة. واستطاع

عبده بفضل خفة دمه وروحه اختراق دائرة أصدقائي الأوسع. فصار صديقًا قريبًا من صديقنا الروائي الكبير محمد ناجي وبقية الأصدقاء بدرجات. ومعًا، تسكعنا في شوارع كثيرة وبالذات في القاهرة القديمة، وكان المقهى الكائن أمام مسجد قايتباي (الموجودة صورته على الجنيه المصري الورقي) بمقابر الغفير أحد مقاصدنا، وكانت جلستنا تنتهي عادة بجولة هادئة في العصرية بين المقابر، حيث «هدأة السكون»، بتعبير الدكتور محمد حسين هيكل، تسلمنا في النهاية لطريق صلاح سالم من ناحية القلعة.

جرب عبده أكثر من «فشروع»، وهو التعبير الذي استخلصناه من محاولاته التي لم تحقق النجاح. لكن ظل حلم القهوة هو الأثير لديه. كان يتمنى أن يصبح معلم صاحب قهوة، يجلس على طاولة المارك يتابع العمل ويحصِّل الإيراد. وكان طاهيًا ذاع صيته في أوساط الشلة، كل فترة يولمنا بما لذ وطاب، مستعينًا في هذا بخلاط ضخم له شاشة غريبة أشبه بشاشة الراديو (قال لنا إن البائع في ليبيا أقنعه فعلًا أن الخلاط معه راديو وهذا ما شجعه على شرائه)، وهو من الأشياء القليلة التي خرج بها من سفرية ليبيا. كان يستخدمه في ولائمه التي يقدمها لنا من العدس أو الملوحة بالطحينة، إلى جانب تمكنه من عمل الفتة مع لحمة الراس أو غيرها من اللحوم.

أخبرنا عبده ذات يوم أنه قرر أن يصبح «قصَّا» أي كاتب قصة قصيرة، وكتب قصة بالفعل وقرر أن يفعل كما كان يفعل صديقنا الروائي محمد ناجي. في فترة، اعتاد ناجي الاتصال بصديق ليقرأ له تلفونيًّا شيئًا مما يكتب استئناسًا برأيه. واختار عبده الأستاذ علاء الديب ليسأله تلفونيًّا رأيه فيما جادت به قريحته. استمع الأستاذ علاء على مضض حتى انتهى، وعندما سأله عن رأيه أجابه - كما حكى لي عبده وهو غارق في الضحك: «اسمع يا عبده، لو في إيدك شغلانة مضمونة إمسك فيها جامد».

كان عبد الكريم عمليًّا للغاية، ولا يحتمل الجوع. عندما بلغه خبر وفاة أبيه، أدرك - حسب روايته - أن اليوم سيكون عصيبًا وعليه أن يموِّن أولًا، فتوجه إلى محل الكشري ليتزود بطبقين من الكشري والأرز باللبن.

وعلى عكس معظم الأصدقاء في ذلك الحين، لم يكن عبد الكريم ينتمي لأي من التنظيمات السرية القائمة. لكنه مع ذلك كان قريبًا جدًّا من قيادات أحد التنظيمات، إلى درجة أننا منحناه لقب «صديق مركزي». فعندما أراد أحد

قادة هذا التنظيم إجراء عملية جراحية، لم يأتمن سوى عبد الكريم كي يحضر معه العملية ويكون حافظ سره إن حدث وفضفض تحت تأثير البنج.

حكايات عبده وطرائفه لا تنتهي. لكن علاقتنا تعثرت بعد أن تباعدت المسافة المكانية بيننا، عندما اضطررت إلى ترك مصر الجديدة والانتقال للسكن في ٦ أكتوبر ثم الشيخ زايد. اقتصر التواصل بيننا على التلفون الأرضي، وعندما أصيب بالكبد ذهبت لزيارته بصحبة الصديق محمود الطويل، لكن جلستنا لم تطل حيث هاجمته نوبة الكبد وسارعنا بنقله إلى مستشفى الحسين الجامعي. وكانت تلك المرة الأخيرة التي أرى فيها عبد الكريم، لكنه لم يغب عن ذاكرتي قَطُّ.

رحم الله شعبي العظيم وأسكنه فسيح جناته جزاء ما قدم لنا من بهجة.

المؤلف

ولد بدر الرفاعي في ٨ أكتوبر عام ١٩٤٨، وتخرج من قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧١. عمل في دار الفتى العربي (١٩٧٨-١٩٨٠)، ومجلة زهرة الخليج (١٩٩٨-١٩٩٩)، ومجلة كل الناس (١٩٩٣-٢٠٠٨)، وفي قسم الترجمة بجريدة الشروق (٢٠٠٩-٢٠١٣). نُشر له العديد من المقالات في الأهرام الاقتصادي، ومجلة القاهرة (القديمة)، ومجلة الثقافة العالمية (الكويت)، وجريدة العالم اليوم، وجريدة البيان (الإمارات)، ومجلة زهرة الخليج (الإمارات)، ومجلة كل الناس (السعودية)، ومجلة الكتب وجهات نظر، وجريدة القاهرة. وكرَّمه المركز القومي للترجمة في اليوم العالمي للغة العربية تقديرًا لإنجازاته في الترجمة في ديسمبر ٢٠٢٠.

من ترجماته:

١. مواجهة الفاشية في مصر: الديكتاتورية مقابل الديمقراطية في الثلاثينيات، تأليف إسرائيل جرشوني وجيمس جانكوفسكي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٢.
٢. التنوير الإسلامي: الصراع بين الدين والعقل في العصر الحديث، تأليف كريستوفر دو بلليج. الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٧.
٣. مقدمة قصيرة عن الفلسفة السياسية، تأليف دافيد ميلر. دار الشروق، ٢٠١٤.
٤. مقدمة قصيرة عن الصحافة، تأليف إيان هارجريڤز. دار الشروق، ٢٠١١.
٥. نهب الفقراء: الشركات عابرة القومية واستنزاف موارد البلاد النامية، تأليف جون ميدلي. المركز القومي للترجمة، ٢٠١١.
٦. أصوات من مصر القديمة: مقتطفات من كتابات الدولة الوسطى، تأليف ر. ب. باركنسون. سنابل للكتاب، ٢٠٠٩.
٧. منظور جديد للفقر والتفاوت، تأليف ستيفن بي. جنكينز وجون مايكلرايت. سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧.
٨. الصناعات الإبداعية كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا والعولمة، تأليف جون هارتلي. سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ثم مكتبة الأسرة، ٢٠١٦.
٩. مصر الخديوية: نشأة البيروقراطية الحديثة (١٨٠٥-١٨٧٩)، تأليف روبرت

هنتر. المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ثم الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥.
١٠. اليهودي العالمي: المملكة اليهودية.. نظرة أمريكية (الجزء الثاني)، تأليف هنري فورد. مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣.
١١. الميراث المر: الأيديولوچيا والسياسة في العالم العربي، بول سالم. المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٢.
١٢. هوية مصر بين العرب والإسلام (١٩٠٠-١٩٣٠)، تأليف إسرائيل جرشوني وجيمس جانكوفسكي. دار شرقيات ١٩٩٩، ثم الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
١٣. الحروب العربية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٨٢)، تأليف حاييم هرزوج. سيناء للنشر، ١٩٩٣.
١٤. ضباط الجيش في السياسة والمجتمع العربي، تأليف إليعازر بعيري. سيناء للنشر، ١٩٩٢.
١٥. الزخرفة عبر التاريخ: ٢٥٦ نموذجًا تمثل كافة مدارس الزخرفة، تأليف و. ج. أودزلي. مكتبة مدبولي، ١٩٨٠.
١٦. أفريقيا: قارة ثائرة، تأليف فلاديمير سيمونوف. دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٨.

هوامش

(١) نُشرت في جريدة «القاهرة» عام ٢٠١٤.
(٢) نُشرت في جريدة «القاهرة» في ٣ مارس ٢٠١٥.
(٣) نُشرت في جريدة «القاهرة» في ٧ أبريل ٢٠١٥.
(٤) نُشرت في جريدة «القاهرة» عام ٢٠١٥.
(٥) نُشرت في جريدة «القاهرة» في ٢٤ مارس ٢٠١٥.
(٦) نُشرت في جريدة «القاهرة» في ٢٥ نوفمبر ٢٠١٤.